مصر والنيل
بين التاريخ والفولكلور

د. عمرو عبد العزيز منير

لوجو
الهيئة المربع

١

www.alkottob.com

مكتبة
الدراسات الشعبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• مصر والنيل
بين التاريخ والفولكلور
• د. عمرو عبد العزيز منير
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
400ص ـ 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
شوكت المصرى
• رقم الإيداع: ١٦٦٦١/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 978-977-479-528-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

126

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور ونصوص وسير وحكايات وملاحم الأدب الشعبي

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
خيري شلبي
مدير التحرير
حمدى أبو جليّل
سكرتير التحرير
عادل سميح

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

مصر والنيل
بين التاريخ والفولكلور

www.alkottob.com

المحتوى

- هذا الكتاب 7
- تـقـديم 15

*** الفصل الأول:**

- أصل مصر وجذور المصريين فى الأساطير العربية 23

*** الفصل الثانى:**

- آثار الحضارة المصرية القديمة 57

*** الفصل الثالث:**

- كنوز مصر القديمة فى التاريخ والأسطورة 161

*** الفصل الرابع:**

- فراعنة مصر القديمة الأسطورة والتاريخ 223

*** الفصل الخامس:**

- نهر النيل فى الأساطير العربية 265

*** الفصل السادس:**

- الشخصية المصريةبين كتابات الرحالة والموروث الشعبى 311

www.alkottob.com

www.alkottob.com

هذا الكتاب

الوصول إلى الحقيقة..
عبر الخرافة

يجب أن أعترف بأن هذا الكتاب الذى بين أيديكم مصر والنيل بين التاريخ والفولكلور قد أمتعني متعة فنية لا حدود لها، أول بوادر هذه المتعة كانت ماثلة فى أن ولدنا الباحث النابغة الموهوب الدكتور عمرو عبد العزيز منير كاتب أديب بالدرجة الأولى قبل أن يكون باحثا فى علم التاريخ، إنه أديب مشرق الأسلوب غنى بالمفردات، لديه حس رهيف بإبداع القريحة الشعبية التى أنتجت هاتيك الروائع الغنية الفولوكلورية- غير منسوبة إلى مؤلف بعينه ولديه إلى ذلك ذائقة فنية عالية، أضافت إلى عقليته البحثية العلمية الدقيقة رصيدا هائلا من

www.alkottob.com

القيمة الوجدانية وحيث كان من المتوقع عادة أن تجيء شحنته الوجدانية على حساب لغة البحث العقلانية، أو العكس تطغى لغة العلم المجردة القاطعة الحاجة على لغة المجاز الأدبى، مما يخلخل بنيان الباحث فيهتز سياق البحث وتتجمع أحكامه ونتائجه.. إذا بهذا الباحث الأديب يحقق درجة من التوازن بين لغة العلم ولغة المجاز الأدبى، فإذا المجاز يخدم العلم، وإذا العلم يستنير بالمجاز.

نفس التوازن المذهل في دقته أحدثه فى منهجه العلمى الذى كتب به هذه الدراسة التاريخية فى ستة فصول إضافية، إلى أن كل فصل منها يصلح أن يكون كتابا قائما بذاته، وإذا كان العلم الحديث قد خلص التاريخ من الأسطورة فإن الدكتور عمرو يدمج بينهما فى جدلية موضوعية مستنيرة، إن التاريخ لا يجب أن يستعلى على الأسطورة المرموز بها لكل النتاج الفولكلورى من حكايات خرافية وحواديت شعبية إلى المواويل والأغنيات والمأثورات الدارجة، إلى الرسوم البدائية الساذجة على واجهات البيوت ابتهاجا بعودة الحجاج، إلى- طبعا - السير والملاحم الشعبية الشهيرة التى أسهمت بنصيب كبير فى تكوين الوجدان الشعبى منذ قرون من الأزمان وإلى اليوم.

كل هذا النتاج الفولكلورى- فى منهج الدكتورعمرو عبد العزيز منير- يصلح أن يكون أدلة وأسانيد ووثائق دامغة فى خدمة التاريخ.. وكتابه هذا، فيما يقول: «يعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبى وجهان متوازيان يُفهم أحدهما بواسطة الآخر مما يسر علينا أن نتخذ المنهج التاريخى والتحليلى فى رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية فى كتابات الرحالة

والمؤرخين القدامى وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بمصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطورى موروث من المرحلة الغيبية السابقة التى كانت تشكل آراء التاريخ وموضوعاته.. إلخ».

التاريخ المصرى فى جميع فتراته، وبخاصة الفترة المملوكية التى قرأت فيها كثيرا أثناء كتابتى لرواية (رحلات الطرشجى الحلوجى فى الزمكان)، فيه وقائع أشد خرقا من الحكايات الخرافية، إذا حكيت مجردة بدت أساطير لا يمكن تصديقها برغم وقوعها فى الواقع. وتأكدى- مثلما توصل الدكتور عمرو- أن الكثير الكثير من أخبار الكرامات والمعجزات الخرقاء التى أحاطت بكثير من البلهاء المشهورين لم تكن نابعة من فراغ، وحتى إذا كانت محض خرافة، فإن التمعن فيها بهدوء ورويه يكشف لنا عن جوانب متعددة فى البناء التاريخى للشخصية المصرية، وفى بنائها الوجدانى وكيف نتعامل مع الأبله كرمز للبراءة الإنسانية ومن ثم فإنه بلا خطايا تجعل الله يغضب منه، وبالتالى فإن الله يمنحه الشفافية فهو إذن قريب إلى الله، راجل بركة.. إلخ.

وعليه فإن المؤرخ حين يفلح في استنطاق الخرافة، وفي النفاذ إلي الحركة المضمرة فى الرسوم الثابتة- جدارية كانت أو ورقية أو حتى وشمية- فإن ذلك يوسع من آفاق البحث واستكشاف سبل جديدة إلى الحقيقة التاريخية. إننا- على سبيل المثال لن نفهم شخصية السيد أحمد البدوى فهما جيد إلا إذا تجاوزنا وقائع سيرته الذاتية الواقعية إلى ما أحيط به من أساطير تبدو خرافية ونحن عقلانيا نتقبل الخرافة وتحترمها بادئ ذى بدء إكراما لخاطر ما تحتويه من دلالات غاية فى العمق والنفاذ.. دعنى أضرب لك مثلا على ذلك سبق أن أوردته فى

www.alkottob.com

رواية لى بعنوان (بغلة العرش) لأنه– المثل – كان من أديبات شعبى منطقتنا فى محافظات وسط وشمال وشرق وجنوب الدلتا ذلك أن العارف بالله إبراهيم الدسوقى الشهير بأبى العينين، وهو من هو فى عالم التصوف والمتصوفة الذين كانوا فى نفس الوقت أبطال تحرير لعبوا أدوارا شعبية فى مقاومة العدوان خلال الحروب الصليبية كان له خادم خصوصى يلازمه ليل نهار يقوم على خدمته فى كل صغيرة وكبيرة وهو دون جميع مريديه وأتباعه يحظى عنده بمكانة طيبة، هذا الخادم الخصوصى لهذا القطب الكبير كان من قريتنا وكان وحيد أمه الأرمل، ومع ذلك تمر الشهور تلو الشهور دون أن تراه، فأين هى من خلوة الشيخ على بعد ما يقرب من مائة كيلو متر من قريتنا فى مدينة دسوق؟. ولكن شوقها إليه زاد، فسافرت إليه سيرا على قدميها سألت عن خلوة الشيخ فدلوها عليها، لتفاجأ بابنها متربعاعلى الأرض أمام باب الخلوة يتناول غداءه وكان عبارة عن رغيفين يابسين وطبق من الفول والفلافل وعودين من الفجل وأطلت من باب الخلوة على الداخل، فرأت الشيخ متربعا بدوره ولكن فوق الحشايا والسجاجيد، وهو الآخر يتناول غداءه الذى كان عبارة عن دجاجة مشوية وقد راح يفصصها ويطوح بنسائرها فى فمه ويأكل بتلذذ واستمتاع. منطقها الريفى البسيط كأم مصرية لم يعجبها المنظر بل وجعها فى قلبها وحينما استأذنت للدخول على الشيخ لتسلم عليه تلقاها بترحاب واحترام شديدين، لكنها هذه المرة لم تهجم عليه لنقبل يده فى اشتياق للبركة بل اندفعت تقول بتلقائية موجوعة:

بقى يا مولانا.. الولد بيخدمك بعينيه وبإيديه وسنانه!

وهو يا قلب امه قاعد ياكل عيش ناشف وشوية فول!

وانت ماشاء الله ماسك فرخة بتفصص منها وتاكل

ما تقولوش خد حتة ترم بيها عضمك الدايب فى خدمتى!!

تركها الشيخ حتى دلقت كل انفعالها وقال:

خلصتى كلامك؟

قالت: متأخذنيش!

فنظر الشيخ فى كومة العظم المتخلف عن الدجاجه وصاح فيها:

هش قومى!

فانتفضت كومة العظم صارت فى الحال دجاجة راحت تكاكى وتدور فى الخلوة ثم اختفت فنظر الشيخ للمرأة وقال لها:

لما ابنك يعرف يعمل دى.. يبقى ياكلها!

تلك حكاية خرافية أى نعم ولكنها تحمل قيمة عميقة الدلالة تدعونا لتبجيلها.

كذلك ما عمرت به ذاكرة القوم من أساطير وحكايات خرافية عن نهر النيل، عن أصول مصر وأهلها، عن فراعته مصر وكنوز الجبانات، عن الشخصية المصرية.. نتقرى فيها تاريخا موازيا لتاريخ الوقائع الواقعية.

كلمتى هذه قصدت بها أن تكون مبرراً لإعجابى بهذا الكتاب القريب جدا إلى نفسي وإنى لعلى يقين أنه سيكون قريبا إلى نفوسكم بنفس الدرجة وربما أعمق.

أترككم مع هذه الوجبة الثقافية الدسمة الشهية.. أشكركم، وسلام عليكم.

خيرى شلبى

www.alkottob.com

إهداء إلى..

سهير القلماوى .. الزمن والريادة

علاء الديب .. الشجرة الوارفة التى أظلت الكثيرين

الدكتور حسين عليوة.. محبة خالصة لوجه الله

شيخى الجليل... أستاذى الدكتور قاسم عبده قاسم

جالستُ غيرك فعرفت سمو قدرك.

عمرو

www.alkottob.com

تقديم

(ثمة علاقة جدلية بين الموروث الشعبى والتاريخ. فالموروث الشعبى مادة من مواد التدوين التاريخى،التى تساعد على تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، والتاريخ بدوره يشترك معه فى دعامات ثلاث: الإنسان، الزمان، المكان.

وهكذا؛ فإن مادة المؤرخ ومصادره تشمل فيما تشمل، الموروث الشعبى بكافة أجناسه وإبداعاته التراثية للشعوب. سواء كانت بدائية أو متحضرة، أى كل ما تم إنجازه عن طريق استخدام الأصوات والكلمات،فى أشكال غنائية شعرية،أو نثرية متضمنة الاعتقادات الشعبية أو الخرافات والأساطير والعادات والتقاليد والرقصات والتمثيليات وغيرها. مما تنم به عن أساسيات التفكير وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان مقترناً ببيئته فى إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والتى تحمل رؤية العصر الذى يصوره. كما

www.alkottob.com

تكشف عن وجدان الإنسان الذى يحيا فيه،كما يصور هذا الإنسان بقضاياه التى يتعامل معها فى سياق فنى محكم وببساطة وعمق آسرين،وفوق هذا كله فهو يأتى فى مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون،سواء فى العصور السابقة أو فى عصرنا الحالى،من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم.

فقد مكث المؤرخون ردحاً من الزمن،يتجاهلون نتاج العامة الثقافى بروح من التعالى والغطرسة،التى جعلتهم يضربون عرض الحائط بما ظنوه ضرباً من العبث والخرافة[1] التى تناسب عقول العامة وإدراكهم. بيد أن التطورات التى ألمت بمجال الدراسات التاريخية دفعت بالمؤرخين إلى الاعتراف المتزايد بما طال السكوت عنه فى (الموروث الشعبى) الذى يقدم لنا رؤية جمعية للحقيقة التاريخية. إذ أن الجماعة فى رؤيتها للحدث التاريخى تقفز فوق التفاصيل، وعلاقات الزمان والمكان، ولا تهتم سوى برسم صورة كلية حُبلى بكل الرموز الاجتماعية والثقافية،كما تحرص على بلورة موقفها التاريخى إزاء الحدث،وهذه الصورة الشعبية غالبا ما تحمل وعى الجماعة بذاتها، وتختزن فى طيات أحداثها الخيالية كثيراً من المضامين التاريخية ولهذا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على (الموروث الشعبى). إلى جانب مصادره التقليدية، ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها.

من هنا تأتى مشروعية هذا الكتاب. الذى يحاول أن يملأ فجوات فى بنية (المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد) فى المصادر

التاريخية التقليدية، والتى لا تستطيع وحدها أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية، إذ أنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية،وإنما غاية ما يمكنها أن تقدم لنا،جانباً جزئياً من تلك الحقيقة التاريخية. فالتاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب، لأنه يصنف الحوادث، ويحتفل بالأسباب والنتائج، ويتسم بالتعميم. وقد أخذ هذا التاريخ فى صورته الرسمية إلى سنوات قليلة خلت، يقص سيرة مصر، وبلدان المشرق العربى عامة من قمة الكيان الاجتماعى ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة أى تاريخ (القمم) بحيث إنها نادراً ما تطرقت إلى تاريخ الناس العاديين الذين يقبعون فى (سفوح المجتمعات) إن صح التعبير مما جعلنا نستقرئ تراثاً ناقصاً،ولا نلتفت إلى ما أنشأه الشعب لنفسه عن نفسه.

وتراثنا العربى الذى وصلنا من عصور التألق الفكرى فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية،قد ضم الكثير من الموروث الشعبى بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف،المتخمة بالأساطير والمعتقدات السحرية والحكايات الشعبية، والأحاجى والألغاز والمحاورات الفكاهية والسِّير والملاحم الشعبية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوى على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها .

خاصة وقد دونها لنا أعلام الثقافة العربية، ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة، أو بين أدب الصفوة وأدب العامة، فى مؤلفاتهم ومدوناتهم . التى تتطلب – فى حقيقة الأمر – دراسة

www.alkottob.com

مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضاً ما قد تنم عليه من دلالات وأساسيات فى التفكير العربى والإسلامى،وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون، وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية / المنهجية) على تراثنا المدون، الممتد طويلاً فى المكان والزمان العربيين، فتتجدّد الرؤى المعرفية، وتتعدّد القراءات، فتتجذّر المناهج، وتتواصل الدراسات الشعبية العربية، اكتشافاً وتأويلاً، دراسة وتأصيلاً، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعى التاريخى والمعرفى والثقافى به، ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبى فى كتب التراث العربى.

لذا يأتى هذا الكتاب – الذى هو فوق راحة اليد الآن – والموسوم بـ (مصر والنيل بين التاريخ والفولكلور) فى محاولة لإثارة الوعى أو قل (عودة الوعى) بتراثنا الحضارى، وهو يصدر عن رؤية تلتمس فى الماضى التفسير الشعبى لتاريخ مصر: الإنسان والحضارة والأرض. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية ؛ أى التفسير النفسى والوجدانى ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

والمتأمل فى موضوعات الكتاب يلمس خيطاً أو عقداً فريداً يربط فصولها؛ إذ أنه يعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبى وجهان متوازيان وصنوان متلازمان يفهم أحدهما بواسطة الآخر مما يسر علينا أن نتخذ المنهج التاريخى والتحليلى فى رصد

الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية فى كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى، وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بمصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطورى موروث من المرحلة الغيبية السابقة التى كانت تشكل آراء التاريخ وموضوعاته، على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد الرحالة والمؤرخين إلا أن أصولها لم تستغلق – فى الأغلب الأعم – مستفيداً من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية المزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن مصر فى بطون الكتابات التاريخية والجغرافيَّة .

ولقد اتخذ الكتاب من (مصر) محوراً بوصفها نموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت – نسبياً – فى أركان العملية التاريخية (المكان) فضلاً عن أنها اكتسبت فى مخيلة الرحالة و المؤرخين والكُتاب أبعاداً ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع فى تلك المخيلة بصفة تكاد تكون "نمطية " تنطوى على الصدق حيناً، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة فى أحيان أخري، ولعل هذه التصورات التى راحت تتضخم عبر العصور هى التى اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب ؛ أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم. فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع الماضى فى مصر،بما تحمله من دلالات جغرافية وتاريخية تمثل نمطاً فريداً مفعماً بالعلوم والفنون والسياسة والحكم،ومحوراً للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضى والواقع الفعلى ومسرحاً لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

www.alkottob.com

هذه الدلالات كلها كانت الأرضية التى استندت إليها مبادئ هذا الكتاب والذى يضم عدداً من الدراسات فى هذا المجال، الذى يهتم بدراسة العلاقة بين الدراسة التاريخية والموروثات الشعبية ومن خلال هذه الدراسات التطبيقية الستة أحاول أن ألقى الضوء على جوانب تلك العلاقة على أمل أن يكون ذلك مساهمة فى تطوير مناهج البحث التاريخى .لاسيما فى مجال دراسات التاريخ الاجتماعى والدراسات الأثرية، ومن ناحية أخرى أحاول تلمس الطريق الذى سبق وأن عبَّده لنا كل من الفنان سعد الخادم (رحمه الله) والأستاذ الدكتور محمد رجب النجار (رحمه الله) والأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم فى مجال الدراسات الفولكلورية والتاريخية والأثرية.

كما يأتى هذا الكتاب فى محاولة لجذب انتباه الباحثين فى مجال الدراسات الشعبية إلى أهمية الاهتمام بالخلفية التاريخية للفنون التى يهتمون بدراستها ورصدها والتى يتحمس لها الكثيرون فى الوقت الحاضر والتى نخشى أن نتحمس لها بالكيفية التى تجعلنا نتحدث على لسانها. أو نحاول شرحها وفقاً لأمزجتنا، فنرى أنفسنا نبتعد تدريجياً عنها، فهذا النوع من الفنون لا يحتاج إلى عطف أو إنقاذ بقدر حاجته إلى تفهم، وخير ما يحميه من الاندثار هو المعرفة الحقيقية بأصوله.

وفى هذا الكتاب محاولة لكشف أواصره وتتبع خطاه وهو أيضاً خطوة لا تخلو من نقص ضرورى، يدعونى إلى المزيد من الحرص على البحث،والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة فى الفهم والتساؤل. والذى لا يمكن معه الظن بأن موضوع الأساطير

والحكايات الشعبية فى كتابات المؤرخين والرحالة قد استكمل حقه بحثاً ونقداً وتحليلاً وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبى فى كتب التراث العربى ومصادره، ومع كل فإن هذا الكتاب إنما هو محاولة لدراستها يرجى أن تتبعه محاولات أكثر شمولاً ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفاً عربياً صرفاً لا نحتاج بعده إلا للتواصل مع الغرب فى هذا المجال كأنداد لا كمتلقين تابعين .

والحمد لله، فى البداية والنهاية، له سبحانه الفضل، وهو من وراء كل توفيق .

د. عمرو عبد العزيز منير

القاهرة إبريل ٢٠٠٩م

www.alkottob.com

الفصل الأول

أصل مصر وجذور المصريين فى الأساطير العربية

www.alkottob.com

.السبب فى تسمية مصر بأم الدنيا؛ أنها تحتوى على جميع أجناس الخلق، وأنواع الأمم، التى يبلغ عددها اثنتين وسبعين أمة تتكلم بمائة وأربعين لغة. كما تشمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة، فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق، فضلاً من الله ومنة..وما ذلك إلا أن كثرة أهالى مصر، وسكانها من الفلاحين. أعنى أنهم من أهل الكد والعمل الشاق، ومعاناة الأهوال فى سبيل إسعاد الغير. إذ أن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر فى بحبوحة من الخيرات، والخصب وعلى جانب عظيم من النعم، ورغد العيش الذى يتمتع به الناس والحيوان. فلأجل هذا سميت مصر بحق (أم الدنيا) كالأم الرءوم تعنى بجميع أركان الدنيا، وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها، وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها .."

" أولياجلبى"

"سياحتنامه مصر٦٠٧/"

www.alkottob.com

بُهر العرب الفاتحون بمصر وحضارتها، مثلما بُهِرَ بها الغزاة السابقون من فرس وآشوريين ويونان ورومان، ويعكس ما يكتبه الرحالة و المؤرخون العرب والمصريون المسلمون منذ كتاب ابن عبد الحكم "فتوح مصر وأخبارها" – وهو أول كتاب يصلنا كاملاً عن فتح العرب لمصر -، وحتى ما كتبه الجبرتى فى كتابه الشهير "عجائب الآثار، فى التراجم والأخبار"؛ يعكس هذا الانبهار والإعجاب بمصر أرضاً وعمراناً وآثاراً وبشراً ونيلا، ولم يجد هؤلاءِ المؤرخون والكتاب تفسيراً لعظمة الحضارة المصرية المبهرة غير الأساطير القديمة التى نقلوها من الكتاب المقدس أو سمعوها من سكان مصر، وهى الأساطير التى تفسر نشأة الحضارات القديمة بعد طوفان نوح.

وهكذا؛ ضم تراثنا العربى الذى وصلنا من عصور التألق الفكرى فى رحاب الحضارة الإسلامية؛ الكثير من الموروث الشعبى بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف[٢] ساعد على ذلك؛ أن المؤرخين والرحالة – حتى كبارهم – ظلوا رواة أساطير فى نفس الوقت، وأكبر مثال لذلك؛الرحالة والمؤرخ أبو الحسن المسعودى فلا شك فى أنه كان مؤرخاً جليلاً ولكن كتبه حافلة بالأقاصيص والأساطير[٣]، والملاحظ أن تلك التفاصيل الأسطورية قد دخلت خاصة فى أخبار الأمم الغابرة أو الأمم البعيدة الأوطان[٤]، التى لا يتأتى للمؤرخ العربى التحقق من أخبارها، مثل كثير من الأمم فى العصور الماضية[٥]، وكذلك الأمر مع تاريخ مصر: "فكل ما يتعلق معرفته منذ بدء الخلق وأحوال القرون السالفة فإنه مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد، وعجز المعتنى به عن حفظه"

[٦]، على حد قول المؤرخ المقريزى، وهو ما دفع "أبو عثمان النابلسى أن يكتب كتاباً عن تاريخ الفيوم قال عنه: "نزهته عن أكاذيب الأقاويل الماضية وتحريف المؤرخين بوصف الأمم الخالية وأخبر عنه خبراً يشهد العقل بصحته وتميل النفس الفاضلة إلى موافقته"[٧]

كانت مصر بتاريخها القديم فى طليعة هذه الأمم التى لم تكن أسرار تاريخها قد تكشفت بعد.لذلك لعبت الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية دوراً لا بأس به فى محاولة كشف غوامض آثار مصر وعجائبها وأصولها ومدنها وحياتها وفضائلها، فضلاً عن قيام هؤلاء المؤرخين بسرد حكايات عديدة عن مصر، مصدرها الخيال الشعبى الذى كان متداولاً بين الناس، فالعديد منهم قد دخلوا إلى صميم التاريخ العربى لمصر من بوابات الأسطورة ووقف رهط كثير منهم أمام تاريخها، مشدوداً مشدوها، خاصة بعد أن فتحها العرب فى ظروف – بدت فى الكتابات التاريخية – كالأساطير[٨] عضد من أثر ذلك؛ غموض أرض مصر نفسها ورصيدها الأسطورى فى مخيلة الناس، وقد أجمل ابن الوردى هذا المعنى فى سياق وصفه لمصر بقوله:"هو إقليم العجائب ومعدن الغرائب وأهله كانوا أهل ملك عظيم وعز قديم»[٩]

كل هذا ربما يساعدنا على استخلاص وإبراز الصورة التى رسمتها لها تلك المادة، والتى تمثل الوجه الآخر المكمل لذلك الوجه الذى أبرزته الأبحاث التى اعتمدت على المادة التاريخية والأدبية التقليدية، الأمر الذى يساعد على تكوين صورة واضحة الأبعاد لمصر: الأرض، الإنسان، والحضارة، كما بدت فى طور من أطوار

www.alkottob.com

الكتابات التاريخية، وهو أمر على درجة من الأهمية؛ لأنه يمكن من التعرف على النظرة التى سادت فى ذلك الطور إلى مصر ما قبل الإسلام، وما خلفته من مظاهر الحضارة، وعلى الآلية التى جرى بها التعامل والتواصل مع ذلك الموروث الشعبى الثرى.

ولقد كان لهذه الأرض التى بدأت تسميتها فى أحداث أسطورية غائرة فى أعماق الزمن أهمية كبيرة فى عصور مختلفة مما يفسر هيمنة اسمها منذ القدم على جميع أقاليم ومدن وادى النيل حتى غدا اسمها اسماً للوادى. ويعد القرآن الكريم أقدم المصادر الإسلامية التى وردت فيها كلمة "مصر" اسماً علماً لهذه الأرض التى: "لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية – وزعم قوم من برقة فى البر – حتى ينتهى إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة فى حد أسوان – على حد أرض السبخة "فى قبلى أسوان – حتى ينتهى إلى بحر القلزم، ثم يمتد من بحر القلزم، ويجاوز القلزم إلى طور سينا ويعطف على تيه بنى إسرائيل ماراً إلى بحر الروم فى الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع إلى الساحل ماراً على بحر الروم إلى الإسكندرية ويتصل بالحد الذى قدم ذكره فى نواحى برقة"(١٠).

وعن ذكر مصر فى القرآن الكريم يقول ابن زولاق: "فأول ما ابتدئ من ذلك؛ أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ذكر مصر فى ثمانية وعشرين موضعاً فى القرآن(١١) ، ويعلق الإسحاقى المنوفى بقوله: "أما مصر حرسها الله تعالى فإن الله – عز وجل – ذكرها فى كتابه العزيز؛ فى ثمانية وعشرين موضعا منها ما هو صريح ومنها

ما دلت عليه القرائن وكتب التفسير(١٢).

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص والأساطير التى دارت حول أصل هذا الاسم، وكان الدافع وراء تلك الأساطير؛ هو أن العديد من الرحالة والمؤرخين كانت تستهويهم منهجية الحبكة الكاملة، كولع بالحكايات التى اشتهر بها العرب قديماً، والتى لاقت قبولاً واسعاً عند طلاب الأخبار من الناس، ثم إن حسهم التاريخى كان غامراً (حيث كانت الأساطير بالنسبة لهم آنذاك هى التاريخ)؛ خاصة فيما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، كما باتت الحاجة ملحة لمعرفة كل ما يتعلق بمصر فى سياق تفسيرهم للقرآن الكريم، فلم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد فى القرآن الكريم عن مصر وأهلها، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روى من أخبار مصر فى الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى، وفى الحكايات التى كان يتناقلها الفرس، المصريون والإغريق وغيرهم ممن دخل الإسلام أو صار فى ذمة دولته، وساعد على ذيوعها بينهم أن نفراً من أهل الكتاب هؤلاء دخلوا الإسلام حاملين معهم ما ورد فى كتبهم الدينية من أخبار عن مصر وملوكها والأنبياء والرسل الذين عاشوا على أرض مصر، ومن تبعهم أو لم يتبعهم من الأقوام وما قام بينهم وبين خصومهم من صراع(١٣).

وهناك من فصَّل أكثر، واتهم الرحالة والمؤرخين باللين والضعف بشكل قد أفسح المجال ومهد الطريق لدخول الأساطير والخرافات والمرويات إلى الحوامل الرئيسية التى يركن إليها أى باحث فى التاريخ، أضف لذلك تلك النزعة التقريرية التفصيلية والرغبة فى

www.alkottob.com

معرفة كل شيء خصوصاً فيما يتعلق بالمجهولات التى سكت عنها القرآن لعدم ضرورتها وترك معرفتها أى أثر على مدى فهم القصة واكتساب الدروس والعبر منها، وقد أدت تلك الرغبة العارمة المحفوفة بالمحاذير والمخاطر إلى أن يبيح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يستندوا إلى تلك المرويات دون نقد وفحص.

ولقد سبق لابن خلدون أن لمس عن قرب بفضل حسه النقدى، ضرورة هذا التمييز(١٤) بقوله: "... وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم وابتدعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها..."(١٥)

ورجوعا إلى مثل هذا النوع من الأساطير، التى دارت حول أصل "اسم مصر" نجد أن المصادر التاريخية وكتب الرحلات حفلت بالروايات التى حاولت أن تجد تفسيراً منطقياً له؛ فقد أورد ابن عبد الحكم نقلا عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "أول من سكن بمصر، بعد أن أغرق الله قوم نوح، بيصر ابن حام بن نوح، فسكن منف، وهى أول مدينة عمرت بعد الغرق هو وولده، وهم ثلاثون نفسا قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت ماقة – وماقة بلسان القبط ثلاثون – قال: وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف، وكان مصر أكبر ولده، وهو الذى ساق أباه وجميع أخوته إلى مصر فنزلوا بها، فبمصر بن

بيصر سميت مصرُ مصرَ، فحاز له ولولده ما بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولا ومن برقة إلى أيلة عرضا .."(١٦)

وبناء على هذه القصة تكون مصر قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى واحد من أحفاد نوح كان يعرف بـ "مصر" وإذا كان ابن عبد الحكم "قد اعتمد على الأساطير – باعتبار أن تلك الأساطير هى الحقيقة للتخلص من شرح المظاهر التى تتعلق بتاريخ مصر القديم، فيبدو أنه نجح فى إثارة حوافز المعاصرين له، إلى دراسة التاريخ المصرى القديم، والبحث عن أصل مصر(١٧)، وقد جمع لنا المقريزى تلك الروايات تحت عنوان "ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها"(١٨)، مشيراً فى ذلك إلى أنه: "قد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر.."(١٩)، كما أشار إلى أن اسمها كان فى الدهر الأول قبل الطوفان "جزلة"(٢٠)، ثم سميت بمصر، وقد أورد عدة قصص تنسب كل منها اسم مصر إلى جنس من الأجناس التى كانت على صلة بالمصريين طوال تاريخهم الطويل(٢١)، ونجد لها نظائر فى كتابات المؤرخين بداية من ابن عبد الحكم حتى ابن إياس.

فالرواية الأولى تقول إن اسم "مصر" نسبة إلى: "مصر بن حام وهو مصرايم(٢٢)، وقيل أن بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الإسكندر قال: ونلمح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير، وقبط أبا القبط قبط مصر، ومن هنا أن مصر بن حام وإنما هو بن هرمس ابن هردش بين بيطون بن روى بن ليطى بن يونان وبه سميت مصر فهى مقدونية(٢٣)، ونجد ابن خرداذبة

www.alkottob.com

يقول: "وكانت مصر دار الفراعنة واسمها مقدونية..[٢٤]

هذه الرواية تحاول نسبة المصريين ومصر إلى اليونانيين عن طريق اختلاق أسطورة يختلط فيها نسب أولاد حام بن نوح بنسب الإغريق عن طريق هرمس الذى جعلوه جد الإسكندر ، والواضح هنا اختلاط التيارات الثقافية والحضارية بين كل من مصر القديمة وبلاد الإغريق القديمة، وربما كانت هذه الرواية صدى لتلك الأسطورة التى نسجها الكهنة بعد فتح الإسكندر المقدونى لمصر، عندما ذهب إلى معبد الإله آمون فى واحة سيوة وأذاع الكهنة أنه ابن الإله آمون، ومن المهم أن نشير فى هذا المقام إلى أن هرمس هو المعادل الإغريقى للإله "تحوت" "توت" رب الحكمة عند قدماء المصريين، وتوت كان يعتبر فى الديانات المصرية القديمة ساحراً، ويقوم سحره على إلمامه بالأثر الذى تحدثه الأصوات على الأشياء، وعلى التحكيم فى إصدار تلك الأصوات بطريقة خاصة تجعلها نافذة فتتحكم فى من توجه إليه . وقد تمكن توت عن طرق النطق أو بالأحرى نطق الأقسام والتعاويذ أن يخلق العالم، وهكذا كان لصوت توت قدرة التشكيل والخلق فى وقت واحد، وهكذا يصبح نفث توت عنواناً له، ذلك النفث الذى يخلق كل شىء بموجب إصداره .

وفى عصر البطالسة أصبح توت يدعى هرمس، وقيل عنه :إنه أرشد المصريين إلى علوم الملاحمة، كما أرشدهم إلى طريقة عمل الروافع، ليتسنى لهم رفع الأثقال والأحجار، كما علمهم طريقة صناعة الأسلحة ومضخات المياه وآلات الحرب والفلسفة والخط[٢٥]. وقد ظهر لنا توت فى كثير من الرسوم الفرعونية وهو يسجل وفى

يده اللوح والقلم، وهذا الإله نفسه قد استمر فى التقويم القبطى، فسمى باسمه أحد الأشهر القبطية التى ترتبط جميعها بالدورة الزراعية فى مصر. وقد ربط الكتاب العرب بينه وبين النبى إدريس، وربما يكون ذلك ناتجاً عن صفات العلم والحكمة التى ارتبطت فى التراث الشعبى بهذا الإله المصرى القديم ونظيره الإغريقى، وعندما جاء الإسلام بالتوحيد حاول الكتاب والرواة أن ينسبوا هذه الصفات إلى النبى إدريس بأن جعلوه أحياناً هو هرمس[٢٦] .

وربما كان اختلاف تلك الأساطير والحكايات المتعلقة بنسبة مصر إلى اليونانيين؛ إفرازاً لرغبة المختلفين من الرواة فى إلقاء هذه الحكايات على مسامع الجاليات الإغريقية والرومانية التى كانت تجوب مصر أو تقيم بها، فقد كان الكثيرون يأتون لمصر طلباً للعلم والمعرفة، فضلا عن وجود إشارات وشواهد عديدة فى الأدب الإغريقى إلى زيارات قامت بها بعض الشخصيات الهامة فى الحضارة الإغريقية لمصر، وقد أسهبت تلك المصادر فى حديثها عن عجائب مصر[٢٧] ، مثل هيرودوت الذى كان يتساهل فى تصديق كل ما يروى له دون تمحيص يذكر، فاختلط فى كتابه عن مصر، التاريخى الحقيقى بالحكايات الشعبية، والخرافات والأساطير الدينية فى مزيج ممتع.[٢٨]

وقد يرجع ذيوع تلك الروايات التى تنسب مصر إلى اليونانيين فى كتابات المؤرخين؛ إلى تسربها من الجاليات الإغريقية نفسها، والتى استوطنت مصر منذ عهد مبكر، وتأسيسهم لمستوطنات إغريقية على أرض مصر، مثل "نقراطيس" التى قامت على ضفاف الفرع الغربى

www.alkottob.com

من النيل، وبالقرب من «سايس» (Sais صا الحجر" عاصمة الأسرة الصاوية[٢٩]، فضلا عن تأثر الأدب اليونانى نفسه بالمصريات فلقد ورد اسم "إچبتوس" (Egyptous) كملك لبلاد وادى النيل فى الأسطورة اليونانية "بنات دانوس" أوردها "هومر" فى الأوديسيا[٣٠] .

نجد أثر ذلك على كتابات المؤرخين المسلمين كقول المقريزى: "وقال ابن خالوية فى كتابه ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما: إلا فى اللسان العبرانى، قال مقدونية مغيث وإنما سميت مصر؛ لما سكنها بنصر بن حام، وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعاً وقف على الكنيسة العظمى التى بالقسطنطينية ويسمون بلاد مقدونية إلا وصفية وهى عندهم الإسكندرية وما يضاف إليها وهى مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، ويقال لمصر أم خنور وتفسيره "النعمة"[٣١]، أما السيوطى فيشير إلى ذلك المعنى بقوله: "ويسمى اليونان بلد مصر مقدونية"[٣٢]، ويضيف أولياجلبى أن " بعد الطوفان سموها مصرايم ومن هنا صار اسمها الآن مصر ويقال لها باللسان اليونانى (مقدونية). [٣٣]

أما الرواية الثانية، التى راجت فى كتابات الرحالة والمؤرخين: فتقول: إن بنى آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام فى نيف وسبعين راكباً، من بنى عرياب جبابرة كلهم، يطلبون موضعا من الأرض، يقنطون فيه فراراً من بنى أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل فأطالوا المشى عليه فلما رأوا

سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم، وبنى نقراوس مصر، وسماهم باسم أبيه مصرايم، وكان نقراوس جباراً له قوة، وكان مع ذلك عالما وله ائتمر الجن".[٣٤]

وتمضى القصة لتقول إنه بفضل العلوم التى عرفها قهر الجبابرة الذين كانوا قبله وبنى مدينة "أمسوس" وزرع أتباعه الأرض وبنوا المدائن ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم " ..... ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى إنما كان ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى يتوجه إلى النوبة، فهندسوه وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها وساقوا منه نهراً إلى مدينتهم أمسوس ...".[٣٥]

وتمضى الرواية لتقول إن مصر سميت بعد الطوفان بمصريم بنصر بن حام نوح (وقصة هذه التسمية نجدها شائعة أكثر من غيرها عند المؤرخين والرحالة المسلمين؛ فيذكر ابن محشرة: "يقال أن أول من نزل مصر بعد الطوفان؛ مصر بن بنصر بن حام بن نوح بدعوة سبقت له من جده نوح، وقيل وكان السبب فى نزول مصر أرض مصر وبه سميت، أن قليمون الكاهن صدق نوحاً عليه السلام وآمن بالله تعالى، وسأل نوحا أن يحمله بأهله وولده معه فى السفينة فحمله، قال فلما أنجلى الطوفان، قال فليمون لنوح – يا نبى الله اجعل لى رفعة وقدراً أُذكر به بعدى، فزوج نوح مصر بن بنصر بن حام من بنت فليمون فولدت له ولدا فسماه فليمون على اسم جده لأمه، فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: يا نبى الله إن بلدى خير البلاد، وأولى الناس به ابنى مصر، فابعثه معى إليه أظهر على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه، .. وأطلع فليمون صهره

www.alkottob.com

مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلمه خط البرابى، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر، وأطلعه على عمل الصنعة فى الجبل الشرقى فسمى به المقطم.."[٣٦]. الرواية ذاتها نجدها عند "المقريزى" مع بعض الاختلافات الطفيفة مثل: "كانت ابنة فليمون قد ولدت لبنصر ولدا سماه مصرايم"[٣٨] ويضيف بن وصيف شاه قوله :"وقيل إن سبب تسميتها مصر ؛ لأن مصرام بن مصريم بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام سميت باسمه، غير أنهم أسقطوا من ذلك الاسم الميم لكثرة استعماله وهو اسم أعجمى لا ينصرف . وقد ورد مصروفاً فى سورة البقرة "اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ"(الآية ٦١)، والله أعلم[٣٨]

وهذه الرواية تحاول إن تقول أن مصر والمصريين من أصل حامى مختلط بأصول مصرية قديمة، واللافت للنظر فى هذه الحكاية أنها تتحدث عن وجود مصرى مستقل قبل الطوفان ينحدر من نسل "مصرايم" (الأول)، ثم تأكدت التسمية مرة أخرى من خلال زواج ابنة الكاهن لابن حام الذى أنجب "مصرايم" (الثانى). كما نجد فى الرواية صدى لبعض الحقائق التاريخية وهى معرفة الكهنة بعلوم وأسرار مصر القديمة. إذ لم يكن كهنة مصر القديمة مجرد "إكليروس" دينى وإنما كانوا هم الفئة التى حفظت العلم وتناقلته كما كان دورهم غاية فى الأهمية فى العديد من جوانب الحياة فى مصر القديمة[٣٩]

ويبدو أن إرجاع اسم مصر إلى أحد أحفاد نوح يدعى

(مصرايم) هو الشائع بين الذين يأخذون الألفاظ على ظواهرها وراج بين العديد من المؤرخين مثل؛ ابن إياس الذى أشار إلى ذلك بقوله: "كان فى زمن مصرام الذى سميت مصر به .."[٤٠] أما ابن الزيات فيشير بقوله: "إن مصر سميت على أسماء أبناء نوح .. وأن سبب تسميتها مصر؛ أن أول من سكن أرضها مصر بن بنصر بن حام بن نوح وهو أبو القبط"[٤١]

وينسب المقريزى إلى (مصرايم) أنه "كان أول من صنع السفن فى النيل، ويقال أنه نكح امرأة من بنات الكهنة فولدت له أربعة أولاد هم: قبطيم وأشمون وأتريب وصا، فكثروا وعمروا الأرض وبنوا مدينة (منف) ثم كشف أصحاب فليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم"[٤٢]

وفى تلك الرواية، والتى نجد لها مثيلاً عند الرحالة (أولياجلبى)[٤٣] نلاحظ فيها تأثير فكرة الأنساب التى كانت لها أثر بالغ فى حياة الناس[٣٤] خاصة العرب ، حيث كان اهتمام العرب بالنسب بمثابة اهتمامهم بحياتهم لأنه يعد بمثابة الاسم من الجسد، وأن أول ما يتعرف عليه الإنسان هو انتسابه إلى أبويه، ومن ثم تكبر دائرة النسب مع العائلة والعشيرة [٤٤]، كما أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم فى مجال المعرفة التاريخية إذ أنهم احتفظوا بالأيام والأنساب وقصص عرب الجنوب، ولكنهم طوعوها فى خدمة الأغراض الثقافية الجديدة التى تلبى حاجاتهم الثقافية /الاجتماعية التى جدت بعد الإسلام[٤٥] وتأثير فكرة الأنساب العربية طالت مصر وغيرها من الأمصار فى نسبة كل

www.alkottob.com

شعب إلى جد أعلى أسطورى يفسرون به معنى الاسم، إذ تذكر الرواية – السابقة – أن "مصرايم" أنجب أربعة أبناء هم قبطيم وأشمون وأتريب صا، والمعروف أن "الأسماء الثلاثة الأخيرة أسماء لمدن مصرية"(٤٦)

أما الرواية الثالثة: "أن سبأ الأكبر أو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن وجمع بنى قحطان وبنى هود، ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها، حتى بلغ أرض أرمينية وملك أرض بنى يافث بن نوح وبنى قنطرة على البحر عبر منها إلى بلاد الشام وأرض الجزيرة .. ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، وجمع أهل مشورته، وقال لهم: إنى رأيت أن أبنى مصراً إلى حد بين هذين البحرين؛ يعنى بحر الروم وبحر القلزم(٤٧) فيكون فاصلا بين الشرق والغرب ... فبنى مدينة سماها مصر، وولى عليها ابنه بابليون ومضى إلى بنى حام بن نوح وهم نزول فى البراى إلى يمونية ... ثم مات عن خمسمائة سنة، وقام من بعده ابنه حمير بن سبأ فعتا بنو حام على بابليون، وأرادوا تخريب مصر فاستدعى أخاه حمير لينجده عليهم فقامت عليه مصر ومضى إلى بلاد المغرب .. فمات بابليون بن سبأ بمصر، وولى بعده ابنه امرئ القيس بن بابليون، ثم مات حمير بن سبأ ..."(٤٨)

ففى تلك الرواية، نلاحظ محاولة من جانب الرواة فى نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية، وهذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة فى نسبة كل قبيل أو شعب أو مدينة إلى جد أسطورى أعلى. ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم (بابليون) وهو(اسم الحصن الذى

كانت تقيم به الحامية البيزنطية التى حاصرها جيش عمرو بن العاص فى خضم أحداث فتح مصر) باعتباره اسماً لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر، الأسلوب ذاته نجده عند المؤرخين فى حديثهم عن مدينة الإسكندرية، حيث يقول ابن محشرة: "فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان وعمد رخام، منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: "أنا شداد بن عاد، سددت بساعدى الوادى وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوتاد، وبنيت إرم ذات العماد.."(٤٩)

ويضيف الرحالة الدمشقى: "وقبط مصر منهم من يزعم أنهم من ولد ربيعة ثم من تغلب، وذكروا أن قوماً من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلاء ..فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك"(٥٠)

روايات أخرى تأخذ وجهة لغوية فى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، فتجعل الاسم "مصر" مشتقا من مصدر عربى إذ يروى عن الجاحظ أنه قال فى كتاب "مدح مصر": "إنما سميت مصر بمصر، لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، كما سمى مصير الجوف مصيرا ومصراناً لمعبر الطعام إليه"(٥١)

وتضيف الرواية أن أهل "هجر" يقولون: اشتريت الدار بمصورها أى بحدودها"(٥٢)، "والمصر؛ الفرق بين الشيئين(٥٣)، ويعلق المسعودى بقوله "مصر واسمها كمعناها، وعلى اسمها سميت الأمصار(٥٤)، وأوضح المقريزى اشتقاق اللفظ فى اللغة فقال: "مصر أخصب بلاد الله، وسماها الله بمصر وهى هذه دون غيرها بإجماع القراء .. وهى عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن

www.alkottob.com

فسميت مصر؛ لكثرة ما فيها من الخير، مما ليس فى غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها، كالشاة التى ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها .. وقال البكرى: "أم خنور" بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة – اسم لمصر . وسميت مصر "أم خنور" لكثرة خيرها"(٥٥) ويعلق ابن إياس أن: "مصر كان اسمها فى قديم الزمان "درسان"؛ أى باب الجفاف(٥٦)

الملاحظ هنا أن الروايات السابقة تفسر اسم (مصر) وترجعه إلى أصل عربى، ولكن لم تستخدم الأنساب هنا، غير أنها اتكأت على الاشتقاق فى اللغة العربية؛ فتجعله مشتقاً من مصدر يعبر عن بعض أحوال هذا البلد فى فترات من تاريخه، فهى مصر من مصير الناس إليها وتجمعهم فيها، كما أن دلالة الاسم هنا توحى أيضا بما عرف عن مصر من كثرة الخيرات ووفرة النعمة بها، وقد نسبها العرب كالناقة الحلوب، يحلبونها حتى آخر قطرة فى ضرعها، وهو ما يستدعى فى المقام تلك الرءاية التى أوردها ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وتناقلها المؤرخون والرواية من بعده وفحواها: "أن عمراً جباها اثنى عشر ألف ألف، قال غير الليث: وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف، فعند ذلك كتب إليه عمر بما كتب به، قال الليث: وجباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان، أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول، فقال عمرو: أضررتم بولدها.."(٥٧)

ويبدو أن النزوع نحو نسبة مصر إلى العرب والإسلام هو الغالب فى كتابات الرحالة و المؤرخين ربما تحت تأثير الواقع الجديد الناتج

عن فتح مصر ودخولها فى الإسلام والذى معه حاول الخيال الشعبى النبش فى ماضى وتاريخ مصر لإثبات إيمانها بالتوحيد والإسلام منذ عهود موغلة فى الزمن من خلال مرجعية أسطورية تدعى موت "مصرايم بن بنصر ابن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الأصنام .. ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعى إلى الإيمان آخر الزمان .. (٥٨)، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام التى لا يصل إليها أحد من الأنام وكان يلين للملك الديَّان، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن ." ولإكمال الحبكة القصصية تضيف الروايات "ثم دهموا ذلك بالصخور وذلك بين جبلين متقابلين وجعلوا فيها علامات "(٥٩)، وبهذا تروّج تلك الرواية الأخيرة إلى أسبقية أهل مصر إلى التوحيد وبالتالى أحقيتهم فى الانتساب إلى العرب.

هكذا، إذن، نجد فى الروايات الثلاث ثلاثة اتجاهات فى نسبة اسم مصر وأهلها:-

أولها: اتجاه ينسبهم إلى نسل حام بن نوح ثانيها: اتجاه يونانى يعكس العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق ويحاول نسبة مصر والمصريين إلى أصول إغريقية، وثالث هذه الاتجاهات عربى يحاول نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية(٦٠) ، بيد أن الروايات التى تناولت أصل مصر والمصريين لم تخل بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التى كانت تعكس التفسير التوراتى لأصول شعوب المنطقة والتى كانت بدورها نابعة من التراث الثقافى والأسطورى لهذه المنطقة ذاتها(٦١).

فالمتداول بين المتخصصين فى علوم آثار وادى النيل أن أقدم اسم

www.alkottob.com

كان أهل مصر يسمون بلادهم به كان بتصويت (كيمى) Kemeأو (كيميت) Kemet أو (كمت) Kmt والذى يعنى الأرض السوداء، ويعتقد أن هذا المسمى يرجع فى معناه للتعبير عن خصوبة الأرض النيلية. وهناك من يصوتها (كام) Kam أو (خام) Kham لأغراض تخدم مصالح الطرح اليهودى(٦٢).

وينعكس هذا الطرح فى رواية أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم ونقلها عنه العديد من المؤرخين والرحالة؛ وتحكى هذه الرواية التى نقلها لنا ابن عبد الحكم نقلاً عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "كان لنوح أربعة من الولد: سام بن نوح، وحام بن نوح، ويافث بن نوح، ويحطون بن نوح .. فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر، فنادى ساماً فأجابه يسعى، وصاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد، فانطلق به معه حتى أتياه، فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد، وسأل الله عز وجل – أن يبارك فى سام أفضل البركة، وأن يجعل الملك والنبوة فى ولد أرفخشد، ثم نادى حاما فتلفت يميناً وشمالاً ولم يجبه، ولم يقم إليه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيداً لولد سام .. قال: وكان مصر بن بنصر بن حام نائماً إلى جنب جده حام، فلما سمع دعاء نوح على جده ووالده قام يسعى إلى نوح، فقال: يا جدى قد أجبتك إن لم يجبك أبى ولا أحد من ولده فاجعل لى دعوة من دعوتك، ففرح نوح عليه السلام، ووضع يده على رأسه وقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد، التى نهرها أفضل أنهار

الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها .. ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل عليهم أن يجعلهم شرار الخلق .."(٦٣)

ويعلق (شمس الدين الدمشقى) على تلك الرواية مضيفا إليها: "ذكر أهل الآثار أن السبب فى سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة فى السفينة فدعا عليه نوح أن يغير الله نطفه، فجاءت بالسودان، وقيل أنه أتاه فوجده نائما وكشفت الريح عورته، وذكر ذلك لأخويه سام و يافث فنهضا وستراه وهما مدبران وجوههما؛ حتى لا يريا سوءته، فلما علم نوح بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث .. أما القبط: فيقال: أنه من ولد قفط بن مصر بن بنصر بن حام ولد له أشمون، وقفط، وصا، وأتريب، فلم يعقب منهم غير قفط وولده صيفان، فمن سكن منهما صعيد مصر يسمى المريس ومن سكن أسفلهما يسمى البيما، .. ويقال: إن حاماً ولد له ثلاثة أولاد قفط وكنعان وكوش؛ فقفط أبو القبط"(٦٤)

ما يهمنا فى تلك الروايات؛ نزوعها العنصرى، والتى تجعل أبناء سام أفضل الخلق بالقدر الذى يعكس فكرة الاختيار اليهودية التى تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، بيد أن الصيغة المصرية لهذه الرواية الخيالية استثنت المصريين من الذل الذى كتبه الله على أبناء حام بسبب إجابة مصر بن بنصر بن حام لدعوة جده نوح، هذا الجزء الخاص بأرض مصر ونيلها وخيراتها يعكس تأثير الرواة المحليين الذين استثنوا مصر والمصريين من الذل الذى كتب على أبناء حام وفقاً للقصة العبرانية.

www.alkottob.com

هذه هى الخطوط العريضة للأساطير والحكايات الشعبية التى جمعها ودونها لنا الرحالة و المؤرخون عن أصل تسمية مصر والمصريين، وبغض النظر عن الجوانب التاريخية لهذا الموضوع فإن ما يهمنا هنا هو الدلالة التى تحملها هذه الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيدا لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافى السائد بتأثيراته المختلفة، أو العرب بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها فى ظل الإسلام والعروبة، ومن الواضح هنا أن كلاً من هذه الاتجاهات الثلاثة فى "الموروث الشعبى" كان يرضى حاجة ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها فى المجتمع المصرى آنذاك، فقد كانت مصر تضم العرب والمتعربين كما بقى بها الأقباط النصارى الذين يتفاخرون كثيراً بأصولهم المصرية القديمة فضلا عن البعض من ذوى الأصول اليونانية، وعلى الرغم من أن هؤلاء وأولئك ذابوا فى شعب واحد له خصائصه الثقافية الواحدة، فإن هذه الروافد الثقافية كانت فعّالة للغاية فى القرون الأولى بعد الفتح الإسلامى لمصر، وهو ما تعكسه الروايات التى نقلها المؤرخون اعتماداً على الموروث الشفوى والمكتوب الذى كان سائدا فى أوساط المصريين آنذاك(٦٥).

وقد لقيت حدود مصر الجغرافية العناية من جانب المؤرخين عامة والرحالة بصفة خاصة؛ إذ أن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكراتهم هو إطلاع مواطنيهم على طرق ومسالك الممالك والأمصار.. إلا أن تلك الحدود الجغرافية لمصر لم تسلم من الشطط

والروايات الأسطورية خاصة تلك الحدود والمناطق المرتبطة بسير الأنبياء والرسل التى ورد ذكرها فى الكتب السماوية، فبعد أن يحدد المقريزى – على سبيل المثال – موقع مصر وفقا للمفاهيم الجغرافية السائدة آنذاك تحت عنوان "ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة، ثم "ذكر حدود مصر وجهاتها(٦٦) تجعله يذكر بعض الأساطير حول البحر الأحمر والبحر المتوسط وعن البحر الأحمر الذى يسميه "بحر القلزم" يقول مؤرخنا: "وفى جانب هذا البحر الغربى الذى يخرج منه البحر الرومى [المتوسط] الآتى ذكره إن شاء الله، الجزائر الخالدات وهى فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون .. وفيما بين مدينة القلزم ومدينة أيله، مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح، وقوة ممرها من بين شعبتى جبلين .. يقال أن فرعون غرق فيها، فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، ويقال أن الغُرُنْدُل: اسم صنم، كان فى القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضباً للملك أو فاراً منه، وأن موسى عليه السلام لما خرج ببنى إسرائيل من مصر وسار بهم شرقا، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون، ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير...(٦٧)

وعلى الرغم من الأصل الدينى لقصة خروج موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من مصر، وما أحاط بتلك الحادثة بعدد من المعجزات الربانية وقوة ظهور الفعل الإلهى فى نجاة موسى وقومه، وهلاك فرعون موسى وبروز التدبير الربّانى، والذى نجد صداه فى الكتب

www.alkottob.com

السماوية (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٤٠: القصص) وهكذا، فى اختصار حاسم أخذ شديد ونبذ فى اليم، نبذ كما تقذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر بفعل الله[٦٨] وتجسد فى قول موسى :"لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون"."خروج ١٤:١٣، ١٤" فإن الخيال الشعبى كانت له رؤيته فى قصة غرق موسى وأسباب هذا الحدث، فربط بين ظاهرة طبيعية، وهى صعوبة الملاحة فى هذا الجزء من البحر الأحمر وبين خروج بنى إسرائيل من مصر. واللافتللنظر هنا أن سبب هذه الظاهرة الطبيعية واضح ومعروف كما أشار إليه المقريزى وهو"شدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتى جبلين، ومع ذلك ترك الخيال بصمته على قصة هذه المنطقة التى ارتبطت بقصة دينية إعجازية[٦٩] ، وألمح الخيال الشعبى إلى أن التفسير المقبول لديه أن فرعون قد :" غرق ببركة تعرف بـ"الغرندل" يقال أن فرعون غرق فيها، فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة [٧٠].

ويبدو أنه قد استمر شغف الناس حول معرفة وتحديد المكان الذى غرق فيه فرعون موسى وذلك فى سياق وصف الرحالة " چوزيف بتس" (سنة١٦٨٠ م) لخط سير رحلته بقوله:" وبعد أن أبحرنا قليلا من الطور أردنا الموضع الذى عبر منه بنو إسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون، ويعنى المكان الذى غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بنى إسرائيل، ويقولون إنه مكان خطر

جداً، حتى إذا لم تهب عواصف هوجاء وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن"[٧١].

وقد حاكت المخلية الشعبية حول بحر القلزم وارتباطه بغرق(فرعون موسى) العديد من الأساطير والحكايات الخرافية والتى نلمس أثراً لها عند الرحالة القزوينى فى قوله: " وهو البحر الذى أغرق الله تعالى فيه فرعون لعنه الله وجنوده" وقالوا: كان بين البحر وأرض اليمن جبل يحول الماء عنها وامتداده فى أرض اليمن، وكان بين البحر واليمن مسافة، فقدّ بعض الملوك ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجا يهلك بعض أعدائه، فقطع من الجبل حاولى سهم وأطلق البحر فى أرض اليمن فطفا الماء، وأهلك أمماً كثيرة، واستولى على بلاد كثيرة، وصار بحراً عظيماً وصل إلى بلاد اليمن وجدة وجاوى وينبع ومدينة شعيب وآيلة والقلزم[٧٢].

أما البحر الرومى (البحر المتوسط) والذى يمثل حدود مصر الشمالية، فقد دارت حوله العديد من الأساطير والخرافات، والتى شقت طريقها إلى كتابات المؤرخين والرحالة. وقد ناقش الدمشقى المعروف (بشيخ الربوة) الآراء التى راجت فى عصره حول ذلك البحر – الذى يمثل الحد الشمالى لمصر– فيقول " زعم المؤرخون أن الإسكندر حفر الزقاق وأجراه من المحيط عصبا على أهل البلاد والأقاليم التى أغرقها به[٧٣]، وأضاف أنه قد " زعم قوم منهم أنه حفره ليكون فارزاً بين أهل الأندلس والبربر وأهل برّ العدوة الأشبان (الأسبان) يمنعهم من الغارات التى يغارونها بعضاً على بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه...[٧٤] ، كما أورد رواية تذهب إلى أنه قد " زعم آخرون أنه لم يحفره. ولكنه أراد أن يعمر عليه جسرا على قناطر ففعل. ذلك

www.alkottob.com

ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر، وأنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عمد سكون الريح وهدوء الموج، ونقص مده وجزره[٧٥]. ويبدو أن شيخ الربوة يرجح صحة الرواية الأخيرة، فوصف ذلك الجسر المزعوم الذى بناه الإسكندر، وقدم شرحا تفصيليا لكيفية بناء هذا الجسر، مدعما قوله بخرائط ورسومات من وحى خياله ضّمنها كتابه المعروف بـ (نخبة الدهر).

وقد رفض المقريزى تلك الرواية التى تقول بحفر الإسكندر للبحر الرومى كى يفصل بين البربر والأسبان، وقال " هذا الخبر أظنه غير صحيح، فإن أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل فى الدهر الأول قبل الإسكندر بزمان طويل.."[٧٦]

أما ابن الوردى فقد خالف كلاً من المقريزى والدمشقى حول ماهية هذا البحر فقال: "ذُكر فى كتاب أخبار مصر؛ أنه بعد هلاك الفراعنة كانت ملوك بنى دلوكة فى شق البحر المحيط الغرب، وهو البحر المظلم، فتغلب الماء على بلاد كثيرة وممالك عظيمة وجرى بها، وامتد إلى الشام وبلاد الروم وصار حاجزاً بين بلاد مصر وبلاد الروم على أحد ساحلية المسلمون وعلى الآخر النصارى...[٧٧]

وهنا يتضح غياب المعلومات التى تتناول نشأة البحار، والتى كانت سبباً فى ذيوع مثل تلك الروايات الخرافية، لدرجة أن مؤرخنا المقريزى لم يجد ما يعارض هذه الروايات سوى بقوله: "فإما أن يكون ذلك قد كان فى أول الدهر مما عمله بعض الأوائل وإما أن يكون خبراً واهياً[٧٨].

ويحكى المقريزى قصة خرافية أخرى مؤداها؛ أن بعض أصحاب

السّير من الفلاسفة ذكروا: " ... أن ما بين الإسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضاً تنبتُ فيها الجميز، وكانت مسكونة وخمة وكان أهلها من اليونانية وأن الإسكندر خرق إليها البر فغلب على تلك الأرض، وكان بها فيما يزعمون الطائر الذى يقال له وقنس وهو طائر حسن الصوت، وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح..[٧٩] ، وتستمر الحكاية لتقول إن واحداً من الفلاسفة المهتمين بالموسيقى أراد أن يتوصل لسماع صوته بالحيلة، كما تحكى عن أن ماء البحر كان سببا فى هلاك هذا الطائر الأسطورى.

وربما كانت شهرة الإسكندر الكبيرة وفتوحاته العريضة وراء ذلك العدد الكبير من الأساطير والحكايات الخرافية التى ذاعت حوله فى عالم البحر المتوسط، ومصر من بلدانه بطبيعة الحال[٨٠] ، حتى أن الإسحاقى قد نسبه إلى مصر وأهلها فقال: "مصر دار العلماء والحكماء، فمنهم الإسكندر ذو القرنين صاحب السد الذى ذكره الله تعالى فى كتابه ...[٨١] ، وكذلك فعل ابن الكندى فى قوله :" ومنهم: الإسكندر ذو القرنين، من أهل قرية نحو الإسكندرية يقال لها لوبية، ملك الأرض بأسرها، وذكره الله فى كتابه العزيز باسمه[٨٢].

www.alkottob.com

الهوامش

١ – لم يحظَ الأدب الشعبى العربى بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمى، وظلَّ، بعد معرفته الطويلة، مهمشاً ومنبوذاً، وبعيداً عن التناول والدرس، والبحث والتقصى لأسباب عديدة، فى طالعها: عدم اهتمام أولى الأمر، الولاة والأمراء، والملوك، وأصحاب الأدب به؛ لأنهم جميعاً عدّوه أدباً للعامة، يحتفى بالصعاليك، والشذّاذ، والجوارى والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التى لا تؤهلها خرافاتُها أن تدوّن وتسجل فى القراطيس، ومن ثم لأن منشئى الأدب الشعبى كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفى الأدب العربى وناسخيه عدّوا الأدب الشعبى بلا قيمة أحياناً لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحياناً لأنه يدور فى عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة، .. إلخ. وإضافة إلى ما سلف اقتنع مصنفو الأدب العربى أن الكثير من الأدب الشعبى أدبٌ وظيفى– شفهى، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية هى الجدات اللواتى ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر فى الليالى، وهدهدة الأطفال وتخويفهم حصراً من الليل والعتمة.

٢ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور،سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ١٣، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٤٥.

٣ –حسين مؤنس: الحضارة دراسة فى أصول وعوامل قيامها، وتطورها (ط. الثانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٣٧، الكويت ١٩٩٨م)، صـ ٦٩ .

٤ – أربعة عوامل أساسية كانت وراء تغلغل الفكر الأسطورى فى الوعى العربى– بحسب رأى محمد خليفة حسن– وهى ؛ الانفتاح العربى على

الفكر الأسطورى القديم بعد الفتوحات الإسلامية والتعرف على فكر معظم الشعوب القديمة التى تم دخولها الإسلام، حيث احتوى الفكر القديم لهذه الشعوب قبل إسلامها على معظم التراث الأسطورى فى العالم القديم، الاعتماد على الإسرائيليات فى التفسير نشأة الفرق والمذاهب وابتداع الأساطير لتثبت به اعتقاداتها أو فيما ادعاه مؤسسوها من قوى خارقة للعادة كالمعجزات والكرامات والشطحات، أو من ادعاء للنبوة والألوهية أضف لذلك تطور الآداب الشعبية وانتشار الأساطير البطولية كتأكيد على صفتها القومية .للمزيد انظر: محمد خليفة حسن :رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته (ط .أولى،دار غريب، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٧٠–٨٠ .

٥ – حسين مؤنس:المرجع السابق، صـ ٧١ .

٦ –المقريزى (تقى الدين أحمد بن على عبد القادر)، (ت ٨٤٥ هـ): الخطط المقريزية، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الجزء الأول، مطبعة النيل، القاهرة ١٣٢٥هـ)، صـ ٢٥٠ .

٧ –النابلسى (أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى)، (ت ٦٦٠ هـ): تاريخ الفيوم وبلاده، (الطبعة الأولى، المطبعة الأهلية، القاهرة ١٨٩٨م)، صـ ٣ .

٨ –محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى(مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، صـ ١١ .

٩ –ابن الوردى(سراج الدين أبى حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب (الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، القاهرة، د.ت)، صـ ٣٢ .

١٠ –المقريزى: الخطط، ج١، صـ ١٥ .

١١ –ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثى) (٣٠٦ – ٣٨٧ هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها(تحقيق: على محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، صـ ٣؛ انظر:القرآن الكريم؛ يونس ١٠/٧٨، يوسف ١٢/٢١، يوسف ١٢/٩٩، الزخرف ٤٣/٥١، البقرة ٢/٦١ .

١٢ –الإسحاقى المنوفى (محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح): أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، (سلسلة الذخائر، العدد ٣٥، القاهرة ١٩٩٨م)، صـ ٣ .

www.alkottob.com

١٣ – حسين مؤنس: الحضارة، صـ ٧٠ .
١٤– برغم هذا النقد العلمى عند ابن خلدون فإنه وقع فى ذلك أيضاً فى كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"!!.
١٥ – ابن خلدون: المقدمة، جـ١، صـ ٢٨٢ .
١٦ –ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب(تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م)، صـ ٢٨–ص ٢٩ .
١٧ –إبراهيم أحمد العدوى، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م)، صـ ٦٩ .
١٨ –المقريزى: الخطط، ج١، صـ ١٨ ص ٢٣ .
١٩ –نفسه، صـ ١٨ .
٢٠ – نفسه، ص ١٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور(الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١١هـ)، صـ ٣؛ المسعودى: أخبار الزمان (الطبعة الأولى، ، الرياض ١٤١٥ هـ)، ص ٤١–٤٢ .
٢١ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥١ .
٢٢ – الملاحظ أنه لم تتفق المصادر على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الأخر فى شكل التسمية والنسب والنطق.
٢٣ –المقريزى: الخطط، ج١، صـ ١٨ .
٢٤ –ابن خرداذبة (أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله)(ت ٣٠٠هـ):المسالك والممالك(طبعة بريل ١٨٨٩م)، صـ ٨٠؛ المقريزى: المصدر السابق،ج١، صـ ١٨ .
٢٥ – سعد الخادم :الفن الشعبى والمعتقدات السحرية (سلسلة الألف كتاب، العدد ٤٨٨بم القاهرة)،ص٩٠ .
٢٦ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥١ .
٢٧ –أبو اليسر فرح: النيل فى المصادر الإغريقية (دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٤م)، صـ ٢٧ .
٢٨ –بريان م. فاجان: نهب آثار وادى النيل ودور لصوص المقابر(ترجمة: أحمد

زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣م)، صـ ٢٤ .
٢٩ –Pertie، W.، M.، Flinders، 1888، Naukraties;the Memory of the Egypt exploration fund، part II، P. 4. ؛
؛ سيد أحمد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم(الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٧م)، صـ١٥٩، صـ ١٦٥
٣٠ – مجموعة باحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء) سلسلة السراة، البحرين ٢٠٠٥م)، ص٢٤ .
٣١ – المقريزى: الخطط,ج١بم ص٢٢ .٣٢ – السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن السيوطى): حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (الجزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٩٧م)، صـ٢٥ .
٣٣ –أولياچلبى: سياحتنامه مصر، ص ٢٩ .
٣٤ –المقريزى: الخطط، جـ١، صـ ١٨–١٩ .
٣٥ – المقريزى: الخطط، جـ١، صـ ١٩؛ أوليا چلبى: سياحتنامه مصر، صـ ٣٣ .
٣٦ –ابن محشرة: (كاتب مراكشى مجهول)، (ت ٥٩٨ هـ): كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار(تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٥٨م)، صـ صـ ٦٥ – ٦٦ .
٣٧ –المقريزى: الخطط، جـ ١، ص ١٩ .
٣٨ – بن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الأمور وعجايب الدهور فى أخبار الديار المصرية المعروف بفضائل مصر وأخبارها (تحقيق محمد زينهم، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٤م),ص٩ .
٣٩ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥٣ .
٤٠ –ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج١ صـ ٤ .
٤١ –ابن الزيات (شمس الدين محمد) :الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة، فى القرافتين الكبرى والصغرى(المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة، ١٩٠٧م)، صـ ٧ .
٤٢ –المقريزى: المصدر السابق، ج١بم ص ١٩ .٤٣ –أوليا چلبى: سياحتنامه مصر، صـ ٣٤: ص ٣٥ .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

٤٤ ـ ليس غريباً أن يهتم العرب ـ وهم مجتمع قبائلى ـ هذا الاهتمام بالأنساب، وليس غريباً أيضاً أن تكثر هذه الأنساب وتختلط فى كتبهم اختلاطاً كبيراً ولكن الغريب حقاً أن نقبل هذا الذى قالوه فى أصلهم وتفرعهم على أنه حقيقة واقعة. وكذلك الأمر مع انتساب مصر وأهل مصر إلى جد أسطورى أعلى، فنحن لا نستطيع أن نقبل ذلك، بل لعلنا نتوقف فى هذه الأنساب على ما رأيت عندهم من اختلاط فيها . ولكن المنهج العلمى – مع ذلك – يتطلب التقييم والتصنيف، وعلينا إذن أن نقبل تقسيمهم أو نخلق لنا تقسيماً جديداً، ولكننا لا نستطيع أن نقترح الآن هذا التقسيم الجديد لأن التاريخ القديم لهذه المنطقة غامض مختلط. للمزيد انظر: عبده الراجحى: اللهجات العربية فى القراءات القرآنية (الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض ١٩٩٩م)، ص٢٦ .

٤٥ –قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، صـ ٩٠ .

٤٦ – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٣ .

٤٧ –البحر المتوسط والبحر الأحمر.

٤٨ –المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٠ .

٤٩ –ابن محشرة: كتاب الاستبصار، ص ٩٥ .

٥٠ – الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر(طبعة بطرسبورغ، المحروسة)، ١٨٦٥، ص ٢٦٦ .

٥١ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، (تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م)، صـ ٧ ؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٤ .

٥٢ – ابن ظهيرة، صـ ٧؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٤ .

٥٣ –المقريزى :الخطط، ج١، صـ ٢٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٥ .

٥٤ –المسعودى (أبى الحسن على بن الحسين)(ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر(الجزء الأول، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، الرياض الحديثة، الرياض ١٩٧٣م)، صـ ٣٤٢ .

٥٥ –الخطط، مصدر سابق، ص: ص ٢٢–٢٣ .

٥٦ –ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ص ٣ .

٥٧ –فتوح مصر والمغرب، صـ ١٨٨

٥٨ –الخطط، ج١، صـ ١٩

٥٩ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، صـ ٦٦

٦٠ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥٤

٦١ –فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دراسة فى الأسطورة(ط العاشرة، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٣م)، ص٢١–٢٣ .

٦٢ – مجموعة من الباحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء (سلسلة السراة، البحرين، ٢٠٠٥م)، صـ ٨٨ لاحظ التقريب الصوتى بين كلمة (خام) و (حام).

٦٣ –فتوح مصر والمغرب، ص ٢٧؛ الخطط، ج١، صـ ٢٠–٢١؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٤ .

٦٤ –الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، صـ ٢٦٦ .

٦٥ – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥٥ .

٦٦ – الخطط، ج١، صـ ٢١–٢٤ .

٦٧ –المقريزى :الخطط، ج١، صـ ٢٥–٢٦؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١١ .

٦٨ –جمال عبد الهادى، وفاء رفعت: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور، (دار الشروق، جدة، د.ت)، ص٢٠٥–٢٠٦ .

٦٩ – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٠ .

٧٠ –الخطط، ج١، صـ ١٧؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١١ .

٧١ –وزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة (ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد ١٨٩، القاهرة ١٩٩٥م)، صـ ٤٢ .

٧٢ –القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) (ت ٦٨٢ هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(الطبعة الخامسة، مطبعة مصطفى البابى، القاهرة، ١٩٨٠م)، صـ ٨٩ .

www.alkottob.com

٧٣ –الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، صـ ١٣٦ .
٧٤ –نفسه، صـ ١٣٦ .
٧٥ –نفسه، صـ ١٣٧ .
٧٦ –المقريزى: الخطط، ج١، صـ ١٧ .
٧٧ –ابن الوردى: فريدة العجائب، صـ ١٢٧ .
٧٨ –الخطط، ج١، ص ١٧ .
٧٩ –نفسه، ج١، ص ١٨ .
٨٠ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٠ .
٨١ – الإسحاقى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص ٦.
٨٢ – ابن الكندى (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر المحروسة، تحقيق: على محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص١٦ .

الفصل الثانى

آثار الحضارة المصرية القديمة

www.alkottob.com

كتب السحر والأحلام مصدراً للتاريخ

"....إقليم مصر هو الإقليم الذى افتخر به فرعون على الورى، وقام على يد يوسف بأهل الدنيا. فيه آثار الأنبياء، والتيه وطور سيناء، ومشاهد يوسف، وعجائب موسى، وإليه هاجرت مريم بعيسى، وقد كرر الله فى القرآن ذكره، وأظهر للخلق فضله . أحد جناحى الدنيا، ومفاخره لا تحصى. مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج، وبره يعم الشرق والغرب . قد وضعه الله بين البحرين، وأعلى ذكره فى الخافقين . حسبك أن الشام على جلالتها رستاقه، والحجاز مع أهلها عياله، وقيل أنه هو الربوة، ونهره يجرى عسلاً فى الجنة، قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ونسخ بغداد إلى يوم الدين، وصار مصره أكبر مفاخر المسلمين ...."

المقدسى

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم١٩٣/

www.alkottob.com

كان لحادثة الطوفان التى تصور الأقدمون وقوعها فى عصور بعيدة دور هام فى الفكر التاريخى، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلا بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لا سيما مع وجود محاكى لها فى بيئاتهم)،، وبقيت حيَّة فى الأذهان وفى ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف فى التفاصيل يزداد شيئاً فشيئاً كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسَّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستةفجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنسانى سوف ينتهى بعودة المسيح وقيام القيامة فى اليوم السابع وجاء التقسيم على النحو التالى: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى أبراهام، من أبراهام إلى داود، من داود إلى الأسر البابلى، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر.

وجاء ذلك التقسيم فى محاولة منه لتطويع الفكر التاريخى فى إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية، جعل من حادثة الطوفان محوراً هاماً فى تقسيمه للتاريخ العالمى للبشرية[1]، كما كان للطوفان بصمته على قراءة المؤرخين لتاريخ مصر من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخى العالم الوسيط فى تفسير أسباب بناء أهرام ومعابد وآثار مصر القديمة لم يكن فى وسعهم سوى أن يتخذوا من (طوفان نوح) تكئة يستندون إليها فى شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض، والأساطير الذى يشهد بتفوق مصر – لسوء

الحظ – فى القدرة على إخفاء أسرارها العلمية إلى الحد الذى جعل بوسع كل من أراد أن ينكر حضارتها وينسب الفضل إليه، أن يفعل ذلك وهو بمأمن من المناقضة.

جدير بالذكر أن العديد من الناس ينظرون للطوفان كحدث عالمى؛ لكثرة انتشاره، وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية التى حدثت كما فى أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كما فى أساطير الإغريق والهنود، فمثلا نقرأ قصة الطوفان فى الملحمة الشعرية الهندية (مها بهراتا) بطلها يسمى (ريشى مانوا) (رئيس وبانى) أى النبى، ويعتقد الاستراليون أن جزية سيلان أصبحت أصغر مما كانت عليه فى الماضى لأن جزءا كبيرا من الجزيرة ابتلعه الطوفان، وتقول أسطورة بورمية أن الحدأة فتحت ثغراً فى جمجمة السرطان فغضب وانتفخت البحار والأنهار حتى السماء فوقع الطوفان، ولم تخل الأساطير الإغريقية لأكثر من طوفان، أساطير الطوفان منتشرة فى جميع أنحاء العالم عند الشعوب المتحضرة والبدائية، وقد كشفت الحفريات التى تمت فى منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوِّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليقة وفى سياقها ترد حادثة الطوفان، فهناك الملحمة السومرية والملحمة الأكادية (البابلية) وفى تراث الهند الثقافى ملحمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه إلى حدٍّ ما ملاحم بلاد الرافدين والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط. وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية

www.alkottob.com

الطوفان فى الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح، ولكن أكد على حقيقة الطوفان(٢).

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة فى نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات فى بقية الأساطير اللاحقة، قرار إلهى بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، وعدد محدود من الحيوانات، انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان(٣)، وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، فضلا عن عامة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان فى مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفردت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر، فاستغلت حادثة (طوفان نوح) والإضافة التى تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم؛ فاتهموا نوحاً بالسكر والتعرى، ولعن كنعان ومباركة سام(٤)، ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكراً عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالى عرقى عنصرى بغيض.

واكتنف حادث الطوفان الغموض والخرافة فى آراء من قالوا بعالميته من الرحالة والمؤرخين وغيرهم؛ رغم عدم تصريح النصوص بذلك. فلم يكن الطوفان عالمياً، ولم يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط؛ لم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم(٥)، إلا أنه يمكن القول: أن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفاناً عارماً، وما جاء فى الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق. ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالمياً، وتأسس على ذلك أكذوبة تسمى "السامية(٦)، وتاه الناس فى وهم ولا زالوا، كانت بدايته هوى ومطمعا فأصبح اليوم حقيقة وواقعاً، لأجل حفنة من اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقاً غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتى الذى هيمن على تناولهم لتفاصيل الحادثة التى دخل منها المؤرخون إلى تاريخ مصر وحضارتها القديمة.

يقول المقريزى: "الفرس وسائر الكلدانيون، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس .. ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق"(٧).

ويضيف فى "ضوء السارى": "وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك،

www.alkottob.com

ويقول بعضهم أن الطوفان لم يحدث سوى فى إقليم بابل، وما [وراه] من البلاد الغربية فقط. فإن ولد [كيومرت] الذى هو عندهم آدم كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان ولذلك أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان"(٨)، ويؤكد ابن خلدون فى تاريخه: "واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط"(٩) وأشار لذلك المسعودى بقوله: "وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان،يذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند..(١٠)، وقال البيرونى: " لم يعم العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة وأنه لم يجاوز عقبة حلون ولم يبلغ ممالك المشرق(١١).

وباتفاق فى المعنى واختلاف فى الألفاظ تجمع الروايات السابقة التى تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محلياً، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين(١٢) ، بينما شذت مدونات التوراة بإضافة جيءَ بها فى نهاية الحادثة، فنسبوا إلى النبى نوح (عليه السلام) السكر والتعرى ولعن كنعان ظلماً ليحققوا أغراضاً خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثم استغلت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييز العنصرى والتأسيس للنظرية السامية وسطروا أساطيرهم بهتاناً وكذباً منذ أول يوم زورت فيه التوراة.

ورغم لا معقولية عالمية الطوفان، فإن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى مصر ساد فى أوساط الناس؛ والذى أوهم السواد الأعظم منهم بهذا، هو ما ذهب إليه مفسروا التوراة، حيث لم تخل تلك الروايات بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التى كانت تعكس التفسير

التوراتى لأصول شعوب المنطقة، والتى كانت بدورها نابعة من التراث الثقافى والأسطورى لهذه المنطقة ذاتها،وانعكس ذلك التأثير فى روايات الرحالة والمؤرخين فى سياق حديثهم عن آثار الحضارة المصرية القديمة، بل اتخذوا من حادثة الطوفان باباً يعرجون منه إلى فضائل مصر وعجائبها و تاريخها الموغل فى القدم.

يحكى البكرى فى (الروضة المأنوسة) أن " نوحاً (لما طاف الأرض بالسفينة فصار كلما مر على بلدة خرج إليه الملائكة الذين يتولون حراستها، فيسلمون على نوح (فلما مر على مصر لم يخرج إليه أحد،فتعجب من ذلك، فنزل عليه الوحى من الله تعالى، بألا تعجب فإن كل بلدة قيدت لها ملائكة لحراستها إلا مصر، فإنى توليت حراستها بنفسى.." (١٣)

ما يهمنا فى هذه الرواية، هو استمرار (الموروث الشعبى) فى استثناء مصر وتميزها عن غيرها مثلما سبق وتم استثناء مصر وأهلها من الذل الذى كتب على أبناء حام، وفقا للقصة العبرانية وكما تعكس إحساس أبناء مصر بمكانه بلدهم وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير .

روايات عديدة جمعها لنا المؤرخون تشير إلى أن المصريين كانوا أول من تنبأوا بالطوفان وأول من وضعوا الأساطير والقصائد الموزونة مثلما يقول المقريزى: " هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى(١٤)، أول من نظر فى علم الطب وألف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية، وقالوا أنه أول من انذر بالطوفان،ورأى أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء والنار"(١٥).

www.alkottob.com

وأضاف المسعودى:" كان عند أهل مصر علم الطوفان، ولم يقدروا كثرته ولا طول مقامه على وجه الأرض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج وحبسوا الريح فيها بتدبيرهم، واتخذ الملك فليمون رأس الكهنة مع نفسه عدة له ولأهل بيته..(١٦)

مما تعكسه الرواية السابقة أن الكهنة فى مصر كانوا هم الفئة التى حفظت العلم وتناقلته، وكان لهم دور هام فى العديد من جوانب الحياة فى مصر القديمة وهكذا، تأثرت قراءة ورؤية المؤرخين لآثار مصر وحضارتها بحادثة الطوفان الذى شاع خبره بين الناس جيلا بعد جيل، لدرجة أنه انطبع على القراءة الشعبية للتاريخ وترك بصمته واضحة على وجدان الشعب المصرى من خلال أمثاله العامية ليدل على حياة التمزق الأسرى فيقول المثل السَّيار:" إن جه عليك البحر طوفان،حط ابنك تحت رجليك" ، وربما لأن الطوفان كان حادثة شاذة فى التاريخ، فإن المثل أيضايعبر عن الأنانية،ولكنها شذوذ يؤكد القاعدة التى تشير إلى شدة ترابط الأسرة المصرية واتحادها فى وجه التقلبات وعقبات الزمن، وهذه الرؤية الشعبية نجد ما يعضدها من إشارات عند (ابن الزيات) فى (الكواكب السيارة) عندما قال:" مَنْ ملك مصر بعد الطوفان، والمرأة التى أخذت ولدها على كتفها، وأغرقها الله تبارك وتعالى مع قوم نوح.. وكان لها ولد وأخ كانا فى السفينة لم ينج من قوم نوح غيرهما، وذكر النسابة أنها من ولد رجل من مصر،لم ينج من الطوفان غيره..(١٧)

وهكذا أَثْرَتْ المعطيات الدينية الحكايات الشعبية والمدونات التاريخية بالرؤى والأفكار التى حملت جزءاً من المعاناة الإنسانية،

التى تلونت بالسمة الدينية، ولا سيما فيما يرتبط بمواقف الناس من قصص الأنبياء، وأخبار عاد وثمود وطوفان نوح، وقد أسدى المقريزى النصح إلى كل من ينظر فى تلك الأخبار بتوخى الحذر لأن: "كل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مختلط بتزويرات وأساطير؛ لبعد العهد،وعجز المعتنى به عن حفظه وقد قال الله سبحانه وتعالى: "(أولم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله (فالأولى أن لا يقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل أو خبر ينقله الثقات"(١٨)

شاعت حول أهرام مصر وآثارها أقاويل،ونظريات كثيرة اعتنقها الرحالة والمؤرخون القدماء. حيث تركوا لنا سيلاً من الافتراضات تتناقض فيما بينها خصوصاً عندما يشيرون إلى أسباب تشييدها، والكيفية التى شيدت بها تلك الأهرامات، فحركت خيال مؤرخيهم وكتَّابهم،فراحوا يبحثون عن أسرارها، لماذا شيدت؟ وكيف شيدت؟ ومن شيدها؟ وماذا حدث؟ فحيكت الأساطير،وكثرت الأقاويل والخرافات، وتكأكأ الضباب حولها، ووصفوا تلك الأهرامات، أثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التى قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول من بين أقوالهم الأخرى.

وقد ورد الكثير من الحكايات فى هذا الشأن؛ يقول المقريزى:

"اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً .. وأعظم الأهرام الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها، والسبب فى بنائها، وقالوا فى ذلك أقوال متباينة

www.alkottob.com

أكثرها غير صحيح[١٩] ، وتشير بعض الروايات إلى هذا بقولها: "وما أكثر الروايات والأساطير التى تتداولها الألسنة فى أصل هذه الجبال"[٢٠] ؛ ورغم ذلك لم يجد لها البغدادى ذكرا "فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها[٢١] فكيف إذن بنوها أو شاركوا فى بنائها؟!. ويذكر التلمسانى: "أن أحوال الأهرام عجيبة وحكاياتها غريبة وللناس فيها كلام كثير وهى من عجائب البلدان وغرائب البنيان[٢٢] ، ويقرر أبو الصلت :"أن الأهرام والبرابى فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة، وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكير فيها..[٢٣]، ولم يشذ الهروى عن ذلك القول: "الأهرام: من عجائب الدنيا وقد اختلفت الأقاويل بين الناس فيها، وفيمن بناها. ما أريد بها.[٢٤] ودلت رمزية الأهرام فى العقلية الشعبية وأحلام الناس على الغرائبية فتنوه كتب تفسير الأحلام أن:" رؤية (أهرام مصر) فى المنام دالة على الأخبار الغريبة من الأمم السابقة، والمواعظ والفكر، وربما دلت رؤيتها على تزوج للأعزب بأهل الشرك، أو الأعاجم، أو معاشرة أولئك والتمذهب بمذاهب أهل البدعة، أو الاهتمام بطلب الفنون أو العلوم الدراسية، وربما دلت رؤية ذلك على العمر الطويل وعلى مواضع اللهو واللعب والمعازف والرقص[٢٥].

وأجمل المقدسى الآراء التى دارت فى عصره حولها فقال: "سمعت فى الأهرام أشياء مختلفة؛ فمنهم من قال: هما طلسمان ومنهم من قال: كانتا أهراء يوسف، وقيل بل كانت هى قبورهم وقرأت أنهما للرمل المحبوس"، ويستقر رأى المقدسى على أنهما

مقابر: "ألا ترى إلى ملوك الديلم بالرى كيف اتخذوا على قبورهم قباباً عالية[٢٦]، وهكذا، للناس فى أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك[٢٧].

أما أسباب بناء الأهرام كما جاء فى تلك الحكايات: يذكر الرحالة أبو الصلت رواية تعكس استمرار تنازع الاتجاهات السائدة فى ذلك الوقت سواء العربية أو الإغريقية أو القبطية المصرية. ورغبة كل اتجاه فى نسبة منجزات الحضارة المصرية القديمة إليه،تلبيه لحاجات ثقافية / اجتماعية آنذاك فيقول: "زعم نفر من الناس أن هرمس الأول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم – وهو إدريس (– استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر فى بنيان الأهرام، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم، وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظا لها واحتياطاً عليها. ويقال: إن الذى بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق، وقال آخرون: إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط: شداد بن عاد، لرؤيا رآها. والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، وتحقق أن بانيها سوريد. لرؤيا رآها وهى آفة تنزل من السماء، وهى الطوفان"[٢٨].

ويضيف ابن خرداذبة: "ويقال والله أعلم أنهما من بناء بطليموس القلونى الملك"[٢٩] ، أما الرحالة القزوينى فيذكر أن: "من الناس من يزعم أن إدريس (أمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم؛ إشفاقاً عليها من الدروس واحتياطا عليها وحفظا لها..[٣٠]،

www.alkottob.com

ومنهم من قال إنما عملوها خوفاً من الطوفان.(٣١)

وباتفاق فى المعنى واختلاف فى الألفاظ تحدث كلٌ من المقريزى والسيوطى عن أسباب بناء الأهرام فقالا: "..قال جماعة من أهل التاريخ: الذى بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة؛ وسبب ذلك أنه رأى فى منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضاً؛ بأصوات هائلة، فأغمه ذلك، وكتمه، ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض فى صورة طيور بيض، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة، فانتبه مذعوراً وجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر- وكانوا مائة وثلاثين كاهناً – فأخذوا فى ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان، فأمر عند ذلك ببناء الأهرام وملأها طلسمات وعجائب، أموالاً، وخزائن، وغير ذلك، وزبر فيها جميع ما قالته الحكماء وجميع العلوم الغامضة، وأسماء العقاقير، منافعها ومضارها، وعلم الطلسمات (الألغاز والرموز)، والحساب والهندسة والطب، وكل ذلك مفسر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم، ولما أمر ببنائها، وقطعوا الأسطوانات العظام والبلاطات الهائلة وأحضروا الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة،وشدها بالرصاص والحديد والصفر، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعاً. وكان ابتداء بنائها؛ فى طالع سعيد، فلما فرغ منها، كساها ديباجاً ملوناً من فوق لأسفل، وجعل لها عيداً حضره أهل مملكته كلها.

ثم عمل فى الهرم الغربى؛ ثلاثين مخزناً مملوءة بالأموال الجمة، والآلات والتماثيل المصنوعة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر والسلاح الذى لا يصدأ والزجاج الذى ينطوى ولا يتكسر، والطلسمات الغريبة، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة، وغير ذلك، وعمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب وما صنع أجداده من التماثيل، وجعل فى الهرم الملون [الأكبر] أخبار الكهنة فى توابيت من صنوان أسود، ومع كل كاهن مصحفة، وفيها عجائب صنعته، وحكمته وسيرته، وما عمل فى وقته، وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره. وجعل لكل هرم خازناً من قرب منه وثبت إليه من ناحية قصده وطوقت على عنقه فقتله ..(٣٢)، ونجد ابن حوقل يناقش ما قيل عن الأهرام فيقول: "وقد ذكر قوم أنهما قبران وهما ليسا كذلك وإنما حدا صاحبهما أن عملهما أنه قضى بالطوفان وهلاك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن فى مثلهما فخزن ذخائره،وأمواله فيهما وأتى الطوفان،ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن نوح.(٣٣)، كما يؤكد الدمشقى أن: " السبب الموجب لبنائها استدلال هرمس بالأحوال الكوكبية على حدوث الطوفان فأمر ببنائها وإيداعها صحائف العلوم والأموال وما تخاف عليه من الذهاب الدثور.(٣٤)، وأن "هرمس الأول الذى يسمه اليونانيون أخنوخ بن يرد وهو إدريس (علم بطوفان نوح إما بالوحى أو بالاستدلال .. فأمر ببناء الأهرام ..(٣٥) فلم يكن عجيباً أن يقول ابن وصيف شاه عن أهل مصر :"وأهل مصر يتحدثون بالأشياء ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل أن تقع، ويقال :مصر بأقوالها ."(٣٦)

www.alkottob.com

ما يهمنا فى تلك الروايات عن أسباب بناء الأهرامات،هو تأثير قصة الطوفان عليها، وقد تبين لنا كيف يصير القصص الدينى مادة لأمثال هذا النوع من القصص، كما تفصح عن ما كان للأهرامات من شغل شاغل فى فكر المصريين، فلقد اكتنزوا فيها علومهم النافعة وفنونهم وأموالهم وذهبهم،وادخروها لمن يأتى بعدهم،وينجح فى حل طلاسمها وقراءة رموزها، مما يعنى حكمة وحصافة وعلم لم يتسن لغيرهم من الأمم، و لسان حالهم يقول: "كونوا أسعد حظاً منا"، فلم يكونوا أبدا من الجبارين والطغاة الذين استعبدوا شعوبهم وسخروهم فيما لا فائدة منه من أجل مجد شخصى، وإنما كان فى مخيلتهم من أجل الإنسانية.كما أن أبا الصلت فى روايته القائلة: "وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى على ما شاهدناه منهما [٣٧] يكشف لنا عن أن الهرم الثالث كان مازال مطموراً لم يكشف عنه بعد حتى حوالى عام ٤٨٧هـ.

كما أن هذه الحكايات تعيد إلى الأذهان قصة حلم فرعون الذى ربط القصص الدينى بينه وبين يوسف بن يعقوب، ذلك الحلم الذى كان نبوءة بكارثة الجوع، وما كان من تأويله، والقيام بتخزين،وحفظ القمح المصرى فى سنوات الوفرة إلى سنوات الجوع، كما أننا نجد فى الرواية الأخيرة والتى سجلها كلٌ من السيوطى والمقريزى والتى نسبها السيوطى إلى مجهول مبهم وغير محدد سماه "جماعة من أهل التاريخ" ؛ الذين هم فى الحقيقة رواة التاريخ الشفاهى الفولكلورى، الذين تختلط فى رواياتهم بقايا المعرفة التاريخية الحقيقية ببقايا الأساطير، التى تحولت إلى مأثورات شعبية حيث

تشكل هذه المأثورات الفولكلورية فى بعض جوانبها: "الحجرة الخاصة" للتاريخ؛ وهى الحجرة التى تضع فيها الطبقات الشعبية عواطفها، وتخْزن فيها موروثها التاريخى – كما ينبغى أن يكون لا كما كان – وتودع فيها تصوراتها ورؤاها وحكمتها العملية، والباحث المدقق فى رواية السيوطى عن الأهرام سيجد فيها مزجاً أدبياً بين الحقائق التاريخية والمأثورات الشعبية – أو أنه بتعبير آخر سيجد صياغة فولكلورية لبعض الحقائق التاريخية القليلة التى وصلت لعصر السيوطى، وهى صياغة تحاول أن تملأ الفراغات التاريخية بالخيال الأدبى: وهو تقليد عرفه المؤرخون والجغرافيون والعلماء العرب منذ العصور الإسلامية؛ عندما انفتح أمام العرب عالم العجائب والغرائب والحقائق فى البر والبحر، فى البلدان الحقيقية والبلدان الأسطورية وكانت مصر بالتالى فى طليعة تلك البلدان.

سبب آخر رآه المؤرخون دعى إلى بناء الأهرام يقول عنه البيرونى: ".. وقالوا أن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم – يعنى الطوفان – بنو أبنية كالهرمين المبنيين فى أرض مصر،إذا كانت الآفةمن السماء دخلناها، وإذا كانت من الأرض صعدناها، فزعموا أن آثار ماء الطوفان، وتأثيرات الأمواج بينه على أنصاف هذين الهرمين لم يجاوزهما .. وقيل أن يوسف .. جعلهما هرياً وجعل فيهما الطعام والميرة لسنى القحط[٣٨]، ويعتمد المسعودى على جماعة من رواة التاريخ الشفاهى الشعبى فى قوله: "فإنى سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبى (حين بنى الأهرام اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل.."[٣٩]، ويشير إلى ذلك صاحب "آكام

www.alkottob.com

المرجان" بقوله: "الهرمان ارتفاعهما مائة ذراع وهى من صخرة وبها كان يجمع الطعام فى أيام يوسف (٤٠)

ونجد قول البلوى حين يتحدث عن فضائل مصر فيقول: "إن بها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة فى جو السماء وبها كان يجعل الطعام فى أيام يوسف (٤١)، وقال المقدسى:" ومنهم من قال كانتا أهراء يوسف (٤٢)بينما اقترب المؤرخ (ابن ظهيرة) من بعض الحقائق التاريخية والتى تتصل بجوهر عقيدة البعث والخلود لدى القدماء المصريين فيقول: "لم تزل مشايخ مصر يقولون: الأهرام بناها شداد بن عاد، وهو الذى بنى الغار وجند الأجناد وهى الدفائن، وكانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائناً من كان وإن كان صانعاً دفنت معه آلته..(٤٣)

فى الروايات السابقة والتى جعلت من الأهرامات (أهراء) أو مخازن خزن فيها النبى يوسف (القمح يتبين لنا كيف يصير القصص الدينى – مرة أخرى – مادة لأمثال هذا النوع من القصص، وكيف يستمر لجوء الخيال الشعبى إلى الخرافة،والحكايات الشعبية لسد النقص فى سطور القصص الدينى أو لتأكيد الإيمان بالقصص الدينى نفسه كإضافة إلى رصيده فى الوجدان الشعبى لا الخصم منه، كما يتبين لنا أن أصحاب النزعة الإسلامية من المؤرخين حاولوا أن ينسبوا كل شىء فى مصر القديمة إلى يوسف، ولا شك أن تياراً يهودياً ساعد فى هذا وأكده؛ فحكاية أن يوسف هو بانى الأهرامات وصاحب عمارتها،وأمرها .كل هذا ربما دخله عنصر

إسلامى قرآنى من ناحية، ودخله عنصر يهودى مغرض وفاهم ومنظم فى دنيا الأخبار والتاريخ من ناحية أخرى، وسنجد الكثير من الكتابات التاريخية خضعت لهذه الأخبار موردة لها عن اقتناع دينى مرة، وعن اقتناع عصبى مرات، ولكنها – الكتابات التاريخية – لا تغفل فى كل أخبارها دور يوسف فى حياة مصر، محملة كل خيراتها له ولجهوده بما فى ذلك بناء الأهرام.

وفى أوربا العصور الوسطى، كادت قصص العهد القديم عن يوسف فى مصر أن تكون لها وجودها المستقل؛ فقد كانت موضوعات شعبية لتزيين صناديق المجوهرات، وفى كنيسة سان مارك التى بنيت على طراز البازيليكا فى البندقية القرن الحادى عشرالميلادى، رُسمت قصة يوسف بالموزايكو. فى سقف الرواق الشمالى، حيث تجد يوسف الوزير يشرف على تخزين الغلال، وكانت هذه الغلال تشاهد مخزونة فى الأهرام، التى صورها الفنان أينيه، وعددها خمسة ولها نوافذ، وفكرة أن الأهرام كانت مخازن الغلال للفراعنة (أو شوَّن يوسف لها تراث طويل استمر حتى القرن السادس عشر الميلاد(٤٤)، وقد سببت ارتباكا لبعض أولئك الرحالة اللاحقين الذين سافروا إلى مصر، والذين كانوا قد عرفوا الكُتَّاب الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت الهاليكارناسى الذى زار مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق.م، وقد وصف هيرودوت أهرام الجيزة، وسجل طريقة بنائها مثلما حكاها له الكهنة(٤٥)

وواصل المؤرخون وسط بحر متلاطم من الخرافة الحديث عن كيفية بناء الأهرام ونسج المؤرخون والرحالة معلومات من وحى

www.alkottob.com

خيالهم، وأكثر بعداً عن منطق الأشياء وظل المؤرخون خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين التاريخ التوراتى والبعد الأسطورى فيما يتعلق بأهرام مصر وكيفية بنائها، حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر فى تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة؛ ويرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة التى كانت مدونة على تلك الآثار.

ورغم أن الرحالة العبدرى يصف أهرامات مصر بقوله: "على شكل مخروط وليس لها باب ولا مدخل، ولا يعلم كيف بنيت[٤٦]، فإن السؤال ظل ملحاً على أذهان الناس بما فيهم المؤرخين والرحالة سواء من الشرق أو الغرب وشُيدت الأهرام فى مخيلة الناس باستخدام السحر أحياناً أو بالمعجزات الإلهية أو بواسطة عمالقة من البشر أحياناً كثيرة.

يقول المسعودى: "كان القوم يبنون الهرم مدرجاً ذا مراقى كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل..[٤٧]، ويسوق التجيبى قولاً: "أن سبب حسنها – الأهرام – أنها نحتت بعدما بنيت فخفى بسبب ذلك ما استعين به على إلصاقها .."[٤٨]، ويعلق البغدادى على ذلك: "والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل إبره ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صنعته ولا هو ..[٤٩]، ويقرر ابن زولاق: "لا يعلم فى الدنيا حجر على حجر فى هذا الوسع... ولا يقدر

الخلق على عمل مثلها، ولم يقو لهما إلا خالق الأرض[٥٠]

ويشرح الإسحاقى كيفية بناء الأهرامات بقوله: "...لما شرع فى بنائها؛ أمر بقطع الاسطوانات العظام واستخدم الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة: الشرقى، والغربى، والملون، وكانوا يمدون البلاطة ويثقبونها ويجعلون بوسطها قضيباً من حدى قائما ويربكون عليها بلاطة أخرى مثقوبة ويدخلون القضيب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب فى القضيب حول البلاطة إلى أن أكملت وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام مائة ذراع بالذراع الملكى .. ولما فرغت كساها ديباجا ملونا من أسفلها إلى أعلاها..[٥١]

ويعلق (ابن جبير) على بناء الأهرام فيقول: "قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيباً هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها..[٥٢]

أما المقريزى فقد حاول مناقشة كيفية بناء الأهرام مناقشة علمية فقال: "فكرت فى بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحاً مربعا، ونحتوا الحجارة ذكراً وأنثى ورصوها بالجبس البحرى إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للرفع الأسفل مربعاً أصغر من المربع السفلانى، ثم عملوا فى السطح المربع الفوقانى مربعا أصغر بمقدار ما بقى فى الحاشية، ما يمكن رفع الثقيل إليه، وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه إ ليه ذكرا وأنثى إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار

www.alkottob.com

الأول، ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، ونحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا فى النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرماً[٥٣].

والأهرامات كانت قرينة الرحالة (أبو الصلت) على ما وصل إليه المصريون القدماء من تقدم فى علم الهندسة فيقول: "كان فيهم – المصريين – طائفة من ذوى المعارف والعلوم خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم. ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ؛ كالأهرام والبرابى (المعابد)، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة وتركت لها شغلاً بالتعجب منها والتفكير فيها.."[٥٤]، ويصفها الاصطخرى بقوله :"مربع الأسفل ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى يصير أعلاه نحو مبرك الجمل وملئت بنيانه بكتابة يونانية، وفى داخله طريق يسير فيه الناس رجالة[٥٥]

أما الرحالة اليهودى (بنيامين التطيلى) (القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى). فقد كان له رأياً مخالفاً فقال عن الأهرامات[٥٦] أن فى الجيزة:" الأهرام التى بناها السحرة مما يندر نظيرة بين مبانى العالم ..[٥٧]، فما أكثر الروايات والأساطير التى تتداولها الألسنة فى أصل هذه الجبال الاصطناعية.."[٥٨]، خصوصاً بعد أن بَعُدَ زمانهم عن زمان بناء الأهرام بنحو ٤٠٠٠ سنة أو يزيد، ولذلك شاعت بينهم معلومات مغلوطة، يبدو بعضها وقد اختلق اختلاقا بقصد ادعاء المعرفة بأسرار الغرائب والعجائب، حتى ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق وبديهيات التفكير السليم.

وهكذا، بنيت الأهرامات باستخدام السحر فى نقل أحجارها

الضخمة من المحاجر إلى مكان البناء، إذ يبدو بوضوح أن تلك الروايات تأثرت بما شاع عن المصريين من فنون السحر، كما قدمت لنا صورة عن أفكار الناس وآرائهم عن الأهرام والتى عدوها من فضائل مصر والحارسة لها، كما تعكس مدى انشغال الذهنية الشعبية بأخبار تلك الآثار. فراح الوجدان الشعبى يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك الروايات،فجاءت متعددة بمقدار انشغال الوجدان الشعبى بها. كما تبين لنا أن الوجدان الشعبى حاول أن يختلق (علاقة شرعيةأو غير شرعية) بين الأهرامات والسحر وهدف إلى إظهار النواحى السحرية التى استندت عليها أسس عمارة الأهرامات وخُيِّلَ للوجدان الشعبى أن من الجائز أن يكون من بين أغراض البناء محاكاة بعض المظاهر الطبيعية واستنباط طراز معمارى خاص من نظامها . فلقد مثل شكل الهرم سحراً كبيراً للمصرين القدماء، انطلاقاً من ربطه بشكل التل الأولى الذى اعتقدوا أن الحياة نشأت عنه . كما أنه مازال يمثل لنا سحراً حتى اليوم من حيث ضخامة تشييده وانعكس هذا السحر على مصنفات السحر الشعبى التى بين أيدينا اليوم، والتى نجد فيها الشكل الهرمى المثلث مستخدماً فى عمل الأحجبة والتمائم والأحراز .

وسحرية الشكل الهرمى تتضح لنا فى محاولتنا ونحن نتكشف أن الهضبة نفسها التى أقيمت عليها الأهرامات بين الجيزة والفيوم يكثر فيها – بمحاذاة شمال بحيرة قارون وفى الأودية الصحراوية المطلة على البحيرة والأراضى الزراعية ـ عدد لا يحصى من الكثبان الرملية المنتظمة ذات الأشكال المخروطية أو المخروطية الناقصة،

www.alkottob.com

وهى تبدو عند النظر إليها كما لو كانت أهرامات بالفعل بعضها مدرج، ومنهاما يتخذ شكل المصاطب أو الأهرامات المنتظمة.

وكلما توغلنا فى الهضاب المحاذية لشمال البحيرة ازدادت تلك الأهرامات الطبيعية أو بالأحرى الكثبان المخروطية الشكل، حتى يكاد يساورنا الشك فى أن وجه الشبه بين تلك الأهرامات التى شيدتها الطبيعة، وهذه الأهرامات التى أقامها الفراعنة لم يأت بمحض المصادفة، وأن هناك صلة تربط بين الاثنين، ويحتمل أن فكرة محاكاة الطبيعة نشأت مع نزعة عامة للعناية بالأحجار وأعارتها اهتماماً بالغاً يقترب من التقديس يجعلنا نتساءل عن صلة هذا الطابع الهندسى المخروطى أو المثلث بجوانب من الفنون الشعبية القديمة أو القائمة حتى الآن، والذى يبدوا جلياً فى الرسوم السحرية على شكل مثلثات أو أشكال مخروطية التى افترشت بها كتب السحر الشعبى إضافة للتشابه بينها وبين تلك الأشخاص المجردة التى تكثر فى مخطوطات السحر التى تظهر فيها أجزاء الجسم كما لو كانت مربعات أو مثلثات أو دوائر، وربما من هنا اتخذ شكل المثلث طابعاً سحرياً ودينياً، إذ نرى إيزيس الممثلة فى كثير من تماثيل دولة البطالسة فى مصر ممسكة بالمثلث الحديدى ومتخذة منه سلاحاً لطرد الأرواح والشياطين الضارة.

وفى فنوننا الشعبية فى الوقت الحاضر نجد الأجراس الهرمية أو المثلثة الشكل مستخدمة كثيراً فى لجام وسرج بعض الدواب، ولاسيما ما يجر منها العربات، حيث يمكن أن نستشف منها الغرض السحرى الذى يهدف إلى طرد الأرواح أو الشياطين التى قد تؤثر

على الدابة فتجعلها تتعثر فى سيرها. فالدابة التى تجر العربة أو تحمل حملاً، تبدو أحياناً غير مبالية بثقل الحمل، خفيفة فى حركتها كما لو كان الدافع أو المعين لها بعض الأرواح . وفى أحيان أخرى تتعثر لحمل أقل ثقلاً وتجمح فى السير، وكأن "عُكوساً" تؤثر عليها . فلعل هذه الأسباب مجتمعة تحمل الرجل الشعبى على تزويدها ببعض الأجراس المثلثة الشكل أو المخروطية التى تعتبر بمثابة دروع وقائية تحمى الدابة من الأرواح الشريرة والشياطين كأن الشكل الهرمى أصبح حرز أو رصد يحمى الدابة [٥٩] ، ونجد أن شكل المثلث الهرمى ينتشر بقوة فى الموروث الشعبى المتعلق بخاتم سليمان (وهو الخاتم الذى استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخره، فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له الهياكل والقصور)، وتشير بعض مصنفات السحر الشعبى أن هذا الخاتم هو تطوير لخاتم على شكل هرمى كان لآدم عليه السلام إذ أن قيمته العددية ذات الطابع السحرى تساوى ١٥ بحساب الجمل[٦٠] . وقد نسب هذا الخاتم أيضاً إلى آصف بن برخياء وزير سليمان، ويذكر الموروث الشعبى أن آخر من ملك هذا الخاتم كان الإمام الغزالى [٦١] ، ولذا ينبغى ألا ندهش بعد هذه القرائن من أن نعثر عند الشعبيين على أحجبة مصنوعة على شكل هرمى أو مثلث جمعت فى منشئها بين الغرض الدينى والغرض النفعى.

وهناك من رأى بأن الأبراج البابلية المسماة بالزيجورات الشبيهة بالأهرامات المدرجة والمثلثة الشكل، وكذلك الأهرامات المصرية القديمة، وما يناظرها من أهرامات أقيمت فى حضارات المكسيك القديمة، ومعابد

www.alkottob.com

بورما المقامة على هيئة أهرامات يعلوها شكل اسطوانى – هناك رأى بأن هذه الهياكل كلها إنما أقيمت لتجمع بين الغرض الدينى وغرض التنجيم، وكلاهما سحرى فى أصله(٦٢) كما أن ما روجه المؤرخون والرحالة حول :"وأهل مصر يتحدثون بالأشياء ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل أن تقع، ويقال :مصر بأقوالها ."(٦٣) كأحد الأسباب المباشرة لبناء الأهرام خوفاً من الطوفان يذكرنا بما شاع عن المصريين من طقوس شعبية تكاد تطابق فتح المندل عند الشعبيين واستنطاق الودع وقراءة الطالع وهو الشيء الذى ظل محتفظاً بطقوسه السحرية وسط هذا الانقلاب فى التفكير ووسط تطلع الأذهان إلى جلب المكاسب المادية وتحقيق التوسع فى مناطق النفوذ .

ومن أهم ما يرغب المترددين على المشتغلين بالسحر فى معرفته هو طلب الإخبار بمعلومة معينة حول المستقبل، أو الحصول على توجيه إلهى أثناء النوم . وهذا لا يوجد بالنسبة للمعتقدات السحرية عند الشعب المصرى فحسب بل يوجد فى المعتقدات السحرية عند كافة الشعوب (٥٤)

ويعد هذا الهدف وهو معرفة الغيب، مطلباً أساسياً، لدى المترددين والدوافع إلى معرفة الغيب كثيرة عندهم، فهناك دوافع الخوف ..الخوف من المجهول، والخوف من ضياع النعم، أو فقدان الحب أو المال، أو الولد، وهناك دوافع العجز فحين يعجز شخص عن معرفة من سرق ماله مثلاً، أو تعجز أم عن معرفة مكان ولدها التائه فإنهما قد يلجآن إلى المشتغلين بالسحر وبخاصة حين يفشلان فى ذلك باللجوء إلى الشرطة(٦٥).

ففكرة الفأل والتنجيم وكشف الطالع وغيرها من الممارسات الشعبية ذات الطابع السحرى ؛فيها بطبيعة الحال نوع من التناقض، إذ نرى شخصية الفرد تتطلع إلى سعة المدارك والجرأة فى خوض غمار مخاطرات وكشوف بدافع العقلية المادية وهى فى الوقت نفسه ترتد لتحتمى فى أوهامها القديمة غير مقتنعة تماماً بما أكسبتها للفنون والعلوم من المنافع ومكنتها من التقدم، فالطابع السحرى الذى كان بمثابة الموجه أو أحد العوامل الرئيسية التى أكسبت هذه الفنون طبيعتها ومقوماتها الفنية، وكذلك طائفة من صناعاتها وحرفها، ولاسيما عند منشئها (٦٦) ، فلا غرو أن يتداخل الخيال مع الأسطورة لدى من وصف المصريين سواء كان مؤرخاً أو كاتباً أو رحالة، فيربط البعض منهم بين الأحوال الفلكية،وسمات أهل مصر؛ يقول المقريزى: " إن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها، ويخبرون بما يكون وينذرونه بالأمور المستقبلة، ولهم فى هذا الباب أخبار مشهورة(٦٧).

يشير المقريزى إلى تلك الحاسة ويرجعها إلى عوامل بيئية جغرافية تتصل بموقع مصر وعلاقته بالنجوم والأفلاك،ويلحظ المرء بروز الاعتقاد فى تأثير النجوم فى طبائع الناس وأحوالهم ويشير (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى) إلى ذلك فيقول :" المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها، وسكوناً إليها؛ حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا

www.alkottob.com

تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتدونها"(٦٨)

ويستشهد صاحب الرسالة المصرية على ما يقول بحكاية يرويها: " ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين فى آتون الحمام يسأل رزق الله المذكور (أحد المنجمين) عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته على خساسة قدره ووضاعة مهنته(٦٩)".ويضيف إلى ذلك قوله: " ومن الحكايات العجيبة فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم، وعنايتهم بها؛ ما شهدت بالصعيد الأعلى وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر فى علم النجوم وشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه،وأمر بإطلاقه،وكان من الحبس فى عذاب واصب،وجهد ناصب،فلما أتوه وقالوا له: انطلق لشأنك. أخرجَ من كمه اصطرلاباً،فنظر فيه فوجده مذموماً، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن،فعادوا إلى الوالى،فأخبروه بخبره فضحك منه،وتعجب من جهله وفساد عقله وأجابه إلى سؤاله وتركه على حاله،وأطال مدة عقابه"(٧٠).

هكذا بلغ الاعتقاد فى النجوم والطوالع وتأثيرها فى أحوال الناس الحد الذى جعل وقاداً فى أحد الحمامات يستشير النجوم قبل أن يقص أظافره،وجعل ذلك المنجم يرفض الخروج من السجن حين أتيح له ذلك بعد شفاعة أحد المتشفعين، لأن الوقت لم يكن مناسباً حسبما قالت له الأبراج. كانت تلك سمة من سمات ذلك العصر فى تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب؛ حتى انتشرت الوسائل المتعلقة بها وتنوعت تلك الأمور ما بين ضرب الرمل واستنطاق الودع، وفتح

المندل والاستخارة بالرؤية وبالقرآن الكريم حتى أنكر ابن الحاج ذلك على المصريين بقوله: " أما الباطل فهو زعمهم فى فتح الختمة والنظر فى أول سطر يخرج منها أو غيره"(٧١).

واضطلع العديد من الناس بهذه المهام ليقدموا للإنسان اللاهث وراء المجهول كل ما يرضيه أو يطمئنه على المستقبل أو ينذره من ويلاته وحسبنا هنا مشاركة المؤرخ العينى (٨٥٥هـ)، حيث أشار فى حديثه عن (السلطان الظاهر ططر) بقوله: " وكانت توليته فى ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل على طول أيام مولانا السلطان خلد الله ملكه مع عافية وأمن وسرور، ثبت اللهأركان دولته وأيام سطوته وعزته "(٧٢) ، بيد أن " ساعة السعد" التى أشار إليها العينى لم تكن كذلك فقد تبوأ السلطان (سيف الدين أبو الفتوح ططر) فى يوم (٢٩ من شهر شعبان عام ٨٢٤هـ)، ولم يمهله القدر فى حكم مصر أكثر من تسعين يوماً لا غير.

أما الأرصاد الحافظة للأهرام والروايات التى شاعت حولها فقد تأثرت كذلك بما عرف عن المصريين من إتقان للسحر حيث: "كان أهل مصر أعلم الناس بالسحر، وأقواهم عليه، وانتشر ذلك فتناذرهم الناس.."(٧٣) ، وعلى هذا يصف (ابن الظهيرة) أهرام مصر وعلاقتها بالسحر فى قوله: ".. ليس على وجه الأرض بناء أرفع منهما – الهرمان – منقور فيها بالمسند كل سحر وطب وطلسم.."(٧٤) ، ومن هنا يؤكد (أولياچلبى) أنه :"ليس هناك شك فى أن هذا البناء العجيب – الأهرام ـمطلسم؛ لأننا حينما وصلنا الحوض المذعور، بهتنا كلنا وتولتنا الحيرة، والدهشة، وأحاط بنا النصب والأذى لمن

www.alkottob.com

كان جهة، فعدنا بأعجوبة، ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا؛ من هول الموقف حتى وصلنا إلى الهواء الطلق، وتنفسنا الصعداء ودبت الحياة فينا من جديد.."(٧٥)

وبإسناد مبهم وغير محدد يضيف (التلمسانى): "يُحكى أن الذى بناها ملك يُقال له سلموق بن درمسيد؛ الذى أغرقه نوح (بالطوفان .. وأنه لما بناها وكّل بكل هرم منها روحانياً يحفظه؛ فوكّل بالهرم البحرى، وهو المفتوح الآن روحانيا فى صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها ذوائب تصل إلى الأرض، فإذا أرادت أن تستفز الإنسى ضحكت فى وجهه وجرَّته إلى نفسها، فتطعمه وتسخر به، وحكى من رآها عريانة عند هذا الهرم أنه امتلاء قلبه رعباً.وعدل عنها ولم يكلمها ولم تكلمه. ووكَّل بالهرم الذى إلى جانبه روحانياً فى صورة غلام أمرد أصغر عرياناً، وذكر جماعة أيضا أنهم رأوه على جانبه مرة بعد مرة، ثم يغيب عنهم، ووكل بالثالث وهو الصغير روحانياً فى صورة شيخ فى يده مبخرة، وهو يبخر بها، وعليه ثياب الرهبان، ذكر قوم من أهل الجيزة أنهم رأوه مرات فى أطراف النهار، فإذا قربوا منه يغيب عنهم، ولم يظهر فإذا بعدوا عنه عاد إلى حالته التى كان عليها.."(٧٦)

هذه الروايات على الرغم من غرابتها وامتزاجها بكثير من الخيال ووسائل الإيحاء، لا تنفى تفوق الذهنية الشعبية إلى حد الموهبة فى إيجاد مبررات صمود تلك الآثار أمام عوادى الزمن فتسربت بعض الأفكار المرتبطة بالسحر الشعبى المتغلغل فى نسيج المجتمع المصرى آنذاك ليقدم تبريرات ممنطقة لكل الأسئلة التى ألحت على العقلية الشعبية يومئذ فلا غرابة أن نجد فى تلك الروايات التى قدمها لنا

الرحالة والمؤرخون موتيفات فلكلورية عن روحانيات تحرس الأهرامات تتشابه كثيراً مع روايات وردت فى مصنفات السحر الشعبى حول الجن والعفاريت التى تحرس كنوز القدماء.فيقول ابن الحاج التلمسانى المغربى فى كتابه شموس الأنوار تحت باب بعنوان (الباب السابع فى فتح الكنوز) :"هذه عزيمة قوية يفتح بها كل كنز مغلق وتغلق الصخور المنتظمة والقلل على أبواب الكنوز والديور الكائنة تحت الأرض التى فيها ذخائر الملوك وملوك الجاهلية، وكيفية العمل بها ؛ أن تخدم العزيمة فى فلاة من الأرض مدة أيام فإذا بلغت أحداً وعشرين يوماً يظهر لك عبد أسود طويل القامة كبير الرأس راكب على فرس وبيده أسد عظيم فإنه يكلمك فلا تجبه، ثم بعد خمسة وثلاثين يوماً يظهر لك شخص وجهه وجه كلب وذاته ذات آدمى ويسلم عليك فلا تجبه فإنه يذهب عنك ويظهر لك فى اليوم الثانى والأربعين سبعون رجلاً لباسهم أخضر فيسلمون عليك فرد عليهم السلام، فإنهم يقولون أى حاجة تريد عندنا فقل لهم طلبت من الله ثم منكم أن تجمعونى مع الأمير سلطانكم خليفة دمرياط الصنديد المسمى بالطاوس ... (٧٧) ، وتستمر الرواية فى سرد أسانيد إيمانية لتقوية الاعتقاد بقوة الآثر فى ظهور(خُدام) أو حراس من العالم الغيبى يقومون على حراسة الكنوز والآثار القديمة .

وصورة الروحانيات التى تحرس الأهرامات والتى ورد لها نظائر فى مصنفات السحر الشعبى تتشابه كثيراً أيضاً مع تردد بالحكايات الشعبية حول معبد مدينة قفط إذ يقال إن معبد فقط تحرسه فتاة سوداء كحية البركة، وتحمل على ذراعها طفل رضيع سواده سواد

www.alkottob.com

الليل الجوانى، وعندما يهل سواد الليل، تخرج الفتاة وتلف فى المنطقة، وقفط هى مدينة (كيتوس)، وعندما تشاهد يقال الأم تحمل رضيعها وتظل حائمة وهى هكذا منذ الجدود . ويقال إنه كان معها أخوها وزوجها، وسبحان من يفرق العائلات والجماعات .. إنها تندبهم وتندب وحدتها ويا بخته من صادفها ومسح لها دمعتها ودلها أو أجابها على سؤال أو يا بخت من يسترها، ومن يسترها تستره دنيا وآخرة، وتدله على باب الكنز (٧٨)

وقدمت لنا كتب التراث؛ صورة عما كان شائعا من روايات شفوية ومكتوبة عن الأهرام، وأدلى المؤرخون والأدباء والرحالة بدلوهم فيما رأوه. عاكسين بذلك بعض الأفكار التى سادت المجتمع المصرى حول هذه الأعاجيب، وكيف أن تلك الأفكار كانت مزيجاً من الحقيقة والخيال، لدرجة أنها: "حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة أو تركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكير فيها"(٧٩)، على حد قول الرحالة (أبو الصلت الأندلسى)، ولدرجة أن الخيال الشعبى أضفى على الأهرام هالة قدسية؛ مثلما للكعبة المشرفة من قداسة ومكانة فى نفوس تابعيها؛ ففى تلميح إلى وجود أرصاد حارسة للأهرام استعار (الخيال الشعبى) هيكل أسطورة (إساف ونائلة١٦٢) العربية دون المضمون خاصة، حينما حاولا أن يفعلا الفاحشة فى جوف الكعبة فيقول المسعودى: "... وحكى أن رجلا وامرأة دخلا (الهرم) للفجور فصرعا جميعاً فلم يزال مصحوبين مشهورين إلى أن ماتا... وحكى أن قوما دخلوا الهرم، ومعهم غلام يعبثون به، فخرج عليهم غلام أسود فى يده عصا، فأخذ

يضربهم ضربا وجيعاً، فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم، وشرابهم، وبعض ثيابهم، وقد أصاب قوم فى بربا إخميم مثل ذلك..."(٨٠)

وتعكس الروايات السابقة إلى أى مدى انشغلت الذهنية الشعبية بفكرة الأرصاد والطلاسم والإحراز التى تقى من الأرواح الشريرة وغيرها، يعرف المعجم الوسيط الطلسم بأنه خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية لطبائع السفلية لجلب أو دفع أذى، وهو لفظ يونانى لنعت كل ما هو غامض ومبهم كالألغاز والأحاجى، وحسب ابن خلدون فإنه إذا كان السحر هو اتحاد روح بروح، ولا يحتاج الساحر فيه إلى معين فإن الطلسمات يحتاج فيها الساحر إلى معين فيستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة فى عالم العناصر، ولذلك فإن الطلسمات اتحاد روح بجسم أى ربط للطبائع السماوية (التى هى روحانيات الكواكب بالطبائع السفلية.ويعنى ذلك أن الطلاسم (أو الطلسمات) ليست شيئا آخر سوى الجداول (بالتعبير المغربى الدارج الذى ينطق الكلمة بجيم ساكنة مع تشديدها) أن صناعة الجداول تخصص لا يتقنه سوى نخبة الفقهاء السحرة الذين اكتسبوا معرفة دقيقة بأكثر «علوم السحر» تعقيدا، ولأجل ذلك يطلبون مقابل عملهم تعويضات من الزبائن تكون قيمتها المالية كبيرة. وأهم العناصر التى صنع منها الجداول هى: حروف غير مفهومة مثل السبع خواتم، (معروفة بخاتم سليمان) حروف أبجدية، أرقام، أسماء هجرية، أسماء عناصر، أسماء الشياطين وملوك الجن والملائكة، أسماء الله الحسنى، سور من القرآن، أشكال هندسية مختلفة .

www.alkottob.com

وتسمى الجداول كذلك فى لغة السحرة «خواتم» أو حسب شكلها الهندسى مربع مخمس، وهى من التنوع والغرابة بشكل يرعب العامة أو على الأقل احترامها للعمل السحرى، ومن مطالعتنا لبعض كتب السحر التى تحفل بالكثير من النماذج نستخلص أن الجدول الواحد يصلح لقضاء أكثر من غرض واحد وطريقة الاستعمال وحدها تحدد النتيجة التى حصل عليها المستفيد من العملية، ونظرا لأن تلك الرسوم التخطيطية الغامضة تبدو متضمنة لخاصية سحرية (كل ما هو غامض هو سحرى) فإن مؤلفى مصنفات السحر الشعبى الأساسية بالغوا فى حشو بعض الجداول بكل ما هو غريب وغامض من الرموز، بيد أن أكثر إشكال الجداول خطورة (من وجهة نظر المعتقدات السحرية) وإثارة لرعب العامة هى تلك المسماة «الجدولية». والجدولية هى رقعة ورق وضعت عليها كتابات سحرية يتم إعدادها غالبا بدافع الغيرة وبغاية الانتقام الأسود من غريم أو عدو وهذه العملية السحرية تستدعى القوى الخفية على رجل أو امرأة من قبل فقيه ساحر يتعاهد من جنى لإشراكه فى العملية بحيث يصبح الجنى حارسا للجدول السحرى وضامنا لاستمرار مفعوله طالما بقى المستهدف بالعمل السحرى حيا.ويمكن تلخيص العملية فيما يلى: "بعد أن يعد الساحر الجدولية» يقيم عهدا مكتوبا مع جنى بأن يحرسها ثم يقوم بدفن كل من الجدولية والعهد المكتوب فى الروضة المنسية بإتباع طقس معقد جدا والروضة المنسية فى فهم المغاربة هى المقبرة المهجورة التى كفت منذ أمد بعيد عن استقبال موتى جدد وانمحت الكتابات من شواهد قبورها" .

إن الأثر السحرى الذى يترتب عن هذا العمل المرعب يتحدد فى جعل المستهدف منه يصبح غائبا عن محيطه وبتعبير المختصين فى صرع الجن فإن ضحية الجدولية تصبح «ملبوسة من طرف الجن»، وهى أخطر أنواع الإصابات التى يلحقها الجن بالبشر، وربما نجد فى الأمر بعض التشابه مع المضمون الغرائبى لحكايات ألف ليلة وليلة التى أثرت بعمق فى المتخيل الشعبى العربى وتركت بصمات واضحة المعالم فى مأثوراتنا الشعبية، وعلى الخصوص منها حكايات الجن الذى يظل مسجونا فى قمقم أو حارساً يحمى كنزا لعدة قرون.وفى زعم السحرة أن الجنى الذى يحرس الجدولية يصبح متقمصا (لابسا) للضحية حتى لا تستطيع أية قوة سحرية أخرى إبطال مفعوله، وفى محكمة الجن الكبرى فى «بويا عمر» يحدث أن ينهار الحارس للجدولية أثناء حصص «الصريع» فيفيد هيئة المحكمة الغيبية بمصدر الشر الذى يحرسه واسم صاحب الجدول السحرى والفقيه الذى صنعه، وفى بعض الأحيان حتى المكان الذى دفن فيه الجدول والعهد.ولا يقتصر استعمال الجداول على الأغراض الملحقة للأذى بالغير فقط، بل يستعمل لأغراض نافعة أيضا.ومنها علاج لسعات الحيوانات السامة، والكلاب المصابة بالسعار، ولأجل ذلك ينقع الورق الذى كتبت عليه عبارات سحرية سرية فى ماء، ثم يقدم شرابا للمريض، كما تعلق بعض الجداول الأخرى بغاية علاج أمراض خطيرة، كحمى المستنقعات وأمراض القلب، وآلام الأعصاب والعقم، وغيرها.

والمدقق فى الروايات السابقة، سيجد أن الحديث عن أولئك

www.alkottob.com

الخدام والروحانيات والطلاسم، والصيغ السحرية التى وضعت لحماية الأهرام، تتصل بما صار يعرف بلعنة الفراعنة، ويشير هذا إلى أن الاعتقاد فى وجود تلك اللعنة والرصد قديم، كما تشير أيضا إلى أن أماكن الآثار المصرية كانت من الأماكن المحببة إلى الناس ارتيادها كما تدل على ما ابتلى به المجتمع المصرى من أمراض اجتماعية كالزنا واستيلاء شهوة المردان الملاح على قلوب البعض، كما نستخلص مما سبق أن فكرة الاستعانة بالطقوس الدينية والسحرية التى ارتبطت بالأهرامات كانت وسيلة الذهنية الشعبية لحفظ هذا التراث الإنسانى من الضياع، وبطبيعة الحال ظلت مجموعة كبيرة من تلك المعتقدات القديمة قائمة حتى عهود متأخرة، بل نجد لها بقايا فى كثير من الفنون الشعبية، ولاسيما فنوننا . وهذا الاستمرار يدل على أن تلك الفنون الشعبية سجل يجمع نواحى متفرقة من تاريخ البشر فى عهوده المختلفة، وأن بعض العادات أو القصص أو الفنون الشعبية تقص علينا أحياناً جوانب من عادات وطقوس مجتمعات عاشت منذ فجر الإنسانية كالعصور الحجرية، وأن تلك الطقوس القديمة التى امتزج فيها الدين بالسحر وخيال الرجل الشعبى بالخرافات التى يحيط نفسه بها، جعلته رغم غرابتها وبعدها عن المنطق يكتسب صفات المثابرة والجلد والحذق بل المهارات المختلفة، فلعل خشيته بأس الأرواح الشريرة والشياطين وحذره ومحاولته اتقاء شرها ومكرها وبطشها، جعلته يتطلع دائماً إلى الوصول إلى نوع من القوى والسحر تبطل أضرار تلك الأرواح التى يخشاها، بل تسيطر عليها وتسخرها [٨١] أضف لذلك ما

تعكسه الروايات من اعتداد المصريون بتاريخهم وآثارهم حيث كانوا ينظرون إلى الأهرام باستمرار نظرات ملؤها الاحترام والتقديس وهو ما نكتشفه فى الروايات التى تناثرت فى كتابات الرحالة والمؤرخين عن عبادة الأهرامات.

تشير الكتابات التاريخية إلى انتشار ما اصطلحنا عليه فى العصر الحديث بظاهرة – الافتتان بالمصريات [٨٢]، بين شعوب العالم الوسيط وأن تلك الظاهرة قد اتخذت أطوارا متباينة وأشكالا عدة، ونتيجة لشيوع الأساطير والخرافات حول الأهرام بين شعوب العالم الوسيط، نشأ نوع من "الحج" لزيارة الأهرام، فتوافد – خلال العصور الوسطى – مئات الألوف سواء من الشرق أو الغرب، وخلد المؤرخون تلك الزيارات فى سياق حديثهم عن عجائب مصر فيقول (أولياجلبى): "..إذا كان جبل الهرمين فى تلك العصور مزارا للخاص والعام، لأنه مقبرة يزورونها، ويتطوفون بها مثل الكعبة، وقد دام الحال على هذا المنوال منذ عهد سيدنا إبراهيم[٨٣] ويضيف أنه: "كان يؤم هذين الهرمين فى ربيع كل سنة مئات الألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونهما.."[٨٤]، ويشير الغرناطى إلى أن :"الصابئة تزعم أن هذه القبور – الأهرام – أحدهما قبر غاثمور، وهو عند شيث،والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة، وما يريدون علمه من الأمور المغيبة..."[٨٥]، كما يذكر البغدادى: "أنه كان يحج إليهما، ويهوى نحوهما من أقطار الأرض"[٨٦]، وأن الصابئة تحجهما من حران".[٨٧]

www.alkottob.com

وطاف الخيال الشعبى حول الأهرام فخلع عليها صفات استعارها من الأفكار الإسلامية والعربية عن الكعبة وكسوتها فيسوق الهمذانى رواية تقول: "ذكر الشريشى فى شرح المقامات: أن بين الجيزة والأهرام سبعة أميال.. وروى فى بعض أخبارها أن عليها مكتوب؛ بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد فى ستمائة سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وكنا نكسوها حريراً فاكسوها بعدنا حصراً..[٨٨] ، أضف لذلك ما لاحظه المؤرخون من أن الحج وصفات القداسة لم تقتصر على الأهرام فحسب بل حاز تمثال "أبو الهول" على قدر كبير من تلك الصفات القدسية وأعده البعض أحد أركان مناسك الحج إلى الأهرامات حيث كانت الصائبة "تحج إليه" وتقول: يا أبا الهول إليك قد حججنا...[٨٩] ، وفى مدينة حران وضواحيها بشمال سورية كان يعيش قوم يعبدون الكواكب يعرفون بالصابئة، وتنسب لهم ألوان من العلوم السحرية الخاصة بـ(الصفات السحرية) للنباتات والأحجار والمعادن، وكان الصابئة قد اشتهروا بالكثير من أفكار الفلسفة اليونانية، ولاسيما المحدثة منها[٩٠] وقوم من الصابئة سكنوا العراق، ولهم رسوم سحرية متميزة تشبه فى شكلها العام رجال الفضاء، ويعتقد الصابئة أن هناك عوالم أخرى يعيش بها بشر، وهى عوالم أكثر طهارة من عالمنا، وان البشر هناك يختلفون عنا كثيراً، ومن هنا كان اعتقادهم بأن الرب نقل بنات آدم من هذا العالم (الأرض) وجلب زوجات من عالم آخر لأولاد آدم [٩١].

وإذا كانت الأهرام قد ظلت قابعة فى غياهب الخرافة والأساطير.

فإنه بسقوط سلطان الرومان فى مصر، هوى "أبو الهول"[٩٢] فى غياهب الإهمال والنسيان، أما السافى أبداً أن الرمال التى لم تعد يكبحها أوامر الملوك فى الأساطير، فقد طفقت تغرقه شيئا فشيئا إلا على الرأس فوق سطح الأرض، الذى أصبح فريسة للعوامل الجوية والتعصب الدينى، ومع ذلك الإهمال والإعراض الذى كان فيه، فلقد ظل أبو الهول يمارس تأثيره الخلاب على عقول الذين ينظرون إليه، وحفظ لنا الكثير من التكهنات عن أصله وطبيعته فى كتابات المؤرخين المسلمين، فى حين صار اسمه الأصيل تعبيراً شائعاً يرادف اللغز فى كل أذهان العالم الوسيط والإسلامى تقريبا، حتى اعتبره كثير من الناس أنه يستحق الإعجاب والتقدير أكثر من الأهرام، إذ أنه يروع الإنسان بسكونه وصمته المهيب.

فهو يمثل رمزاً للحكمة الغامضة واليقظة الأبدية، وسماه قدماء المصريين (حو) بمعنى الحامى أو (حوريم أخت) بمعنى (حورس الأفق) . وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر.

وكان الأسد بالنسبة للمصريين القدماء، حارس بوابات الفجر . ويواجه (أبو الهول)، كرمز شمسى للإله (رع)، اتجاه الشرق، مستقبلاً الأشعة الأولى للشمس الساطعة فى أول أيام الربيع . وقد بنى – مثله فى ذلك مثل الأهرامات – وفق الاتجاهات الأصلية . ويعتقد أن كلمة (سفنكس) اشتقت من التعبير المصرى (شيسيب عنخ) بمعنى صورة حية .

والمدهش أن (أبو الهول) نحت من كتلة صخرية صلدة، برزت من

www.alkottob.com

رمال الصحراء فى هضبة الجيزة . وأقيم الجزء السفلى من جسده من كتل حجرية ضخمة، اقتلعت من منطقة قريبة . ويبلغ طول جسد أبو الهول ٢٤٠ قدماً، وارتفاعه ٦٦ قدماً، برأس إنسان عرضه ١٤ قدماً، ويرتدى غطاء الرأس التقليدى (نيمس) . وكان يرتدى – قبلاً – اللحية المستعارة التى يرتديها الملك، عثر على بقايا منها بين براثنه خلال القرن التاسع عشر الميلادى(٩٣)

وانتشرت تماثيل (أبو الهول) عبر التاريخ المصرى . وغالباً ما يصور الملك فى هيئة "ابو الهول" بينما هو يهزم أعدائه . وهناك طريق على جانبيه تماثيل أبو الهول برءوس كباش، يربط بين الأقصر والكرنك – حيث كان المفترض أن هذه التماثيل تتولى الحراسة أثناء نقل تمثال آمون خلال مهرجان (أوبت) السنوى . وخلال عصر الدولة القديمة عبد (أبو الهول) باعتباره رمز الملكية.وبنى (رعمسيس الثانى) منصة للقرابين من الجرانيت بين براثن الأسد .(٩٤)

وقد احتل الأسد مكانة متميزة فى الطقوس السحرية والمعتقدات الغيبية فى مصنفات السحر الشعبى واستخدم فى الطلاسم السحرية بزعم قدرته على تحقيق أغراض متنوعة . وفى مصنفات السحر الشعبى التى بين أيدينا اليوم نجد الكثير منها يورد وصفات مفصلة لأنواع من الطلاسم السحرية والتى يلعب فيها الأسد دوراً لا بأس به، بزعم أنها تحقق أغراضاً معينة .\ونذكر على سبيل المثال نموذج ورد فى غاية الحكيم ففى بعض الطلاسم ما يُزعم إنه لعلاج ألم الحصاة، ويكون بأن ينقش الطلسم فى صحيفة من ذهب على صورة أسد بين يديه حصاة وكأنه يلعب بها، ويكون العمل فى ساعة

وطالع معينين، فعلى قولهم أن الألم يزول لمن أمسك بالطلسم(٩٥)

ومن المعتقدات الشعبية التى كانت شائعة كذلك عند العرب أن من لطخ بدنه بشحم الأسد هربت منه السباع ولم ينله مكروه وقتل صوته التماسيح . وأنه إذا وضعت قطعة من جلد الأسد فى صندوق مع الثياب لم يصبها السوس، وأن ذنبه إذا استصحبه إنسان لاتؤثر فيه حيلة محتال . وقال هرمس: الجلوس على جلد الأسد يذهب البواسير والنقرس.وقال الطبرى: الاكتحال بمرارة الأسد يجلو البصر(٩٦)

ومن العادات الشعبية الشائعة منذ زمن طويل ندب النساء للرجال بقولهن على لسان(العدودة أو البكائية):

حطى سلاح السبع فوق الباب
لو حتى غايب يحسبوا لوا حساب
حطى سلاح السبع ع العتبة
لو حتى غايب يحسبوا حسبة
حطى سلاح السبع من قدام
لو حتى غايب يعرفوا لو مقام

فالعدودة تطلب من الزوجة المخاطبة بهذا القول أن تضع السلاح الخاص بالسبع الغائب علامة على باب بيتها، وفوق عتبة البيت، وعلى واجهة البيت، والعلامة المقترحة هى سلاح السبع، والسبع المعنى هنا هو الزوج، وسوف نلاحظ أن أكثر الحيوانات التى تتخذ مثالاً للرجل هى (السبع) فتندب المرأة زوجها بقولها :"مكنش يومك يا سبعى" .

وهذه باكية تذكر شجاعة فقيدها الذى يشبه السبع، والذى خلا الجو من بعده للطامعين فتقول(٩٧) :"

www.alkottob.com

كان لنا سبع تهيبه السبوعه ×× والسبع مات واحنا تاكلنا الضبوعة

كان لنا سبع تهيبه الناس ×× والسبع مات واحنا صبحنا بلاش

أما السبع فالمقصود به الأسد وهو أكثر الحيوانات حرمة، وأقدرها على حماية عرينه وأشباله، وأوفرها قوة، ولا شك أن الأسد يضرب به المثل فى القدرة على البطش[٩٨] . لذلك تطلق الزوجة على زوجها لفظ السبع لتوفيره الحماية لها، وافتخار بما كان يتصف به زوجها من الشجاعة التى عرفت عن الأسود . ومن هنا كان احتفاء الموروث الشعبى بـ(أبى الهول) كطلسم على صورة أسد له دلالة سحرية لحماية مصر من الأخطار . وربما يتسنى لنا إيجاد علاقة بين هذه الأفكار مع ما كان يعتقده البابليون والآشوريون من أنهم عرضة لأذى الجن المزعجين، فكانوا يعملون على مطاردتها بإقامة أسود منحوتة فى خارج القصور والبيوت[٩٩] ، وهو التقليد ذاته الذى نجد له بقايا فى كثير من الفنون الشعبية، ولا سيما فنوننا ويؤيد هذا الرأى تلك الرسوم التى نجدها فى مصنفات السحر الشعبى المنتشرة بيننا اليوم، والتى تستخدم صورة الأسد فى العديد من الطلاسم لشفاء الأمراض أو دفع الأذى أو عمل التعزيمات والأحجبة الحافظة، كما نجد صور الأسد على جدران وأعتاب بعض منازل وقصور مصر التاريخية كما نجدها أيضاً على أبواب المنازل وتستعمل فى مقابض أبواب البيوت والبوابات الحديثة البناء إذ نجد صوراً للأسود أو رؤوسها على الأبواب وواجهات المنازل ربما لحماية البيت من الأعداء والأرواح الشريرة ودفع أذى العين الشريرة والحاسدة.

الأمر الذى يؤكد أن هذا الاستمرار يدل على أن تلك الفنون الشعبية سجل يجمع نواحى متفرقة من تاريخ البشر فى عهوده المختلفة، وأن بعض العادات أو القصص أو الفنون الشعبية تقص علينا أحياناً جوانب من عادات وطقوس مجتمعات عاشت منذ فجر الإنسانية، وأن تلك الطقوس القديمة التى امتزج فيها الدين بالسحر وخيال الرجل البدائى بالخرافات التى يحيط نفسه بها، جعلته رغم غرابتها وبعدها عن المنطق يكتسب صفات المثابرة والجلد والحذق والمهارات المختلفة، فلعل خشيته بأس الأرواح الشريرة والشياطين وحذره ومحاولته اتقاء شرها وبطشها ومكرها، جعلته يتطلع دائماً إلى الوصول إلى نوع من القوى السحرية التى تبطل أضرار تلك الأرواح التى يخشاها .وهو أمر يمكن أن نتلمس بصيص منه فى كتابات المؤرخين والرحالة فى سياق تفسيراتهم لوجود (أبو الهول) ووظيفته فى حياة مصر القديمة . لا سيما وأن المخيلة العلمية آنذاك لم تكن تختلف كثيراً عن المخيلة الشعبية .

وأفاضت المصادر التاريخية فى الحديث عن تمثال أبى الهول، فوصفته وتحدثت عن اسمه وأشارت إلى دورة ووظيفته فى حياة مصر والمصريين، ولقد أورد "السبتى" من أخباره: "بمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، غير أنه غاية فى الكبر، قد قام كالصومعة العظيمة ووجه هذا الرأس مقابل الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل ويدعوه أهل مصر بأبى الأهوال.. ويزعمون أنه طلسم للرياح، وأنه لو ذهب لأتلف ريح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد منه، وبما

www.alkottob.com

مر عليه من الدهور والعصور(٩٩).

أما القزوينى فقد كانت روايته مختلفة فيما يتعلق بوظيفة "أبى الهول" فقال:" ومن عجائب مصر أبو الهول، وهو صورة آدمى عظيمة مصنعة، وقد غطى الرمل أكثره. يقال: أنه طلسم للرمل لئلا يغلب على كورة الجيزة، فإن الرمال هناك كثيرة شمالية متكاثفة، فإذا انتهت إليها لا تتعداه، والمرتفع من الرمل رأسه وكتفاه. وهو عظيم جداً، وصورته مليحة كأن الصانع فرغ منه.. وهو مصبوغ بالحمرة.."(١٠١)

وتحت عنوان "ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول" يقول المقريزى فى خططه:" هذا الصنم بين الهرمين عرف أولاَ ببلهيب، وتقول أهل مصر اليوم – سنة ٧٨٠هـ تقريبا– أبو الهول .. ويقال أن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل.."(١٠٢)

ويورد المقريزى من أخبار ما كان يعرف بـ" سرية أبى الهول" فيقول: "ويقابله –يعنى أبا الهول– فى بر مصر، قريبا من دار الملك، صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، وفى حجره مولود – وعلى رأسه ماجور الجميع صوان مانع، يزعم الناس أنها امرأة، وأنها سرية أبى الهول المذكور، وهى بدرب منسوب إليها، ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط ومد إلى سريته لكان على رأسها مستقيما، ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل عن النيل، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر"(١٠٣) .

وسلكت بعض الروايات مسلكا مخالفا للروايات السابقة فتقول:" ويقال أن هذا الرأس – أبو الهول– كان فى الزمن الماضى يكلم

القادمين والرائحين، من الزوار، وقد جعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر، أو ظهور قحط أو غلاء ونزول الأمطار وامتناعها، ومقدار فيضان النيل أو عدم فيضانه، أو موت أحد أو حياته، أو بالاختصار كان يخبر عن المغيبات الخمسة"(١٠٤) ، وهى الرواية التى رفضها المقدسى وعدَّها من المزاعم الباطلة بقوله "وثم صنم –أبو الهول– يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه، حتى كسر أنفه وشفتاه.."(١٠٥) ، ويبدو أن تلك الفكرة كانت شائعة عند العديد من الشعوب ففى حضارة سومر كانت بعض التماثيل توضع كبديل للعابد نفسه فى معبد الآلهة التى يسعى إلى تكريمها، وتدل النقوش الموجودة على بعضها أن الغرض من هذه التماثيل العمل على إطالة حياة من تمثله، إلى جانب طلب العون من الآلهة . والتمثال بهذا كان بديلاً سحرياً لصاحبه، يكتسب من بعده حياة مستقلة، وهذه الحياة المستقلة التى يكتسبها التمثال البديل كانت تتأتى عن طريق شعائر فتح الفم التى كانت منتشرة منذ عهد الأسرة الفرعونية الأولى فى مصر حيث مزجوا النظرة المثيولوجية عن الكون بالحركة السحرية للقوى التى أعطته الحياة . فكانت التماثيل تصبح من الأحياء، إذا ما تلا الكاهن الصيغة المناسبة وقام بالحركات اللازمة للطقس السحرى، أما فى سومر فقد كانت التماثيل تمر بطقوس معقدة وبالغة السرية حتى تتحول المادة الجامدة للتمثال إلى وعاء يستقبل الحضرة الإلهية، حيث كان يعتقد أن الإله ينفخ شيئاً من روحه فى التمثال، فيتحول من جسم جامد إلى هيكل حى، ومن هنا كانت التماثيل توهب الحياة، وتفتح عيونها وأفواهها حتى تتمكن

www.alkottob.com

من الرؤية ومن تناول الطعام أثناء الوليمة المرتبطة بالشعائر(١٠٦)

هكذا، نلحظ أن الروايات حول آثار مصر القديمة كانت تسير فى خط صاعد، فيما بين كتابات المؤرخين، مما أدى إلى تراكم رصيد ضخم من الأساطير والخرافات التى راجت حول حضارة مصر القديمة، فى محاولة لفك رموزها والوقوف على أسرارها، كما تكشف عن النظرة الإيجابية إلى آثار القدماء المصريين، والتى رآها الوجدان الشعبى أنها تقوم بدور هام فى حياة الناس، وأن لكل منها دور ووظيفة فى الحفاظ على خيرات مصر وأمن وسلامة أهلها.

كتابات الرحالة والمؤرخين بما حملته من (موروث شعبى) حول آثار مصر تؤكد أنه لم ينظر إلى تلك الآثار على أنها أوثان أو مظاهر للكفر والوثنية يجب تحطيمها أو إزالتها إلا فى حالات نادرة وشاذة تؤكد على القاعدة، وهى أن مصر، واسطة العقد بوسطيتها. يدل على ذلك الروايات التى أوردها المؤرخون عما لحق بوجه أبى الهول من تشويه، وما كان من أمر تحطيم أنفه، وسط بحر لجى من الأساطير التى أحاطت بما ترتب على ذلك التشويه من آثار ضارة لحقت بأرض مصر فيقول أحد المؤرخين: "وفى زماننا –٧٨٠هـ– كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية، سعيد السعداء، قام فى نحو سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات، وسار إلى الأهرام، وشوه وجه أبى الهول، وشعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلب الرمل على أرضى كثيرة من الجيزة، وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول ولله عاقبة الأمور..(١٠٧)

ومن بوابات الأسطورة دخلت بعض الروايات لتفسير تشويه وجه أبى الهول فتقول: " لما بلغ ذلك موسى (ذهب إليه – أبو الهول– وقال له: إنك قادر على التحدث فيجب عليك أن تؤمن بى أنا رسول الله الحق، فقال له أبو الهول إنى أومن بإدريس (ولا أُؤمن لغيره، فغضب موسى وكان عاتياً، وضرب أبا الهول بعصاه، وثلمه عدة ثلمات، وخدش فمه وأنفه وقال:" اسكت يا ملعون"، وانصرف ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول، ولم يعد يتكلم. ولا تزال آثار عمل موسى باقية على رأسه، ولم تزل عيناه مخدوشتين، ومع ذلك فهو صنع إنسان بديع، وأثر عجيب"(١٠٨).

ما يهمنا فى تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبى بقصص الأنبياء التى لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك القصص التى حفظتها لنا الكتابات التاريخية، خاصة ما يتعلق بالمعجزات الموسوية العديدة التى ينسبها رواة التراث لموسى عليه السلام والتى نجد إشارات لها فى القرآن الكريم أو مدونات التوراة، ، وهى من عادات التراث الشعبى. كعصا موسى التى أبطلت سحر سحرة الفراعنة مجتمعين وقضيت عليه تماماً وجاء فى المثل الشعبى "اضرب عصاتك واجرى وراها " والعصا التى تسير لا ريب عصا سحرية وهى فكرة شائعة فى الآداب الشعبية بل إن للعصا أحياناً منفعة سحرية ومن بين اللغات البدائية التى جمعت بين صفات الكتابة وصفات الزخارف المتكررة عصا المراسلة التى كانت منتشرة فى جهات كثيرة من العالم، وظلت قائمة إلى عهد قريب فى السويد والنرويج، وكانت الرسائل المراد

www.alkottob.com

تسجيلها على العصا تكتب على شكل حروف وجمل على شكل خطوط متقاطعة أو متعرجة تحفر على ساق العصا نفسها كأنها نقشات زخرفية، وفى غالبية الأمر لم يكن لحامل الرسالة من جهة أخرى أى دراية بمضمونها غير أن عصا الرسائل أو المراسلات اتخذت أيضاً فى بعض الأحيان صبغة سحرية (١٠٩) .

وهى تذكرنا بعصا الساحر التى من شأنها أن تحقق المعجزات كعصا موسى عليه السلام التى افترش الحديث عنها مصنفات السحر الشعبى كقول صاحب شمس المعارف الكبرى تحت فصل بعنوان (فصل أذكر فيه الأسماء التى كانت على عصا موسى عليه السلام) «وبها كان يفعل الغرائب إذا كتبها فى شرف الشمس أو شرف المشترى بماء المرسين وماء أبحيق النهرى وماء كزبرة البئر وماء الحلاف وماء الورد البصير والزعفران الشعر فى رق غزال ويبخر وقت الكتابة برائحة أريجة وتجوف العصاة وتجعل الأسماء فيها وتختم عليها بشمع فرح بنت بكر، فإن كنت فى مكان مخيف وظهر عليك اللصوص وقطاع الطرق أو ظهر عليك شيء من الوحوش الضارية المؤذية فاضرب بالعصا الأرض ٣ مرات وقل اللهم إنى أسألك ببركة هذه الأسماء العظيمة التى كانت على عصا موسى بن عمران عليه السلام وضرب بها البحر فانفلق وكان كل فرد كالطود العظيم أن تحبس عنَّا ما هو كذا أو تذكر ما تريد من توقيف رجال وتوقيف سباع وتقول فى أثناء كلامك وقفوهم إنهم مسئولون، فإنهم يقفون بإذن الله تعالى (١١٠).

كما نجد كيف اختلق" الوجدان الشعبى" العديد من التفاصيل

فيما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسى (التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم حيث أورد لنا أخباراً ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلا فيما بين المؤرخين والرحالة، والتى جاءت فى سياق الموروث الشعبى الذى جمعه لنا هؤلاء المؤرخين. وتكشف لنا عن جوانب أُخرى للقراءة الشعبية لسِّير الأنبياء حيث يتفاعل فيها الواقع بالحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلى للجماعة الشعبية لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم.

وربما حمل هذا النوع من القصص الشعبى المتعلق بآثار الحضارة المصرية، رسالة تحذير لمن يتجرأ ويتطاول على حرمة الآثار وانتهاك قدسيتها، وتؤكد على نبذ الناس فى مصر لكل الأفكار الشاذة، نلحظ ذلك فى سياق عرض بعض الروايات لأسباب تهشم وجه " أبو الهول" فيقول: " كان فى خانقاة الصلاحى صوفى متعصب يدعى محمداً – محمد صائم الدهر– وكان يقول بحرمة صور الحيوانات. وفى سنة ٧٨١هـ، تصدى هذا الصوفى لتهشيم فم أبى الهول وأنفه أكثر مما هشما بيد موسى (، وأقدم على هذا العمل دون أن يحصل على إذن بذلك من حاكم ذلك الوقت، وبينما هو يحاول ذلك هبت ريح عاتية بحكمة الله على مدينة الجيزة فحالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق إلى القاهرة حيث غرقت فى الرمال، فقبض الحاكم على محمد الذكور وقطعه إرباً إرباً، وأمر بدفنه بجانب أبى الهول، ولا يزال زوار أبى الهول يرجمون قبر ذلك الصوفى المنحرف.."(١١١)

ولعل ما أقدم عليه محمد صائم الدهر من تشويه لأنف أبى الهول

www.alkottob.com

نجد له مناجاة للطقوس الفرعونية القديمة حيث تعمد الفنان فيها إظهار أجسام بعض الآدميين دون رءوس أو بعض أنواع الطيور من البط أو الأوز ورءوسها مقطوعة، أو نراه يصور أنواعاً من الحيوان وقد شطرت أجسامها شطرين، أو رشق فيها عدد من الخناجر أو السكاكين، وكان الهدف من وراء هذا التشويه المتعمد إيقاف الأثر السحرى لهذه الحيوانات أو الطيور أو التنكيل بصور بعض الأعداء بغية أصابتها بالأذى نفسه الذى أصاب رسومها ويبدو أن هذا، النوع من الرموز السحرية وخدشها الذى استخدم فى العصر الفرعونى ظل عالقاً فى أذهان كثير من الشعبيين حتى يومنا هذا فنصادف فى بعض كتب التنجيم الشعبية عن قراءة الفأل فى فنجان القهوة تفسيراً للأشكال التى تظهر فيه، مثل رؤية امرأة ناقصة رجلاً أو يداً أو رأساً، فظهورها فى الجهة الرائقة من الفنجان يدل على الفراق، أو على جنازة ليست لقريب صاحب الطالع (١١٢) .

ولعلنا نجد أن من بين الطقوس السحرية التى زاولها المصريون القدامى فى أثناء بنائهم المعابد والتماثيل نراهم يضعون فى الأساسات علامات فى الزوايا الهامة، وتأتى هذه العلامات أحياناً على هيئة خدوش، ويمكن أن يقال أيضاً إن طقوس الفديات كانت تقدم من التماثيل الحجرية كما لو كانت تذبح ويمكن أن يقال إن استئصال أعلى المعابد القديمة وتشويهها ودفنها فى الأساسات الحديثة كان يحمل معنى النحر والدية، كان المعبد نبات أو إنسان يقتل ليبعث من جديد .

وهناك تقليد كان يقوم على تشويه ومحو معالم بعض النقوش

والرسوم المنحوتة على جدران المعابد، فكانت تنقر النقوش بآلة حادة بشكل منتظم، فتزيل النقش تماماً أو تشوهه مع ترك معالم طفيفة له، وقيل إن الغرض من هذا التشويه المتعمد هو حقد بعض الملوك على أسلافهم ورغبتهم فى التنكيل بصورهم حتى يصابوا فى حياتهم الأخرى بالأذى نفسه الموجه لصورهم (وهو ما سوف نلحظه فى سياق الحديث عن معبد الملكة دلوكة فى إخميم) .

ومن الآراء ما يرى فى هذا التقليد محاولة لإثبات أن الأثر السحرى لتلك النقوش والتماثيل قد انتهى، أو أن وقتها انقضى، فإزالتها أو تشويهها قد يفسر بإنه إبطال أثرها السحرى . وربما أمكن تفسير هذا التشويه بأنه نوع من القرابين حكمها كحكم التماثيل التى تحرق وتفتت أو المعابد التى تدفن فى أساسات معابد أخرى مستحدثة(١١٣) . وعلى كل فلقد ظلت فكرة تشويه الصور أو التماثيل فى كثير من الطقوس الشعبية ذات الطابع السحرى التى تهدف إلى التنكيل بأصحاب تلك الصور أو التماثيل وربما كانت تلك الفكرة تلح على الذهن الشعبى المصرى آنذاك فى ربطه بين هبوب الرياح على الجيزة وبين تهشيم وجه أبو الهول .

أما المعابد المصرية القديمة، فقد كانت معلما بارزا من معالم الحضارة المصرية القديمة، وقد أثارت اهتمام المؤرخين والرحالة المسلمين،فأفاضوا فى الحديث عنها، وكانوا يعرفونها بـ" البرابى(١١٤) ويقول المقريزى فى أصل برابى مصر أنها :" تنسب إلى براب بن الدر مسيل ابن نخويل بن خنوخ بن فار بن آدم(١١٥)

وكعادة العرب فى اهتمامهم بالأنساب وإرجاعهم كل شىء إلى

www.alkottob.com

جد أسطورى أعلى، فأرجعوا الاسم إلى "براب" هذا، وكأنها عرفت به ونسبت إليه وهو تعليل وتفسير وجدنا أمثاله _فيما سبق _من الحديث عن أصل الاسم "مصر".

وعرفها القزوينى بقوله: " البربا عبارة عن بيت عمل فيه شجر أو طلسم..(١١٦) ورآها البعض أنها: "من أبنية مصر القديمة.. وهى بيوت حكماء القبط ويقال أنه كان بكل كورة من كور مصر بربا، يجلس بها كاهن على كرسى للتعليم.."(١١٧) ووصفها البعض الأخر على أنها:" مخزن لذخائر القوم الذين قضوا من أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرنين.."(١١٨) وأضاف المقريزى أن:" بمصر أبنية يقال لها البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة، وهى على أشكال مختلفة.. عملت لصناعة الكيمياء"(١١٩) .

بربا إخميم كان من أشهر البرابى التى ذكرتها المصادر التاريخية إذ أنه" من الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا، هيكل عظيم شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها –يقصد إخميم–، طوله مئتا ذراع وعشرون ذرعا وسعته مئة وستون ذراعا، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربة، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم.. قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويأتى فى صُمَّ الحجارة من ذلك ما لا يأتى فى الرخو من الخشب، فيحسب الناظر له استعظاماً له، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزينه، لضاق عنه. فسبحان الموجد للعجائب.. وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف، ولا ينتهى إليها الحد..(١٢٠)

هكذا، ظلت البرابى المصرية لها سحرها الخاص، ورهبتها فى النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض البرابى شهرة تاريخية واكتسبت قدسية لدى الخيال الشعبى الذى تدخل كثيرا برواياته المشبعة بالخيال ليغير ما يراه من حقائق، أو يقدم تفسيرا لما قد غمض عليه فهمه حول أسباب إنشاء البرابى ووظيفتها فى المجتمع المصرى.

يقول ابن عبد الحكم: " لجأت إحدى ملكات مصر، وهى دلوكة(١٢١) إلى عجوز ساحرة، كانت السحرة تعظمها، ويستشيرها فرعون فى كثير من الأمور قبل غرقه..فقالت لها دلوكة: احتجنا إليك فى شىء تصنعينه يكون حرزا لبلادنا ممن يرومه من الملوك، إذ بقينا بغير رجال، فأجابتها إلى ما أرادت وصنعت لها بربا، وهو بيت له أربعة أبواب إلى أربع جهات..وقالت: قد عملت لك شيئا يغنيك عن الرجال والسلاح والحصن، فإن أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير، وإن من أتاكم من البحر يكون فى السفن، فعند ذلك تحركت الصور التى هى مثلهم وتشاكلهم فما فعلتم بالصور أصابهم مثل ذلك فى أنفسهم.."(١٢٢). وربما فكرة ارتباط الصورة بأكملها، أو جزء منها، تخضع لأعمال السحر إيماناً بأن ما يحدث للصورة سوف يحدث نظيره للشخص صاحب الصورة، وفى إطار ذلك ظهرت الشخوص (أو التمائم) السحرية التى استخدمت فى أغراض عديدة ولهذا جاءت وصايا أصحاب المصنفات السحرية لتؤكد على ضرورة الاهتمام بالتصوير فى الأعمال السحرية، فقال ذو مقراط :"وأحسنوا التصوير فى الطلاسم المصورة فى الأعمال،

www.alkottob.com

فيكون مناسباً للعمل المطلوب".وقال دمرغاش فى منظومته :"وأحكموا التصوير فى الأعمال، لتبلغوا المقصود والآمال ".وقال صاحب المنثور:"البشر جامع لكل البشر، والجن جامع لكل جن، والأملاك جامع لكل ملك، والحيوان جامع لكل حيوان "١٢٣ وعلى جانب آخر نجد أن صورة العجوز (دلوكة) لها رديفاً فى حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة فى الليالى والتى دارت بسببها، وبسبب حيلًها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالى، فهى شواهى بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها فى الكيد السياسى، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك فى سبيل الانتقام السياسى، وفى الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش؛ فهى عند المسلمين الناسك الذى يدبر لهم خطة السير، وهى عند النصارى العجوز التى توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حيًل، وهى ربما كانت العجوز (دلوكة) فى الكتابات التاريخية قد استمدها الراوى من خياله ولكنه صبغها بواقعة كثيرا. ارجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين(١٢٤).

وهذه الرواية وغيرها عن صورة المرأة العجوز توضح لنا كيف أن الموروث الشعبى – برغم قدرته على البقاء والصمود – فإن الكثير من عناصره تتغير وتتبدل كعمل أدبى شعبى يرتبط أكثر ما يرتبط بالروح العامة للشعب . أما التفاصيل فهناك بدائل وإضافات عديدة تتراكم وتتراكب لتؤلف المخزون الضخم الذى يميز ذاكرة الشعب، وهو يختلف من جماعة لأخرى ومن عصر لآخر . فالموروث قابل

للإضافة والحذف والتشكيل وإعادة التشكيل، وهو الأمر الذى نراه عادة عند بعض الرواة عندما يعمد إلى أن يضيف إلى الموروث الشعبى (مادة جديدة) تنعش دماءه . والذاكرة الشعبية مكتظة هى الأخرى بالصور الخيالية الغريبة والمثيرة عن (المرأة العجوز أو الساحرة المكارة) وهى صورة أكثر شعبية ظهرت لكى تلائم بعض الممارسات التى تتكرر فى السحر الشعبى بقصد دفع أذى العين الحاسدة، وقد ذكرها المؤرخ السيوطى فى كتابه (الرحمة فى الطب والحكمة) تحت اسم (أم الصبيان)، فهى عنده الساحره المكارة التى: "خربت القصور، وعمرت القبور، ويتمت الأطفال بعينها الردية، الخاينة المؤذية، قابلها سيدنا سليمان صلوات الله عليه وعلى نبينا أتم السلام، وفى واسع البرية ...على حجرها ولد وفى يدها حربتين، تعوى عوى الذئاب، وتصهل صهيل الخيل فى ظلام الليل، قال لها خزيتى من الله عميتى يا كلبة يا لعينة، ...إيناس إيناس، ما فيك يا عين منافع للناس، وأحطك يا عين فى قمقم نحاس، وأسبك عليك يا عين بالزيبق والرصاص، وأرميك يا عين فى بحر غطاس .." (١٢٥) وتمضى القصة الشعبية فى شكلها التقليدى بأن يأخذ عليها النبى سليمان العهد والميثاق بألا تفعل ذلك .

والنص الذى ذكره السيوطى نجده يتشابه فى إطاره العام ومضمونه مع ما ورد بالرقى الشعبية فى مصر حتى اليوم والتى تستدعى فيها الرموز والدلالات التى تتحدث عن أم الصبيان (خرابة الدور العامرة وفتاشة القبور الضلمة) كما يظهر لنا دلالات العدد سبعة والموروث الشعبى المحمل بإرث طويل عن الحسد وأخطار العين

www.alkottob.com

الشريرة.وقد ترك لنا (الباحث إبراهيم سلامة) أحد نصوص الرقية من قرية (عرب الشيخ يوسف – الرحمانية – مركز أبو كبير – بمحافظة الشرقية – مصر) والتى تؤديها (الحاجة مبروكة ٧٠ عام) التى تقول فى رقيتها(١٢٦) :

إيد الله قبل إيدى××رب المشارق ورب المغارب

ولا يغلب الله غالب ×× رقيتك واسترقيتك

من عين أمك ومن عين أبوكِ....من عين كل اللى شافوكِ ولاصلوش على النبى

الأوله بسم الله ××والتانية بسم الله

والتالته بسم الله ××والرابعة بسم الله

والخامسة بسم الله ××والسادسة بسم الله

والسابعة بسم الله

والتامنه بسم الله..تتفرق على قوم خلق الله....أنا بارقيك من فوق شافيك(شافيكِ)

ملوك السموات والأراضين تشفع فيك(فيكِ)....من عين أمك ومن عين أبوك

ومن عين القوم اللى شافوكِ ولاصلوش على النبى

ياعين يا عينية ××يا خاينة يا ردية....سايقه عليكِ الكعبة النبويه

خدى شرك وبلاكِ ××وروحى للى اشتهاكِ...الله أكبر عليهم ×× عينهم ترتد ليهم

فى كعوب رجليهم ×× ومن اتطلع لك بالشين...تعمى له عنيه الاتنين ××ومن اتطلع لك بالرديه

تعمى وتقصر له المنيه ..ببركة الله والكعبة النبوية

وشيوخ الله المسميه××ودروب الله المشيه..وبيوت الله المبنيه×× ورجال الله المسميه

وكعبة الله النبوية ××ولا غالب إلا الله الغالب...الملح والصوان فى عيون النسوان والرجال

الملح الفاسد ××فى عين عدوى العاذل

الملح والدقيق ××فى عين العدو والصديق..ازاى احتار يا ملح يا سلطان ××وتساعدنى فى الدار

أطلع من [وتذكر اسم المريض واسم امه]...ورجع له [لها] راحة البال...ببركة النبى عليه الصلاة والسلام

الله أكبر عليهم ××عنيهم فى كعوب رجليهم...أخصى عليهم ××عنت الله وربى عليهم

ومصارين تقيد رجليهم×× غشا تغشى عنيهم...يا كافى كل كفيه ×× يا عالم بيهم وبياوبكل الخلق سويه

اطلع من [وتذكر اسم المريض أو المريضه [العين الرديه

كما طلعت صفيه (ذكرت مثالاً على طلوع عين الحسود من المريضه عين صفيه من فاطنه النبويه)

من فاطنه النبويه ××بعزايم الله القويه×× ودروب الله المشيه

ورجال الله المسميه ×× الله أكبر عليهم ××عنيهم فى كعوب رجليهم

إن كان من مره ×× فى عنيها شرشره... وإن كان من بنت ×× فى عنيها بشت

www.alkottob.com

وإن كان من ولد ×× فى عنيه وتد..وإن كان من راجل ××فى عنيه حد من المناجل

وإن كان من الضيف ×× فى عنيه حد من السيف...وإن كان من عجوز ××فى عنيه حربه ببوز

وإن كان من نصارى×× يفكها رب البصارى...وإن كان من مسلمين ××يفكها رب العالمين

وإن كان من الله ×× يحمد العبد الله...الله أكبر عليهم ×× عنيهم فى كعوب رجليهم

إخصى عليهم ×× عنيهم فى كعوب رجليهم....اطلعى يا عين بره ×× اطلعى يا عين بره

يا خرابة الدور العامره ×× يا فتاشة القبور الضلمه...الله أكبر عليهم ××الضيف محمد ×× والطبيخ عدس

والمره جيده ×× والراجل نحس....بحق من أفرط القمر وأنزل الشمس يفك عنك[.....]

ولعلنا ندهش حين نعرف أنه فى العصور الفرعونية أمكن رصد ظاهرتين أساسيتين للسحر عند المصريين القدماء، الأولى كانت القوة المطلقة الخلاقة للكلمة أو الصوت، فالاسم كان جزءاً أساسياً من الشخص، أى أن الاسم كان عندهم كائناً حياً، وكان يكفى معرفة اسم شخص ما حتى يمكن السيطرة عليه بأن تلقى عليه تعويذة فيقع له ضرر أو يموت، وكانت عادة تشويه أسماء الأعداء بعد موتهم نوعاً من الأخذ بالثأر، وبهذه الطريقة تم تشويه أسماء حتشبسوت وإخناتون . وكان النطق باسم إله يأتى به فى حضرة الإنسان .

والظاهرة الثانية فى السحر المصرى كانت القوة الخلاقة للتمثال، فكان صنع تمثال أو عمل صورة لرجل، ينقل إلى ذلك التمثال جزءاً من الشخصية الروحية لذلك الرجل . واستعمل هذا المبدأ فى أغراض عدة منها ما كان لدرء الخطر بتحطيم تمثال العدو .واستعملت التماثيل فيما يعرف بالسحر الوقائى، فكان تمثال الرجل يوضع فى مكان عام بعد تغطية جسمه بالرموز السحرية المضادة للأفاعى والتماسيح والعقارب، وكان يكفى أن يُصَب قليل من الماء فوق هذا التمثال، وأن يشرب سائل مشبع بالقوى السحرية، حتى يقى صاحب التمثال من الخطر، واستخدمت الأم المصرية القديمة التمائم لتيسير الرضاعة إذا شعرت بجفاف لبنها . وكانت بعض تلك التمائم من المعدن أو الخزف مصورة على هيئة المعبودة إيزيس وهى ترضع طفلها الوحيد، أو كانت على هيئة ثدى – وهو تشخيص رمزى – لتعلق على الصدر واستعملت التماثيل الصغيرة فى شكل تمائم لحماية الدولة ومليكها ومعابدها، وكان يكتب على هذه التماثيل أسماء الأمم أو أسماء رؤساء القبائل التى يرهب جانبها، وكانت تقطع أوصال هذه التماثيل أو توطأ تحت الأقدام أو تحرق أو تدفن تجنباً لضرر من تمثلهم هذه التماثيل (١٢٧) كما استفاد أصحاب المصنفات الشعبية التى قدمت وصفات طبية شعبية أو وصفات سحرية لعلاج الأمراض أو لجلب المحبة بين الأزواج استخدموا فى وصفاتهم السحرية العديد من الصور التى وجدوها على جدران المعابد المصرية القديمة وأهرامات مصر الأمر الذى ينم عن أن تلك الآثار وما أحاط بها من رهبة وغموض كانت ملهمة للقريحة الشعبية

www.alkottob.com

التى وجدتها سنداً يدل على مصداقية ما ترويه من وصفات وهو ما يعكس إلى أى مدى كانت لتلك الآثار قيمتها النفسية وفاعليتها السحرية على الذهنية الشعبية آنذاك وهو ما نلمسه عند المجريطى فى كتابه الطبى الشعبى (غاية الحكيم) عند حديثه عن وصفات لجلب الحبيب وتقوية العلاقة بين الأزواج نجده بعد شرح مقتضب للطلسم المراد العمل به يقول فى بعضها :"وقد جُرب مأخوذ من البرابى(١٢٨) وذلك للتدليل على مصداقية ما يقول كما استخدم العديد من الصور التى تتشابه فى حد كبير مع الرسوم الجدارية بالمعابد المصرية القديمة من حيوانات وأشكال تتقارب مع صور (أبو الهول) وغيرها من الرسوم المصرية القديمة .

ولم تكن تلك الأفكار المرتبطة بسحرية الصور والزخارف غريبة عن الأفكار التى سادت المنطقة آنذاك إذ نقرأ فى أساطيرنا وقصصنا الشعبى عن الثياب والستور المسحورة المطلسمة التى نسجت عليها زخارف ونقوش من شأنها إكساب لابسها بعض المميزات الخارقة إذ نجد فقرة فى سيرة فيروز شاه (وهى إحدى القصص الشعبية المسلسلة الذائع انتشارها) :"ثم أخذته إلى صندوق من الحديد ففتحته وأخرجت منه ثوباً مزركشاً بالفضة وقفطاناً منقوشاً بالنقوش الرفيعة وبطلاسم لا يحسن قراءتها إلا كل ساحر، ومصور عليه من الصور أشكال كصور النسر والغراب والباشق وكبار الطيور، وكالأسد والفيل وكبار الحيوانات، وصور مردة من الجان وشياطين وغير ذلك، مما يبهج النظر ويخيف القلب، فقال لها :لم هذه الثياب ؟ قالت: إذا لبسها الإنسان يأمن كل سحر،

ولا تصيبه عين، فهى منيعة ولابسها يأمن كل غائلة وهذه أعجب ما صنعت "(١٢٩)

تدلنا الرواية على الجانب الاعتقادى الذى ارتبط بآثار مصر وبالبرابى والتى شاعت بين الناس، بأن فيها من الأسرار والطلاسم والكنوز ما يمكن أن يكشف عنه الإنسان ويستفيد منها إذا عرف الوسيلة إلى ذلك، كما يكشف عن النظرة التى إلى وجود أسرار خفية وأن لكل أثر أو حجر دور ووظيفة يؤديها فى حياة الشعب المصرى لدرجة أن السيوطى يقول عنها:" ويقال أنه كان فيها – بربا إخميم– جميع ما يحدث فى الزمان حتى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه كان مصوراً فيها راكبا على ناقة..(١٣٠)

وفى الحياة الشعبية نرى رواسب ومتبقيات من هذه المعتقدات لا تزال قائمة وتتردد كثيراً فى مصنفات السحر الشعبى بأساليب وطقوس متنوعة، فتصنع من رسوم الحيوان طلاسم لتحقيق أعراض مثل صيد السمك، أو نفى العقرب، أو الحدأة، إلى غير ذلك، وهم يقصدون ساعة معينة طالعاً بذاته عند عمل هذه الطلاسم، فعلى زعمهم أن ذلك يجعل الأثر قوى وفى الحكايات الشعبية ظهرت النصب المطلسمة التى تعقد عندها الرياح العاتية، ومن ذلك ما جاء فى حكاية ذى القرنين، حين عبر بجيشه بحر الظلمات وما ذكر عن النصب الذى أقامه فرعون مصر، فأباد جميع اليهود الذين حاولوا العودة بعد طردهم، حيث صعقهم الصنم المحصن بالأسماء المطلسمة (١٣١)

أما المقريزى فقد أورد أن الهدف من بناء البرابى هو رغبة الملك

www.alkottob.com

الذى: " يقال أن اسمه دومريا، وأنه جعل هذه البربا مثلاً للأمم الآتية بعده، وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاخرهم التى يفتخرون بها، وصور فيها الأنبياء والحكماء وكتب فيها من يأتى من الملوك إلى آخر الدهر"(١٣٢)

عجائب بربا إخميم ورد عنها العديد من الحكايات التى نسجتها الذهنية الشعبية، والتى أضفت على تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة قدراً من الحيوية، وبالطبع لم تكن أسرار العصر القديم قد تكشفت بعد.لذلك كانت مرتعا خصباً للخرافات والأساطير التى دارت حول عجائب تلك الآثار. منها ما رواه ابن محشرة فى قوله:" رأيت فى بربى إخميم صورة عقرب، فألصقت عليها شمعا فلم أتركها فى موضع إلا أن انحاشت العقارب إليها من كل موضع وإن كانت فى تابوت اجتمعت حول التابوت"(١٣٣) وربما تشابهت تلك الفكرة عن طرد العقارب مع فكرة الأحراز السحرية والوصفات الشعبية التى استخدمت فى أزمنة الفراعنةالتى استخدمت دهن القط لتهجير الفئران (١٣٤) كما تتشابه مع الوصفات الشعبية التى يستخدمها أصحاب الخيول العربية لطرد العقارب من مرابط الخيول فيقول:" إذا أخذت عقرباً وقتلتها فاحرقتها بالنار، فإن جميع العقارب التى فى المكان إذا شمت ريح تلك العقربة هربت من المكان "(١٣٥) ويورد المقريزى من أخبار عجائب هذا البربا:" ذكر أهل إخميم أن رجلا من الشرق وكان يلزم البربا ويأتى إليه كل يوم ببخور وخلوف فيبخر ويطيب صورة من عضادة الباب فيجد تحتها دينارا..فيأخذه وينصرف"(١٣٦) ولعل فكرة هذا الدينار المزعوم هيامتداد للأفكار التى

شاعت فى مصنفات السحر الشعبيوتطلع إليها الوجدان والخيال الشعبى عن جلب الدراهم والدنانير والكنوز متى ألقيت التعزيمة المناسبة وأقيمت الطقوس الخاصة وهو ما نقله لنا ابن الحاج التلمسانى فى كتابه (شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى) فيشرح تحت عنوان (مسئلة فى جلب الدراهم) الطريقة التى بها يحصل الإنسان على مراده من الأموال والذهب وتتلخص:" فى أن يضع الإنسان مربعاً سحرياً خاص فى كاغد أخضر فى اليوم الأول من يناير وتكتب هذه الآية دائرة،وهى قوله تعالى :"وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ..إلى قوله تعالى.. سعياً "،ثم تبخر عملك ببخور السودان ثم تصلى اثنتا عشرة ركعة كل ركعة بفاتحة الكتاب والآية سبعين مرة ثم تذكر عليه هذا الكلام إلى طلوع الشمس وهو (بأسلوم أجب شروت بحق صفيا كل) وأنت قد جعلت قبل الصلاة درهماً من فضة مكتوباً فيه جامع بالنقش وفى الثانى جاعل بالنقش، وهو تحت السجادة والمربع الذى فيه الدرهم المكتوب فيه (جامع) تحت جبهتك عند الصلاة، فإذا طلعت الشمس فإنك تجد الدرهم المكتوب فيه (جاعل) قد رجع إلى عند المكتوب، فأنفق بالمكتوب فيه جاعل فإنه يرجع، ولو أنفقته سبعين مرة لا تدفعه إلا لأهل الذمة من اليهود فإنك إن أكلت به مال أحد من المسلمين بطل عملك ....(١٣٧)

ويؤكد المقريزى على عجائب بربا(معبد) إخميم بقوله:" بربا إخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب،وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الإخميمى يقرأ البرابى فرأى فيها حكماً عظيمة فأفسد أكثرها(١٣٨)

www.alkottob.com

ويضيف المقريزى أيضا" يقال أنه كان فى بربا (معبد) إخميم شيطان قائم على رجل واحدة. وله يد واحدة قد رفعها إلى الهواء وفى جبهته وحواليه كتابه، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر، ويعلقه على وسطه فإنه لا يزال منعظاً أن ينزعه، ويجامع ما أحب ولا يفتر ما دام معلقا عليه، وأن بعض من والى إخميم اقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك" (١٣٩) وأشار المقريزى إلى تمثال مشابه بالإسكندرية على :" صورة صنم قائم وله إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومَنْ لاينتشر ذكره فمسحه بكلتى يديه انتشر ذكره وقوىَّ على الباه"(١٤٠)

نستشف من رواية المقريزى أنه ربما كان يتحدث عن الإله المصرى القديم " مين""MIN فهو حامى إخميم وقفط، وطيبة وأرمنت وحامى الطريق إلى بلاد العرب، فكان الأول " مين" يصور بجسمه النحيل ووقفته المتصلبة الخجلة، ويبدو طويلا جدا بالريشتين اللتين يضعهما على رأسه والجزء الظاهر من جسمه، خارج ثوبه المحكم حول جسده ولونه الأسود، أما ذراعه الأخرى فوضعها تحت ثوبه أمسك بيده الذكر الإلهى المنتصب، وهو من أقدم الآلهة المصرية، وكانت تقدم له القرابين من نبات الخس لما يعتقد فى احتوائه على خواص منشطة جنسياً (١٤١)

وقد شبه الإغريق الإله "مين" بإلههم "بان" (PAN) الذى يعتبر أيضاً إلهاً لخصوبة الأرض(١٤٢)، وقد وصف "هيرودوت" موكبا للإله "مين" الذى ظل متوارياً فى الوجدان الشعبى المصرى حتى ظهر فى

شخصية "على كاكا" وهو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، إذ هى شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس فى وسطه حزاماً تتدلى منه قطعة على شكل (العضو التناسلى الذكورى) فى أضخم أنواعها، وقد رأى البعض أن شخصية "على كاكا" لا تعكس ولع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، وإنما هى دفقة من التيار التحتى للموروث الشعبى الذى يسرى فى اللاوعى الجمعى للمصريين. والرواية السابقة تعكس أن المسألة الجنسية كانت تشغل حيزاً لا يستهان به من تفكير الوجدان الشعبى ونشاطه، وتتحكم إلى حد ما فى تصرفاته بل ومواقفه وطقوسه، وتكشف لنا أهمية تتبع أصول المسألة الجنسية من كونها تعكس – من ناحية – مفاهيم وأخلاقيات المجتمع، كما أنها على الصعيد الفردى تشغل جانباً شديد الأهمية من حياة الإنسان، كما تحكم نظرته للإنسان الآخر أو الجنس الآخر مما دفعه لاختلاق طقوس وعادات شعبية غرضها خدمة هذه الناحية الجنسية ومنها ما خصصه صاحب كتاب(رجوع الشيخ إلى صباه فى القوة على الباه) من فصل كامل تحت عنوان (فى ذكر الخواتم والطلاسم والأسماء المختصة بالباه) فيقول :" تكتب هذه الأسطر فى ورق ذهب وتجعلها تحت لسانك وتجامع مهما شئت فإن ذكرك لايزال قائماً مادامت الورقه تحت لسانك ..... (نوع آخر للباه) تكتب هذه الأسماء على عصابه بيضاء جديدة وتبخرها بمقل أزرق ولبان ذكر وعند الجماع إما أن تتعصب بها وإما أن تربطها على عضدك اليسار وتجامع فإنك ترى عجباً، فإذا فرغت فانزع العصابة وارفعها لوقت الحاجة وهذا الذى يكتب

www.alkottob.com

على العصابة (هقوس هووس سامر هفراس دزمن عينيه أنوه أنوه طيفوس ذكر ملك ملكه معها سرياصهلل إيه أين آه آه آه) ....(صفة أخرى) إذا كان القمر فى الميزان يؤخذ فص كهربايكون فى وزن تسع عشرة شعيره ينقش عليه بشده صفة قرد على قرافيصه ماسك إحليله بيده اليسرى وينقش حوله بشده الأحرف الآتيه وهى (ا هـ ط م ف ش ذ) ثم يجعله تحت لسانه وقت الجماع فإنه يرى عجباً من قوة الباه [لاحظ التشابه مع صورة الإله مينMin) ذكر صاحب هذا الباب أنه دخل على زوجته فاجتمع بها فلما قضى شغله منها مر بهذا الخاتم على فرجها من أسفل إلى فوق وقال توكل أيها العون بعقد هذا الفرج عن جميع فروج بنى آدم ثم خرج عنها وقعد إلى آخر النهار ثم أتى إليها وسألها فقالت والله العظيم لم يقدر أحد أن يجتمع بى ولا يكون طيباً حين يقرب منى إلا ويهيج صلبه ويتفرقع فيقوم مقطوع الظهر قال فحللتها بالخاتم فمررت به من فوق إلى أسفل وقلت حل أيها الملعون ماعقدت .....صفة الخاتم أن ينقش فى يوم الأربعاء فى ساعة زحل أو يوم السبت ساعة عطارد أو فى يوم الجمعة فى الساعة الرابعة أو الحادية عشره ..."(١٤٣)

وربما تذكرنا الروايات السابقة بما ورد بمصنفات السحر الشعبى التى تنطوى على وصفات عديدة للشفاء من الأمراض، وتقوم الكثير من هذه الوصفات على وجود خاتم سليمان والعزائم المرتبطة به . ويقول الموروث الشعبى إن سر قوة الخاتم والعزائم المرتبطة به ليس فى الخاتم، وإنما فى وجود (اسم الله الأعظم) عليه ولهذا ظهر

فى المصنفات عدة صور لخاتم سليمان(خاتم سليمان هو نجمة سداسية استخدمت على نطاق واسع فى أعمال السحر المرتبط بالجان، وهناك صور من هذا الخاتم تم تقسيمه فيها إلى مثلثات أو معينات عُمرت بأرقام ترتبط بحساب الجمل أى القيمة العددية لها) ربما تكون أقرب إلى تفسير مضامين المعتقد من هذه الصور ما يقال إنها تعمل على زيادة القوة الجنسية للإنسان عند جماع زوجته، حيث يكتب فى ورقة ثم تشمع، أو ينقش فى رصاصة ثم يوضع تحت اللسان عند الحاجة .أو يعلق على الظهر . وحول الخاتم أدعية خاصة وله ساعة معينة وبخور خاص، كما أن له ترتيلاً يتلى بطريقة خاصة ويشتهر فى هذا الباب حل المربوط أو المعقود، وهو الموضوع الذى يأخذ المكانة الكبرى فى مصنفات السحر الشعبى العربى (١٤٤) ولعلنا نجد امتداداً لتلك الفكرة (المرتبطة بمسح أعضاء التماثيل لغرض الشفاء) فى العقائدالمصرية القديمة التى اتجهت إلى ربط كل جزء من أجزاء الجسم بالإله الذى يؤثر على العضو، فإصابة بعض أعضاء الجسم أو سلامتها فى هذه العقائد وقف على هذه الآلهة، وهكذا نرى الإنسان قد أصبح يمثل نظاماً مصغراً للكون، وارتبط بالآلهة التى صارت تمثل بدورها أجراماً سماوية، وكأن الإنسان بأعضائه، وعلى الرغم من ضآلته، يصور نظاماً مصغراً للكون.

فالوجه الثالث من برج الجوزاء – حسب بعض المخطوطات القديمة – يؤثر على آلام العضلات، والوجه الأول من برج السرطان يؤثر على أمراض الأوردة والشرايين، والوجه الثانى من برج السرطان يؤثر على الرئتين، والثالث منه يؤثر على أمراض القلب،

www.alkottob.com

والوجه الأول من برج الأسد يؤثر على المعدة والوجه الثانى يؤثر على آلام الكليتين، والثانى منه يؤثر على انسداد الحالبين وحصر البول، والثالث منه يؤثر على آلام العضلات (١٤٥)

العديد من البرابى الأخرى التى حمَّلها الخيال الشعبى بالأساطير انتشرت فى أرجاء مصر فنجد فى "بلاد أسوان بربا، وبأتفوا بربا، وبشامة وطامة بربا وبإسنا بربا، وبقوص بربا وبدندره بربا عجيبة، وبالبهنسة بربا عجيبة، وبشاطئ النيل فيها بين أسوان وجبل الطير برابى منحوتة فى الجبال كالمعابد للمتفردين من الناس وبأنصنا بربا"(١٤٦) أما بربى [بربا] سمُّنودَ فقد دار حولها روايات تشى بمدى رهبتها فى النفوس، فيقال عنها :" قد خزن فيها بعض عمالها قرضاً فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن يدخلها، سقط كل دبيب فى القرظ فلا يدخل منها شيء إلى البربا "(١٤٧)، أما عجائب بربا إسْنا فقد تحدث عنها الخيال الشعبى بقوله :"إن الفأر لا يدخلها، وإن دخلها مات "٣٢١ ، وهكذا تحولت هذه الأماكن وما أكثرها إلى طلاسم وحكايات، وكثر اهتمام الوجدان الشعبى فى هذا الزمن بها وأشاعت المخيلة الشعبية جواً من السحر والغموض حول نقوش معابد مدينة إخميم وباقى معابد (برابى) مصر، وقد دون الرحالة العرب فى كلامهم عن هذه النقوش الضخمة خلال الثلاثة قرون الأولى للفتح العربى .

كما نسجوا حول أرض آثار مصر الحكايات الكثيرة حول الذهب والكنوز، فقد راح أهل مصر يقيمون وينسجون الأساطير والحكايات السحرية حول كل شيء . كما أعادوا من الذاكرة المدفونة حكايات

السحر والأعاجيب حول آثار تلك المدن والمعابد المصرية ونسجوا الروايات حول الأشكال الحيوانية التى وجدوها منحوتة ومرسومة على جدران تلك الآثار وحكايات أخرى حول حقيقة الثعابين والعقارب والجعران هذا الكيان (الذكر الأنثى)، والذى يحكون أنه خلق نفسه بنفسه!!.

ولم تكن المسلات المصرية(١٤٩)، بأحسن حالاً من البرابى، فيما يتعلق بالخرافات والأساطير التى دارت حولها، وعنها يقول المقدسى: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين، قطعة واحدة على رأسها شبه حربة تسميان المسلتين، وتم أيضا على هذا العمل دونهما وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل، وقرأت فى كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا، ألا ترى أن التماسيح فى كورة الفسطاط لا تضر مع عظمها وكثرتها"(١٥٠). وقيل عن عجائبها أيضاً أن :"الشمس تطلع على [المسلة] الجنوبية منهما فى أقصر يوم فى السنة، وعلى الشمالية فى أطول يوم فى السنة"(١٥١) ". وفيهما صورة إنسان على دابَّة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جاء النيل قَطَرَ من رأسيهما ماء ويظهر حتى يجرى إلى أسفلهما"(١٥٢) ، فلم يستطيع الخيال الشعبى أن يفسر تكثف بخار الماء على السطح الأملس للمسلات على شكل قطرات ندى فعدها من العجائب، ورغم الخرافات والأساطير التى تداولها الناس فقد وصف المؤرخون المعالم الخارجية للآثار المصرية كأبنية جسيمة، وأثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التى قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول فى أقوالهم. والتى ربما نظروا إلى المسلات المصرية

www.alkottob.com

أن لها منفعة سحرية أو دينية وهى الفكرة ذاتها التى نجد لها عمق فرعونى قديم يدلنا على ذلك بما نجده فى معبد الكرنك من مسلة لحتشبسوت، رغمأن تصميم المعبد لم يكن مهيأ ليتسع لهذه المسلة، وإنما جاءت بها حتشبسوت من محاجر الجرانيت بأسوان، وثقب سقف المعبد وأفسح مكان للمسلة التى نذرت حتشبسوت أن تقيمها فى موقع معين من المعبد، وبالفعل ثبتت فى وضعها الذى نراها فيه اليوم، وبطبيعة الحال يتعذر تفسير إقامة هذه المسلة على غير أساس ذى صبغة سحرية أو دينية .

فالمسلة لم تضف إلى مبانى المعبد أو تصميمه بقدر ما تسببت فى إصابة البناء وهدم بعض أجزاء منه . ولو كان الهدف من وضعها بالمعبد التجميل لكان من الميسور أن تثبت فى أى مكان خال بداخل فناء المعبد (١٥٣)

أما اللغة المصرية القديمة، فلقد ابتدعوها فصارت هدى ونوراً أضاء عقل الإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها .. ولولاها لظلت البشرية موءودة فى ظلمات الجهالة والضلال .. وعبّروا بها عن أنفسهم فقلدتهم شعوب الأرض فى هذا التعبير .. وبها استطاعت الشعوب أن تقول: ها نحن .. وهذا ما فهمناه و فعلناه .. تلك هى (الكتابة) ..هدية المصريين القدماء إلى الحضارة الإنسانية، وإلى جميع شعوب الأرض فى كل زمان ومكان .. ولكن جاء حين من الدهر كانت فيه تلك اللغة، تمثل لغزاً محيراً للعقول، هاجساً يؤرق الناظر فيقف أمامها مشدوداً مشدوهاً، إلى أن خرج (جان فرانسوا شامبليون) من مصر، وفى أحدى يديه مفتاح الهيروغليفية (١٥٤)،

بهذا المفتاح أضاف إلى تاريخ البشر، خمسة آلاف عام أو يزيد، فكان إيمانه بمصر كعصا موسى: يبطل معها كل سحر(١٥٥) ، ولما كانت تلك الرموز مثار اهتمام الرحالة والمؤرخين وغيرهم وباتت سراً مستغلقاً على مدى العصور ومثار دهشة، فما كان للخيال الشعبى أن يقف أمامها عاجزاً طويلا إذ حلق فى آفاقه وقدم لنا تفسيراته المنطقة لتعويض النقص المعرفى الحاد فى تلك المنطقة المبهمة من تاريخ مصر القديم.

صدى تلك التفسيرات وجدت طريقها إلى دفات كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، التى أظهرت الشغف الذى ساد المجتمع المصرى لحل رموز تلك الكلمات والكتابات المنقوشة على جدران آثار مصر، والذى ساعد بدوره على فتح المجال واسعً للحضور الأسطورى والخرافى حولها، وإن كنا لا نعدم محاولات جادة لفك رموز تلك الكتابات، والتى لا شك أنها أكثر أشكال الكتابة جمالية وإلهاماً للخيال فى تاريخ البشرية وبخاصة وأن الكتابة كانت عند المصريين لغة الآلهة السحرية(١٥٦)

أشار الرحالة اليعقوبى إلى أسباب وجيهة لعدم معرفة أسرار اللغة المصرية القديمة بقوله:".. وفى دهرنا – القرن الثالث الهجرى – قد عدم الناس معرفة قراءاته – الخط المصرى القديم – والسبب فى ذلك؛ أنه لم يكن يكتب به منهم إلا الخواص، وكانوا يمنعون العوام، والذين يقومون به منهم حكماؤهم، وكهانهم، وكانت فيه أسرار دينهم، وأصول مقالتهم التى لا يطلعون عليها إلا كهانهم، ولا يعلمون بها أحدا إلا أن يأمر الملك بتعليمه، فلما قهرتهم الروم، وملكتهم

www.alkottob.com

بسطوة شديدة، وسلطان، أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم فى بدء أمورهم على شرائع اليونانيين حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس جميع ما كانوا فيه من أمر دينهم وسنتهم، وقتل الروم كهانهم، وعلماؤهم فهلك من كان يفهم ذلك الكتاب، ومنع من بقى منهم من تعليمه، والنظر فيه؛ فلذلك ليس يوجد أحد يقرأه منهم ولا غيرهم"(١٥٧)، ويضيف المسعودى أن من أسباب عدم معرفة تلك الكتابة هو: "تداول أرض مصر الأمم، فغلب على أهلها القلم الرومى، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومى والقبطى الأول، فذهبت عنهم كتابة آبائهم..."(١٥٨)

ونجد المسعودى، حين يسأل عن اللغة المصرية القديمة، ولا يجد إجابة، يناقش ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب؛ فإن عقله الواعى، كان طيعا فى إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة المناقشة والاستنتاج، فيقول: "وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد، وغيره من بلاد مصر، من أهل الخبرة (رواة التاريخ الشفاهى) عن تفسير فرعون، فلم يخبرونى عن معنى ذلك ولا تحصل لى فى لغتهم .. فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت كتلك، كتغير الفهلوية وهى الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية، كاليونانية إلى الرومية، وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات"(١٥٩).

فهو هنا قد أصاب مرتين؛ حين ذكر أن لفظ فرعون لقب يطلق

على الملوك، ومرة حين ذكر أن اللغة المصرية القديمة قد تغيرت وليست هى لغة أقباط عصره.

إلا أن رجاحة عقل المسعودى لم تمنعه من أن يكون ناقلاً للوهم إلى جوار الحقيقة، وأورد الأمرين معاً تاركاً للعقل أن يقبل ما يلائمه، وللخيال أن يأخذ ما يروقه . فيقول: "وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخميمى الزاهد وكان حكيماً .. وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى ودارها وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور، قال: رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته، فإذا هو احذروا العبيد المعتقين، الأحداث المغترين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين". قال: ورأيت فى بعضها كتاباً تدبرته فإذا فيه "يقدر المقدور والقضاء يضحك"." وزعم أنه أرى فى آخره كتابةً وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها ... تدبر بالنجوم ولست تدرى ورب النجم يفعل ما يريد"(١٦٠).

الغياب المعرفى بتلك اللغة المصرية القديمة تحدث عنه المؤرخون فى قولهم: "لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرف القلم القديم، وهذه الكتابات كثيرة جدا، لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة(١٦١).

ويقول آخر: "ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها ولا تفهم معانيها، وبالجملة الأمر فيها عجيب، حتى أن غاية الوصف لها والإغراق فى العبارة عن حقيقة

www.alkottob.com

الموصوف".[١٦٢] ويضيف الهروى أن :"الكتابة التى عليها – يقصد الأهرام – بقلم الطير لا يعلمه أحد فى الدنيا وكذلك البرابى ببلاد الصعيد لا يحل قلمها أحد.."[١٦٣]، واقترب التلمسانى من الحقيقة قليلاً حين قال: "وهى كتابة كاهنية[١٦٤]، ورآها البعض أنها: " كتابة بالمسند"[١٦٥].

وبرغم التكهنات حول ماهية الكتابة المصرية القديمة، فقد ظلت بالنسبة للمؤرخين والرحالة مستغلقة الفهم و :"أشياء لا تُعلم الآن بالخط القديم، وكثيراً باقياً إلى الآن لا تدرى ما كان المراد به .. إلا الله عز وجل. ويزعم بعض أهل البطالة، أن لبعض هذه الصور خواص ينتفع بها من يلازم خدمتها، ويرقبها حتى تتحرك بزعمه فإذا تحركت انقضى له ما أمل، وهذا كله باطل وهوس وضعف عقل ودين.."[١٦٦] ، كما أن علماء ورحالة ومؤرخين عرباً آخرين فسروا هذه الكتابة بأنها عبارة عن رموز لعلم الكيمياء الذى برع فيه المصريون القدماء واستطاعوا به تحويل الحديد والنحاس إلى ذهب وفضة !! .. وقال آخرون بأن هذه الرموز خاصة بالسحر وعمل الرقيات والأحجبة . وقد شاعت مثل هذه الأقوال أيضاً فى أوروبا العصور الوسطى .. وظلت الكتابة المصرية لغزاً مغلقاً لا يعرف أحد سره حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادى.

برغم أن المصريين القدماء أنفسهم اعتبروا كتابة لغتهم فكرة نابعة من مصدر إلهى، وتضمنت أساطيرهم وعقائدهم الدينية حكاية الإله (تحوت) الذى نسبوا إليه اختراع الكتابة والحساب والطب والفلك والحكمة وكل الفنون والعلوم الأخرى التى عرفوها .. ونسبوا

إليه أيضاً فكرة تصميم الرموز والحروف والكلمات .. واعتبروه (الكاتب) الذى اختاره الآلهة المصريون الآخرون لتدوين أعمالهم وأوصافهم وتخصصاتهم، فهو (كاتب الآلهة) وهو أيضاً (إله الكتّاب) المصريين الذين كانوا يتبركون به ويعتبرونه رمزاً لمهنتهم الرفيعة السامية . ويُمثَّل الإله تحوت بجسم إنسان له رأس طائر الأبيس ويحمل لوحة للكتابة فى يده اليسرى وقلماً بيده اليمنى .. وفى أحيان أخرى كان يمثل بطائر (الأبيس) وحده أو بأحد قرود البابون. ولأن المنقار المنحنى لهذا الطائر يشبه هلال القمر، فقد اعتبرته العقيدة الدينية المصرية القديمة رمزاً لإله القمر. وأياً كان مخترع الكتابة .. وأياً كانت كيفية اختراعها، فقد ضمن هذا الاختراع العظيم خلود التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة.

واعتبرت زيادة النيل فى كل العصور بمثابة "مؤشر" الثروة القومية، ومن ثم كان طبيعيا أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم بمقاييس النيل[١٦٧] التى بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة وبالنسبة للمقاييس التى وجدت قبل الإسلام فلا نجد فى المصادر العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطورى وتشوبها الخرافات[١٦٨].

تقول الروايات العربية أن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع (من أبطال الأساطير العربية التى حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام). ويقال إنه :"صنع بركة لطبقة وركب عليها صورتى عقاب من نحاس: ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم فى يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابيين،

www.alkottob.com

فإن صفر الذكر استبشروا بزيارة النيل وأن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة[١٦٩]وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف (، كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز بناء مقياسين بأنصنا و إخميم من بلاد الصعيد[١٧٠] .

ولكننا نقفز إلى سماعيات الرحالة المسعودى والتى تشابهت مع الكثير من المؤرخين والرحالة فيقول: "وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، فإنى سمعت جماعة من أهل الخبرة، يخبرون أن يوسف النبى حين بنى الأهرام، اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، وأن ذلك كان بمنف... وأن دلوكة الملكة العجوز ووضعت مقياساً آخر ببلاد إخميم من محافظة سوهاج بالصعيد[١٧١] كما وضعت العجوز دلوكة صاحبة حائط العجوز مقياساً بأنصنا وهو صغير الذرع"[١٧٢] ولكن الأسعد بن مماتى ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد الأسماء، ويضيف إليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع[١٧٣].

ما يهمنا فى الرواية السابقة: أن الفكرة القائلة بأن يوسف الصديق (هو بانى الأهرام تمر كأنها حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، كما أن حديثة عن الملكة الفرعونية دلوكة (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقاً لروايات الأساطير العربية) يمر أيضا بلا نقاش، وإن كنا لا ندرى من أين جاء بهذا الاسم الذى يكثر فى الكتابات التاريخية، إلا أنه لا شك تأثر بما سمعه ممن عايشهم فى مصر عن ما توصلت إليه معلوماتهم عن تاريخها القديم، وهو يأخذ كلامهم

أخذ المسلَّم غير المدقق وغير المتشكك؛ إذ يبدو أنه كان يكفيه أنه كلام صادر عن قوم يزعمون المعرفة (جماعة من أهل الخبرة)، وهم بعد من أهل البلاد، ومن هنا دخلت الكتابات التاريخية وكتب الرحالة الكثير من الأساطير ومتبقياتها من الحكايات الشعبية المتعلقة بعادات مصر، وموروثها القديم مما بقى فى ذاكرة العامة. والتى نجد وقع حوافرها على العقول ماثلة فى إشارات عند الرحالة جون أنتيس فى القرن الثامن عشر الميلادى بقوله :"والتماسيح شائعة جداً فى مصر .. لكنها قلما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها، ويدعى الأهالى أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد !![١٧٤]

وفى سماعيات الرحالة (أولياجلبى)، عن مقياس الروضة نجده يسلك مسلكا مختلفا فيقول: ".. فى أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية (أم القياس)[يقصد مقياس الروضة]، ومنها أن ملكاً كانت له ابنة حسناء تدعى "مقياس" فبلغ الملك أن تمساحا خطفها، وهى تستحم فى النيل فجعل يصيح، ويولول، ومن حكمة الله أنه كان معه فى ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطرينى من كبار أولياء الله، فدعا للفتاة، فما لبثت أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة [١٧٥] فابتهج الملك، وبنى ذلك القصر فى ذلك الموضع وسماه " أم القياس" ذكرى لنجاة ابنته، ثم أمر الشيخ البطرينى بصنع تمثال تمساح من الرخام، وعقد عليه وقفا أعظم، ودفنه تحت حوض أم القياس من النيل، وإن تجاوزه التمساح، فلا يلبث أن ينقلب على ظهره، ويرتمى إلى الساحل فيقتل، فلذا ليس فى القاهرة

www.alkottob.com

تمساح قط..."(١٧٦).

وقد ارجع ابن وصيف شاه سبب كثرة التماسيح فى مصر إلى رواية أسطورية تداخل فيها السحر مع الدين فيقول :" رجع الملك ماليق (أحد ملوك مصر فى الأساطير العربية) إلى مصر فسحروا البربر مدينة مصر فكثر بها التماسيح والثعابين والعقارب والضفادع، وقد فاض النيل حتى غرقت أراض كثيرة فى غير أوانه فلما عاين الملك ماليق ذلك لَبَسَ المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه، ودعا إلى الله تعالى بكشف النازلة بعد أن عجز عن تبطيل ذلك السحرة والكهنة، واستمر الملك ماليق فى الملك حتى هلك"(١٧٧).

و الروايات المتعلقة بمقياس النيل فى كتابات الرحالة ربما تؤكد أنه قد ارتبط بمقياس النيل فى مصر معتقدات تعد استمراراً للفكرة القائلة بأن الصورة التى كانت ترسم للفريسة فى الثقافات الأولى، والتى كانت المحور الرئيسى للطقوس السحرية للصيد، ظهرت بعد ذلك فى الصورة أو الدمية التى تصنع للشخصأو الحيوان المتوحش المراد توجيه السحر إليه والصورة بأكملها، أو جزء منها، تخضع لأعمال السحر إيماناً بأن ما يحدث للصورة سوف يحدث نظيره للشخص صاحب الصورة، وفى إطار ذلك ظهرت الشخوص (أو التمائم) السحرية التى استخدمت فى أغراض عديدة(١٧٨)

ومن ناحية أخرى نجد أن صورة التمساح قد احتلت مكانة متميزة فى الموروث الشعبى فهو عند المصريين القدماء الإله (سوبك)، وهو التمساح الذى ظهر كمعبود محلى فى مناطق مختلفة حاملاً

نفس الاسم والشكل فعبد فى الدلتا فى مدينة سايس حيث (يعطى الحياة للنباتات فوق الشاطئ) ؛إذ أن المصرى اعتاد رؤية التماسيح مستلقاة فوق الشاطئ فاعتقد أنها تكسبه الخصب،واعتبر هناك ابن إلهة المياه (نايت العظيمة) يضحك عندما يأتى الفيضان،ولم يخجل الفنان الشعبى من أن يصور هذه الإلهة ترضع تمساحاً من ثدييها .

وأهم مكان انتشرت فيه عبادة (سوبك) كان أرض البحيرة فى الفيوم، ثم فى مدينة أمبوس الجنوبية، إذ اعتاد الناس الاحتفال هناك بظهور الفيضان كل عام، ومن هذا نرى أنه كان إلهاً للماء . وقد عثر على صورة له قديمة لا ترتبط بأى مكان فى مصر تمثيله فى محراب صغير، فوق شاطئ رملى كمعبود يقدس فى كل مكان من وادى النيل . وإذا كنا نرى أن قدسية هذا الحيوان المفترس بلغت حداً جعلت المصرى أحياناً يلقبه بصاحب الوجه الجميل، فليس من شك أن السبب الحقيقى لهذه العبادة يرجع إلى الخوف منه والرعب الذى يشيعه فى نفوس أهل شاطئ النيل(١٧٩)

ويعتقد سكان جزر الملايو الحاليون، بوجود كائنات غير بشرية يزعمون أنها تظهر فى صورة تماسيح، تسيطر على صحة الإنسان ورخائه، وعلى وفرة محصول الأرز . وفى (بورينو) يحدثنا تشارلس هوز Charles Hose أن الإبانيين Ibans ،كلما أتوا أرضاً جديدة صنعوا تمثالاً لتمساح فى حجمه الطبيعى، أو لتنين فى شكل تمساح، يوضع على علم فى حقل مخصص لزراعة الأرز، ثم يقدمون لهذا التمساح الطعام والكساء ودم القرابين من الطيور والخنازير، ويعتقدون أنهم إذا خطبوا وده بهذه الطريقة بارك فى محصولهم،

www.alkottob.com

وأهلك جميع الحشرات التى تأكل أرزهم . وهذا التمساح – فى معتقدهم – من ذوى قرابتهم، وهو عادة من آبائهم، وفى مقدوره أن يسدى إليهم النعم بما له من قوى خارقة للطبيعة اكتسبها بعد موته . ومجمل القول أن التمساح أن التمساح كان رمزاً لجميع القوى الغيبية التى تسيطر على أقدار البشر، حيث يعد التمساح القادر على منح الصحة والأمن والرخاء . ولم يكن غريباً أن يفسر التمساح فى الأحلام بما ذكره عبد الغنى النابلسى وابن سرين:" بأنه رمز للص الخائن وهو رمز للعدو المخذول فى البر لحلوله فى غير محله، وأنه لايعيش فيه ومن رأى أنه جر التمساح إلى البر فإنه يظفر بعدوه أو غريمه ويأخذ ماله منه ومن رأى أنه اصاب من لحم التمساح، أو من جلده، أو من شحمه، أو من شىء منه فإنه يصيب من مال عدوه بقدر ذلك ." (١٨٠)

وقد ظلت هذه المعتقدات تعمل فعلها فى الواقع والوقائع فاستمر العديد من الشعبيين فى استخدام صورة التمساح لتزيين مداخل وأبواب وأعتاب منازلهم لا لغرض سوى حماية البيت من الأرواح الشريرة والأعداء واللصوص وجلب الرزق ومنح الصحة لأهل البيت مما يساعدنا على إلقاء الضوء على ماضى الناس فى المجتمع المصرى وربما أمكن استناداً إلى هذا الماضى الغابر تفهم شغف أهالى بعض المناطق فى مصر وتمسكهم بتصوير الأشكال الحيوانية على واجهة بيوتهم كالتمساح وتصوير تدفق المياه أو هطول الأمطار والأهلة فى الوحدات الزخرفية بمداخل وأبواب البيوت فى مصر .وقد رصدنا العديد من تلك الظاهرة منتشرة على أعتاب بيوت مصر فى

العديد من محافظات وقرى مصر وقدمنا للقارئ صورة تمساح على عتبة منزل بأحدأحياء مدينة الزقازيق وأخرى على عتبة منزل بمدينة المنصورة.

أما القلاع المطلسمة والقصور المرصودة، فقد كانت من العناصر التى امتلأت بها الأساطير والحكايات العربية التى رواها الناس، وحفظها لنا المؤرخون والرحالة فيما كتبوا عن مصر،وعجائبها الخلابة. فقلعة الجبل كان الغرض من إنشائها هو تحصين القاهرة من احتمال تعرضها للهجوم، ولحماية الحاكم فى حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه. وقد استخدم فى بناء القلعة أحجار من منطقة أهرام الجيزة، وسخر فى نقلها وفى عملية البناء مئات الأسرى من الصليبيين، وهدم ما حولها من المساجد والقبور(١٨١) فلبست أبهى حلة تليق: "بدار الملك الشريف، التى بها تخت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير فى الاتساع، والزخرفة، والأبهة العلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهى حصينة جداً"(١٨٢).

وإن كانت أحجار الأهرام أحد أسباب حصانة القلعة، فلقد تحصنت أيضاً بقوى أخرى مصدرها الخيال الشعبى الخصب الذى رأى أن القلعة محفوظة بطلسمات سحرية غامضة إذ أن: " بالقلعة عقارب ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات؛ لأن هناك طلسما، وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبنى على أربعة وأربعين عمودا، لا نظير لها فى الربع المسكون إلا فى أسوان، وطلسم العقرب؛ صورة عقرب من

www.alkottob.com

النحاس الأصفر، معلق من ذنبها على حلقه من الحديد فوق العمود الأيمن فى العقد العظيم الذى يجانب منزل التتر، وهى لا تزال واضحة"(١٨٣) .

لم يكتف الخيال الشعبى فى تحصينه للقلعة بطلسم العقرب فحسب، ولكنه حصنها بطلسمات أخرى:" كطلسم للثعابين، ولأم أربع وأربعين، وآخر للحمى والقولنج، وثالث للطاعون والكلاب المسعورة .. فالحمد لله ليست فى هذه القلعة من حمى الربع، والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد، فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام، شفى منها بأمر الله؛ وذلك لأن العمود الذى بجانب باب وفيق محمد أغا الحلوانى مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوقف هو طلسم الحمى!!(١٨٤)

ورغم العبث بآثار مصر القديمة، ونبش مقابر المصريين القدماء، واطلاع الناس على الأحجام الحقيقية للمومياوات المصرية فإن الآثار المصرية الخالدة التى كانت تملأ ربوع وادى النيل طولاً وعرضاً، كانت مثار إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أو من المستعمرين المستوطنين أو من المواطنين.

كانوا جميعا يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المعابد والتماثيل، ناهيك عن الأهرام وأبى الهول ... حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، أُناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر فى تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة، وهو ما نلمسه عند البغدادى فى

قوله: "إذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم..."(١٨٥).

وروج الرحالة أولياجلبى لهذه الأفكار المزوجة بالخرافات بقوله عن نفسه: "لقد عثر كاتب هذه السطور – بقصد أولياجلبى نفسه – فى الطريق. على عظمة ساق فى جلدها، يبلغ طولها واحداً وسبعين شبراً من أشباره وكأن هناك كثير من أمثال هذه العظام، وترقد فى مغارة كبيرة، جثث ورفات آدمية مكفنة ... يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة.."(١٨٦)

ومن الحكايات الشعبية فى ذلك يشاع أن (عبد العزيز بن مروان) أراد إعادة بناء الإسكندرية: "فذهب قوم من الناس إلى ناووس وأخرجوا منه رأس آدمى وحملوه على عجلة ووزنوا سناً من أسنانه، فوجدوها عشرين رطلاً على ما بها من النخر والقدم، فقالوا: جئنا بمثل هؤلاء الرجال حتى نعيدها إلى ما كانت. فسكت"(١٨٧)

إذن؛ لم يكن عجيبا أن تتردد أخبار الخرافات والأساطير فى كتابات الرحالة والمؤرخين ولكن أقرب الأشياء إلى العجب؛ هو إيمان الكثير من الرحالة والمؤرخين بحقيقة هذه الخرافات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفاً إلى إثباتهم هذه الخرافات عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جُبِلَ عليه الرحالة و المؤرخون من التصديق لأكثرها بل والتدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول المقريزى مدللاً على صحة ما ورد فى خططه من جلب سبعة من العواميد منها عمود السوارى من

www.alkottob.com

الصعيد إلى الإسكندرية حملاً تحت الآباط، قائلا: ".. ويقال أن عمود السوارى الموجود – الآن – خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها البتون بن مرة العادى، وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم – قبلى أسوان – على الإسكندرية، فانكسر ضلعه؛ لأنه كان ضعيف القوى فى قومه، فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد، وقال: "ليتنى فديته بنصف ملكى". وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى وكان قوياً. فحمله من أسوان تحت إبطه، وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكى، وكان بناؤها بعد أن اختاروا طالعاً سعيداً كما هى عادتهم فى عامة أعمالهم، وقد ذكر غير واحد أن الصخور فى القديم من الدهر، كانت تلين فعمل منها أعمدة ناعط، ومأرب، وبينون مآثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر، وأن كل شيء كان يتكلم.."(١٨٨)

ويمضى المقريزى فى حديثه معلقاً على ذلك بقوله: "وكأنى بمن قل علمه ينكر على إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال، وما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكاية له، واسمع قول الله تعالى عن عاد وقوم هود: (واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح فزادكم فى الخلق بسطة (الأعراف / ٦٩)؛ أى طولاً وعظم جسم .. قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً، وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، وقيل على خلق قوم نوح... كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم .. كان الرجل ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقه،

وإن كان أحدهم ليغمز بقدميه الأرض فيدخل فيها... واستظل سبعون رجلا من قوم موسى فى قحف رجل من العماليق وقال تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) [الفجر / ٦–٨] ، وقال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قاماتهم .. كان طول أحدهم إثنى عشر ذراعاً... وذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن المعتضد كنزاً بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض ثلاثة أشبار..."(١٨٩)

وهكذا؛ حاول المقريزى، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة – المدرك نكارتها لدى مطالعتها – موهما صحته، استناداً إلى أقوال علماء التفسير واللغة ورواة الأخبار فى عاد قوم هود، معتقداً أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، بيد أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التى يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الدينى وموقعهم الزمنى حقيقة تاريخية لا جدال فيها، ، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون له من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية فى محاولة من جانب المؤرخين تقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة: الماضى والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة.

وكان من السهل على رحالة ومؤرخى العصر تناقل الخرافات والأساطير بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم بها، بل قد تتكرر

www.alkottob.com

الخرافة بعينها مع اختلاف الزمان والمكان وسردها بالأسانيد المختلفة، التى تحاول شرعنتها وتبريرها وتسويقها بانتقاء مجموعة من الأحاديث والأخبار وإسقاطها على الواقع والوقائع، خاصة أن الكثير من المؤرخين لم يميزوا بين القص والتأريخ، فكان أن امتزج لديهم القصص بالتاريخ، والخيال بالواقع، فإذا وضعنا فى الاعتبار أن مصادرهم فى معظمها كانت تعتمد على الروايات الشفاهية المأثورة، استطعنا القول دون حذر كبير: أن هذه المادة التاريخية هى فى آخر الأمر، مادة فولكلورية فى المقام الأول؛ لما جُبِلَ عليه المؤرخون على معالجة التاريخ القديم معالجة أسطورية، والتى نهج أصحاب المنهج التقليدى الذى يؤثر أصحابه، أن يمهدوا لمؤلفاتهم بالحديث عن تاريخ البشرية منذ البدء، منذ هبوط آدم من الجنة حتى عصرهم، الأمر الذى جعل هذه الكتابات حافلة بالتاريخ الأسطورى[١٩٠]، ربما كان الاقتراب منها من المحاذير الكبرى آنذاك.

لكن نجد الرحالة (ابن خلدون) يسلك مسلكاً مغايراً فى مناقشة ما تفيضه الرواية على فراعنة وآثار مصر القديمة من الأساطير التى جرت فى الرواية الإسلامية مجرى التواريخ بل ليس فى الرواية الإسلامية كلها فى هذا الموضوع فصل كالذى يقدم لنا فيه ابن خلدون من خلال مقدمته عن تلك الإشكالية البحثية التى واجهت علماء عصره، صورة بلاغية وعلمية نقدية من أقوى الصور وأبدعها نقدا فيقول: "وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار القادمين ومصانعهم العظيمة، مثل؛ إيوان كسرى وأهرام مصر، وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل

لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير فى طولها، وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التى صدرت تلك المبانى عنها، ويغفل عن شأن الهندام والمحال، وما اقتضته فى ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين فى البلاد يعاين من شأن البناء وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عاديا، نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مبانى عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم، وتضاعف قدرهم، وغير ذلك من المبانى والهياكل التى نقلت إلينا أخبار أهلها،قريباً وبعيداً وتيقناً أنهم لم يكونوا بإفراط فى مقادير أجسامهم،وإنما هذا رأى ولع به القُصّاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة .... وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أهم ليزعمون أن عوج بن عناق[١٩١]من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً، فيشويه فى الشمس ويزعمون بذلك، أن الشمس حارة فيما قرب منها.."[١٩٢]

هذه القصص مثل قصص أخرى أوردها الرحالة والمؤرخون فى هذا السياق، تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة من ناحية، كما تكشف عن عجزهم عن الوقوف على تاريخها الحقيقى من ناحية أخرى، كما أن بناءها الفنى يفوح بأريج حكايات شعبية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة وعالمها السحرى، وفى رأى بعض الباحثين أن هذه الحكايات تهدف أساسا إلى التسلية على الرغم من أنها تهدف إلى تحقيق غرض ثانوى آخر،وأنها محض خيال اختلقه الرواة .غير أن الراجح أن هذه الحكايات التى أوردها الرحالة المؤرخون لم تكن بقصد التسلية وإنما كانت ترغب فى تقديم إجابات "تاريخية" عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها ما زالت

www.alkottob.com

ماثلة أمام عيون الناس وعندما عجز المتعلمون عن العثور على إجابات تاريخية حقيقية. بدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال، بيد أن بعض هذه الحكايات عن أمجاد مصر القديمة كانت تحمل ظلاً، أو نواة، من الحقيقة التاريخية فى غالب الأحوال[١٩٣] مثال ذلك ما قدمه لنا الرحالة و المؤرخون عن وصف للكسوة الخارجية للهرم – والتى كانت لم تزل بقاياها موجودة على أيامهم – ووصفهم للنقوش والكتابات التى تغطى أحجارها، مقررين – فى بعض الأحيان – أن تلك النقوش لو نقلت مصغرة على الورق لشغلت آلاف الصفحات.

فالأساطير والخرافات التى شاعت حول تلك الآثار ترجع بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة (الهيروغليفية)، التى كانت مدونة على تلك الآثار، وحين قام هيرودوت بزيارته لمصر (فى القرن الخامس قبل الميلاد)، كان قد ندر استعمال الهيروغليفية كلغة مصرية، إلا فيما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامئذ. ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تماماً أمام كل من يفكر فى قراءتها أو استجلاء معانيها، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة.

الهوامش

١ – قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث فى الدراسات التاريخية، ص ٤٥؛ بيريل سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى (ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م)، ص ٣٩؛ ألبان ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى تونبى، (ترجمة: عبد العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد ٢٢١، القاهرة ١٩٩٦م)، ص ١٨٣.

٢–: محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ فى التراث الشرقى القديم، ص ٣٧–٥٠؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، ٢٠٠٥)، ص ١٢؛ كارم محمود عزيز، النموذج الفولكلورى للبطل فى العهد القديم، ص ٤٥–١٤٥؛ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ص ١٥٧–٢١٠.؛محمد الحامدى: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة (مجلة التراث العربى، العدد ٥٨، دمشق ١٩٩٥م)، ص٦٧ .

٣ –فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ١٥٧ .

٤–أحمد عثمان: تاريخ اليهود (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٤م)، ص ٥ .

٥ – ذكرت قصة نوح فى عدة سور بشىء من التفصيل فى الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها. وروت التوراة فى سفر التكوين فى الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت فى سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة فى أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها فى جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية فى كافة أتباع الأديان الثلاثة:

www.alkottob.com

اليهودية والمسيحية، والإسلام

٦ – السامية:نسبة إلى سام بن نوح ، أما الحامية: فهى نسبة إلى حام بن نوح.

٧ –الخطط، ج١، ص ٣٢٥ .

٨ – المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت٨٤٥هـ): ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى، (مخطوط مطبوع غير محقق) الرياض١٤٢٣هـ.

٩–ابن خلدون(عبد الرحمن بن خلدون)، (ت ٨٠٨ هـ): تاريخ ابن خلدون، (الجزء الثانى، سلسلة الذخائر، العدد ١٥٤، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص ٥ .

١٠ –المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) ت ٣٤٦ هـ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية (ط. الأولى، الرياض ١٤١٥ هـ)، ص ٥٨ .

١١ –البيرونى (أبى الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية (مكتبة المثنى، بغداد، د.ت)، صـ ٢٤ .

١٢– محمد فيض الله الحامدى: طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة، ص ٦٧؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص ٢١٧ .

١٣ – الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة، ص٥٥.

١٤ – تقول إحدى الأساطيرالمصرية القديمة أن (توت) خرج من رأس الإله (ست) إله الشر عند المصريين القدماء بعد أن ابتلع (ست) مَنْ حورس بطريق الخطأ. ونتيجة لارتباط (توت) بالقمر صار إله الوقت و"حاسب الزمن" وبوصفه الرب الذى اخترع الكتابة فكان حاميا للكتبة أيضا وكان (توت) يوصف بأنه لسان رع أو قلبه ويوصفه حاميا لأوزوريس صار معينا للموتى أيضا. ولهذه الصفات جميعا قال الإغريق إنه (هرمس) إله الحكمة لديهم، وهرمس فى الأساطير اليونانية هو رسول آلهه الأوليمب .كما كان إله الطرق ومرشد المسافرين، كما اعتبره الإغريق إله الخصوبة مانحا للثروة وموزاً للحظوظ، وهو ابن الإله زيوس من مايا ولد فى الصباح. انظر: قاسم عبده قاسم: بين التاريخ الفولكلور ص٥١، ص٥٧

١٥ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٧

١٦ – المسعودى:أخبار الزمان، ص٥٧

١٧–ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٠ .

١٨ – المقريزى: الخطط، ج١، ص ٢٥٠

١٩ –المقريزى، مصدر سابق، ج١، ص ٢٠٧ .

٢٠ – أولياجلبى، مصدر سابق، ص ٦١٧ .

٢١– البغدادى (موفق الدين أبو محمد): الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، (سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد ٣١٤، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ١١٢.

١٠٤ – التلمسانى (ابن أبى مجلة أحمد بن يحيى) (ت ٧٧٦ هـ): سكردان السلطان (الطبعة الثانية، مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٤٦٠.

١٠٥ – أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز)(ت ٥٢٨ هـ)، الرسالة المصرية، (ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، المجموعة الأولى، الطبعة الثانية، مكتبة البابلى الحلبى، القاهرة ١٩٧٢م)، ص ٢٥.

١٠٦ –الهروى: (أبى الحسن على)، (ت ٦١١ هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات (تحقيق على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٤١.

١٠٧ – انظر كتاب تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره للنابلسى وابن سرين وابن قتيبة (جمع وترتيب :أبو صهيب محمد، دار ابن الجوزى، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٦٧.

١٠٨ –المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٢١٠.

١٠٩ –ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٥٠، ٥١ .

- 110أبو الصلت، الرسالة المصرية، صـ ٢٧، ٢٨.

١١١ –ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٥٩.

١١٢ –القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.

١١٣ –الهروى: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤١.

١١٤ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٢٠٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ، ص ٧٠: ص ٧٢؛ ابن محشرة الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٥٣؛ أولياجلبى: سياحتنا مه مصر، صـ ٦١٧، ص ٦١٧؛ الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول، ص ١٠٩، ص١١٠ .

www.alkottob.com

٣٣ –ابن حوقل: صورة الأرض، ج١، ص ١٥٢ .
٣٤ –الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٣٣ .
٣٥ –القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩ .
٣٦ – ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الأمور، ص١٥.
٣٧– أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص٢٧ .
٣٨ –المسعودى: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٤ .
٣٩ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٤ .
٤٠ –المنجم (اسحق بن حسين): آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان، (بريدة ١٤٠٧هـ)، ص ٢٣ .
٤١ –البلوى: تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ص ٢٢٠ .
٤٢–المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢١٠ .
٤٣ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٦ .
٤٤–آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ (ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ١٠٥٣، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٨٦، ص ٨٧ .
٤٥ – يبدو أن هيرودوت حين زار مصر، كان قد وقع فى حبائل مجموعة من آفاقى الإدلاء والكهنة الجهلاء،الذين حشوا دماغه بمعلومات هى أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة ؛ فهو أول من قال: "بأن الهرم قد بنى بالسخرة واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً، وأن ملك مصر حين أفلست خزائنه من المال الكافى لاستمرار تمويل عمليات البناء طلب من ابنته أن تمارس الدعارة،والرذيلة فى ماخور. وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا له مقداره من كل من يأتيها، فضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها، فكرت بدورها فى ترك أثر خاص بها؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهديها حجراً، ومن هذه الأحجار – فيما يقال – بنى الهرم الذى يقع بين الثلاثة وهم أمام الهرم الأكبر «هيرودوت يتحدث عن مصر(ترجمة: محمد صقر خفاقة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م)، ص ٢٥١: ص ٢٥٤ .
٤٦ –العبدرى (أبى عبد الله محمد بن مسعود) (ت ٧٠٠ هـ): رحلة العبدرى (تحقيق: على إبراهيم كردى. الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق ١٩٩٩م)، صـ ٣١٦ .

٤٧ –مروج الذهب، ج١، ص ٣٥٠، العبدرى: الرحلة، صـ ٣١٧.
٤٨ –مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ١٦٦ .
٤٩ –الإفادة والاعتبار، ص ٩٢ .
٥٠ –ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٧١ .
٥١ –الإسحاقى: أخبار الأول فيمن ملك مصر، ص ١١٠ .
٥٢ –ابن جبير: الرحلة، ص ٥٠ .
٥٣ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ١١٤، الأقفهسى: أخبار نيل مصر، ص ٦٣ .
٥٤ –الرسالة المصرية: ص ٢٥ .
٥٥ –الاصطخرى (أبى إسحاق إبراهيم بن محمد) :المسالك والممالك، (تحقيق: محمد جابر عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد ١١٩، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ٤١ .
٥٦ ـ ارتبطت بالأهرام العديد من الخرافات، وقد نقل لنا الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ما يتداوله الناس عن تلك الأهرام، وهو على أية حال لم يزعم كغيره أن اليهود هم الذين بنوها أو حتى شاركوا فى بنائها .
٥٧ –بنيامين (ابن يونة التطيلى النبارى الأندلسى)، (٥٦١ـ٥٦٩ هـ): رحلة بنيامين التطيلى(ترجمة:عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولى، المجمع الثقافى، أبو ظبى، ٢٠٠٢م)، ص ٣٥٣ .
٥٨ – أولياجلبى: سياحتنا مه مصر، ص ٦١٧ .
٥٩ – سعد الخادم :الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص ٨٠
٦٠– على أبو حى الله المرزوقى :الجواهر اللماعة فى استحضار ملوك الجن فى الوقت والساعة،)مكتبة القاهرة ١٩٥٩م)، ص٢١ .
٦١– سليمان محمود حسن: الرموز التشكيلية فى السحر الشعبى، ص١٥٨ .
٦٢– سعد الخادم :الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص٩٥ .
٦٣ – ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الأمور، ص١٥ .
٦٤– محمد الجوهرى: علم الفولكلور، دراسة المعتقدات الشعبية (الجزء الثانى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م) ص٢١٩ .
٦٥ – سامية الساعاتى: السحر والسحرة، ص١٧٦ .
٦٦ – الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص ١٦٧ .

www.alkottob.com

٦٧ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٩ .
٦٨ – أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص ٣٩ .
٦٩ –المصدر نفسه، ص ٣٩ .
٧٠ – أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص٤٠ .
٧١ – ابن الحاج: المدخل، ج١، ص ٢٧٨ .
٧٢– العينى (محمد بن أحمد) (ت ٨٥٥هـ): الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر (تحقيق هانس أرنست، الطبعة الأولى دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦٢م)، ص٤٠ .
٧٣–ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٨ .
٧٤ –ابن ظهيرة، محاسن مصر، ص ١٥٥ .
٧٥–سياحتنامه مصر، ص ٦٢١ .
٧٦ –سكردان السلطان، ص ٤٥٩؛ الخطط: ج١، ص ٢١٠ .
٧٧ – ابن الحاج التلمسانى المغربى: شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى ص٣٨ .
٧٨ – انظر :مجمد الفيل: الثقافة المصرية بين الرسمية والشعبية (الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م) ص ١٠٥.
٧٩ –الرسالة المصرية، ص ٢٥ .
٨٠– أسطورة إساف ونائلة: ملخصها كما جاءت فى كثير من كتب الأدب، أن (إسافاً ونائلة) رجل وامرأة تمكن الحب من قلبيهما فأصبحا عاشقين، وكانا يرغبان فى اللقاء والاجتماع بعيداً عن أعين الرقباء، فلم يجدا مكاناً يلتقيان فيه خفية غير الكعبة، فأحدثا فى الكعبة فعوقبا على ذلك بأن مسخا حجرين كما أن الآلهة لم ترض عن هذا اللقاء فى هذا المكان، وكانت قد حظرت عليهما اللقاء فى الكعبة حرم الآلهة . على عبد الحليم محمود: القصة العربية فى العصر الجاهلى، ص١٥٥ .
٨١ –المسعودى:أخبار الزمان، ص ٥٣ .
٨٢ – سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص٢٦ .
٨٣ –ظاهر الافتتان بالمصريات: ما يعرف اليوم بـ "الاچيبوتومانيا" وهى نوع من الولوع أو الافتتان الشديد بمعرفة المعلومات التى تتصل بمصر وتاريخها

وحضارتها القديمة، وهو أيضا ضرب من ضروب الجنون يتميز بالانفعال الشديد فى الانعطاف نحو شىء ما، وهى ظاهرة عامة تفشت بين عشرات الملايين من الناس على مدى آلاف السنين، انتشرت بين معظم الشعوب التى تنتمى إلى حضارات قديمة أخرى غير الحضارة المصرية.
٨٤ – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٤؛أولياجلبى: سياحتنا مه مصر، ص ٣٧ .
٨٥–نفسه، ص ٦١٨ .
٨٦ –الغرناطى (أبى حامد محمد) (ت ٥٦٥ هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٩٤ .
٨٧ –البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ٩٤ .
٨٨–الكندى: فضائل مصر، ص ٦٦ .
٨٩ –الهمذانى (بهاء الدين محمد بن حسين) (ت ١٠٣١ هـ): المخـــلاة (الطبعة الثانية، مكتب مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٢٥٨ .
٩٠ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٤؛ الأقفهسى(شهاب الدين بن العماد)، (ت ٨٠٨هـ):كتاب أخبار نيل مصر، (تحقيق: لبيبة مصطفى، نعمات محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٦٢ .
والصابئة: من الفرس الذين عبدوا قوى الطبيعة، وهم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية، أى الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، ينكرون الرسالة فى الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب، انظر: المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٦١: ص ٢٦٢؛ كرد على: خطط الشام، ج٦، ص ٢١٣، (ط. دمشق ١٩٢٨م).
٩١ – الكسنر أغناتنكو :بحثاً عن السعادة (دار التقدم، موسكو ١٩٩٠م)،ص١٨.
٩٢ – سليمان حسن :الرموز التشكيلية فى السحر الشعبى (هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م) ص٩١ .
٩٣–أبو الهول: اصطلاح مأخوذ من التعبير المصرى شسب عنخ shesep ankh ومعناه "الصورة الحية" تمثل قوة وسلطة فرعون، تمثال رأسه

www.alkottob.com

بشرية وجسده جسم أسد ضخم رابض، وهو حامى الخير وطارد الشر، وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر، وكان الأسد بالنسبة للمصريين القدماء، حارس بوابات الفجر، ويواجه "أبو الهول" كرمز شمس للإله "رع" اتجاه الشرق، مستقبلا الأشعة الأولى للشمس الساطعة فى أول أيام الربيع، «بريان م. فاجان: نهب آثار وادى النيل» (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص٢٤٨، آنا رويز: روح مصر القديمة(ترجمة إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٩٦٥، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٢٤٥ .

٩٤ – آنا رويز: روح مصر القديمة، ص٢٤٦ .

٩٥– آنا رويز: روح مصر القديمة، ص٢٤٥ .

٩٦ – المجريطى: غاية الحكيم، ص٤٧ .

٩٧ – سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص٢٣ .

٩٨ – عبد الحليم حفنى: المراثى الشعبية (العديد)،)الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٧٢

٩٩ – درويش الأسيوطى: أشكال العديد فى صعيد مصر (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد١٠٥، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص١١٨ .

١٠٠ – كامبل طومسون: دولة بابل أيام حمورابى، فى تاريخ العالم، م١، ص٥٢٤ نقلاً عن: سليمان حسن: الرموز التشكيلية فى السحر الشعبى، ص٧٠

١٠١ – السبتى: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص١٦٧، ابن جبير: الرحلة، ص٥١.

١٠٢ – القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٦٩ .

١٠٣ – الخطط: جـ١، ص١٢٣: ص١٢٤ .

١٠٤ – الخطط: جـ١، ص١١٢ .

١٠٥ – سياحتنامه مصر، ص٦٢٣ .

١٠٦ –أحسن التقاسيم، ص٢١٠ .

١٠٧ – محمود شاكر الألوسى :بلوغ الأرب فى أحوال العرب (بغداد ١٨٩٨م)،ص٢١٩؛ وانظر :سليمان حسن :الرموزالتشكيلية، ص٨٩.

١٠٨ – المقريزى:الخطط، جـ١، ص١٢٣، ص١٢٤ .

١٠٩– سياحتنامه مصر، ص٦٢٢، ص٦٢٣ .

١١٠ – سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص٧٢ .

١١١ – البونى (أحمد بن على بن يوسف البونى)(ت٦٢٢هـ):شمس المعارف الكبرى المسمى شمس المعارف ولطائف العوارف،) أربعة أجزاء، مكتبة جمهورية مصر العربية، القاهرة بدون تاريخ)، ص٢٥٦ .

١١٢– المقريزى: الخطط، ج١بمص٣٨؛ أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص٦٢٣.

١١٣– عبد الفتاح الطوخى :البيان فى علمى الكوتشينة والفنجان (مكتبة الجمهورية المصرية) ٢٢ .

١١٤ – سعد الخادم :الفن الشعبى، ص١٢٤ .

١١٥ – البرابى: بيوت الحكمة (المعابد) وهى الدور التى كان المصريون القدامى يتعلمون فيها العلوم وخاصة اللاهوتية. انظر: مروج الذهب، جـ١، ص٣٦٠–٣٦١، فضائل مصر وأخبارها، ص٦٥، حاشية (٩)، معجم البلدان، جـ١، ص٥٣٢ .

١١٦ – الخطط، جـ١، ص٣٧ .

١١٧ –آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٣٩ .

١١٨– الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٣٥ .

١١٩– ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٩ .

١٢٠ –المقريزى: المصدر السابق، ص٣٧ .

١٢١ –ابن جبير: الرحلة، ص٦٢، المقريزى: نفسه، ص٢٣٩ .

١٢٢– دلوكة: هى الملكة دلوكة بنت زباء، رآها الوجدان الشعبى، أنها كانت ذات عقل ومعرفة وتجارب، ولها شرف عال بين نساء مصر الذين بقوا بمصر بعد غرق فرعون وأصحابه، وقد ملكت مصر ثلاثين سنة، وكانت تبلغ من العمر ١٦٠سنة. لمزيد من التفاصيل عنها راجع: فتوح مصر، ص٤٧، ص٤٩، الخطط، جـ١، ص١٩٩، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٣٤، الأقفهسى، كتاب أخبار مصر، ص٦٦ .

١٢٣ –ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص٤٨، القزوينى: آثار البلاد، ص١٣٩، المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٣٥٩، الحميرى: الروض المعطار،

www.alkottob.com

ص١٦-١٧ .

١٢٤ -البونى: شمس المعارف الكبرى، ص٤٨بم ١٢٥٥٣ -، انظر: سهير القلماوى: ألف ليلة وليلة، ص ٣١٤، ص ٣١٥؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ١٦٧، ص ١٩١ .

١٢٦ - جلال الدين السيوطى: الرحمة فى الطب والحكمة (مطبعة صبيح، القاهرة بدون تاريخ) ؛وانظر . عمرو عبد العزيز :الحضارة المصرية القديمة، ص١٧٨ .

١٢٧ - عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور(الطبعة الأولى، دار الإسلام للنشر، المنصورة٢٠٠٥م)،ص٧٣ . وانظر للمؤلف كتاب الشرقية شوارع ومدن لها تاريخ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، ص٥٥ .

١٢٨- سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص٨١ .

١٢٩ - المجريطى الأندلسى: غاية الحكيم(تحرير. محمود نصار، وتاريخ الكتاب يعود إلى ٣٤٣هـ، طبعة الهند، مكتبة أشاعت الإسلام، دهلى ١٩٠٧م)، ص٦٣ .

١٣٠ - قصة فيروز شاه :المجلد الأول، مطبعة عبد الحميد حنفى سنة ١٣٦٦هـ.

١٣١ -السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٦٥ .

١٣٢- سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص٣٣ .

١٣٣ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٤٨ .

١٣٤ - الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص٦٠، المقريزى: المصدر السابق، ص٤٤٧ .

١٣٥ - سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص٦٨ .

١٣٦ - بكتوت الرمّاح: علم الفروسية وسياسة الخيل، ص١٢٤ .

١٣٧- الخطط، جـ١، ص٢٤٨، الحميرى: الروض المعطار، ص١٨ .

١٣٨ - ابن الحاج التلمسانى المغربى (ت٧٣٧هـ):شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى (الطبعة الأولى، مكتبة محمد على صبيح، ميدان الأزهر و القاهرة ١٩٠٧م)، ص٩٥ .

١٣٩ - الخطط، جـ١، ص٣١ .

١٤٠ - الخطط، جـ١، ص٢٤٠ .

١٤١- المقريزى :الخطط، ج١بم ص٣٣؛ ديمترى ميكس وآخرون: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية(ترجمة فاطمة محمود، سلسلة الألف كتاب الثانى، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ٣٧٣؛ جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة(ترجمة: أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٦م)، صـ ٣٢٨ أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط. الثانية، القاهرة، د.ت) ص٣٣٧ .

١٤٢- آنا رويز: روح مصر القديمة، ص١٣٥ .

١٤٣ - أدولف إرمان :ديانة مصر القديمة (ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محمد شكرى، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)،ص٤٣ .

١٤٤ - أحمد بن سليمان(ت٩٤٠هـ) :رجوع الشيخ إلى صباه فى القوة والباه (دار الكتاب العربى، دمشق بدون تاريخ)، ص٣٣ .

١٤٥- سليمان حسن :الرموز التشكيلية فى السحر الشعبى، ص١٦٠ .

١٤٦ - سعد الخادم: الفن الشعبى، ص٩٦ .

١٤٧ -الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، صـ ٣٥ .

١٤٨- القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣ ص٣٢٣ .

١٤٩- نفسه، ص٣٢٤ .

١٥٠-المسلات: حجر طويل مستدق يشبه القلم رأسه هرمية الشكل، كانت على علاقة بعبادة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها وتسمى OBELISK.

١٥١- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، صـ ٢١٠؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣ص٣٢٤ .

١٥٢ - القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٢٥؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، ص١٢١ .

١٥٣ - ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، ص١٢١ .

١٥٤ - سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص١١٨ .

١٥٥- الهيروغليفية: النقش الهيروغليفى" Hieroglyphs كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور حوالى سنة ٣١٠٠ ق.م وظلت مستخدمة حتى العصر

www.alkottob.com

الرومانى، وهى مزيج النطق (خواص الصوت أى الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساساً فى كتابة النصوص الأدبية والدينية، كما يوجد ما يسمى بـ "الخط الهيراطيقى"، هو خط متشابك (متصل / متطور عن الهيروغليفية استخدم فى كتابة الوثائق القانونية، وفى مجال =الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه فى ذلك الخط الديموطقى، والخط الديموطيقى أيضا، خط متشابك (متصل) الحروف تطور عن الهيروغليفى فى القرن السابع الميلادى، وكان يستخدم فى المعاملات الرسمية الجارية لتسهيل الشئون الإدارية، وكان منتشراً مع الهيراطيقية والهيروغليفية: كلير لالويت، الفن والحياة فى مصر الفرعونية(ترجمة / فاطمة عبد الله، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٣٧٠، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٣٧٩؛ بريان فاجان: نهب آثار وادى النيل، (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الاسرة، القاهرة٢٠٠٣م.) ص٢٤٠بم.چيمز: الحياة أيام الفراعنة، ص١٢٧ .

١٥٦ – أميط اللثام عن بعض الدراسات تتحدث عن المكتشف الحقيقى للغة المصرية القديمة الهيروغليفية وهو ابن وحشى النبطى أبو بكر أحمد بن على بن وحشية الذى كان عالماً بالعلوم الخفية والفلاحة والكيمياء والسموم والفلك والأقلام القديمة والسحر والحيل وغيرها، والذى خلف أكثر من خمسين كتاباً على وجه التقريب، وعاش فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه (شوق المستهام فى معرفة رموز الأقلام) الذى تضمن نحواً من تسعين قلماً من أقلام اللغات القديمة وأقلام التعمية، بينها أقلام الهيروغليفية الثلاثة، وقد نشر الكتاب المستشرق النمساوى جورج همر فى لندن سنة ١٨٠٦م بالعربية والإنكليزية مع دراسة مهمة نبّه فيها على أهمية الكتاب فى كشف اللغات القديمة، والهيروغليفية خاصة، وقد تأكد أن شامبليون الذى نُسب إليه اكتشاف اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد بنصوصها الثلاثة عام ١٨٢٢م أى بعد ١٦ سنة من صدور كتاب ابن وحشية قد اطلع على انتاج ابن وحشية و الكتاب له نسخ خطية كثيرة موزّعة على مكتبات العالم: باريس ولندن والنمسا وإيران وتركيا. وقد صدر الكتاب ضمن سلسلة "نصوص ودراسات"، ويصدرها المعهد الألمانى

للأبحاث الشرقية فى بيروت والذى يتخذ من اسطنبول مقراً له الآن .انظر: جمال الغيطانى: ملامح القاهرة فى ألف عام، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٢٣٧ .

١٥٧ – سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات (الجزء الأول، ترجمة: أحمد محمود، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٩٩٣ القاهرة ٢٠٠٦م)، صـ١١ .

١٥٨ –اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) (ت ٢٨٤ هـ): تاريخ اليعقوبى(المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م)، ص ١٨٧ .

١٥٩–مروج الذهب، ج١، ص ٣٥٠، ص ٣٥١ .

١٦٠ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣١٦؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص ٧٤ .

١٦١– المسعودى: مروج الذهج،١بمص ٣٦٠؛القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣بمص ٣٢٣ ؛ أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٦٢٢ .

١٦٢ –البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ٩٢ .

١٦٣ –أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص ٢٨ .

١٦٤ – الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤١ .

١٦٥ –سكردان السلطان، ص ٤٥٩ .

١٦٦ –الغرناطى: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٥٠ .

١٦٧–السبتى: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ١٦٦، ص ١٧٠ .

١٦٨ – المقاييس: الغرض منها قياس مستوى النهر فى كل مكان هام و بغية العلم بمقدار ما يجرى فى النهر من ماء فى كل جزء من أجزائه، وهو ما اصطلح على تسميته تصرف أو تصريف النهر . لذلك كان وجود مقياس ثابت يسجل مستوى النهر فى كل وقت أمراً لازماً لقياس تصرف النهر بانتظام . ولابد أن يكون المقياس مثبتاً إلى جانب النهر تثبيتاً متيناً بحيث لا يتزحزح لأى ظروف طارئة . أيضاً على كل مقياس بيان بالارتفاعات المختلفة، وهذه الارتفاعات تقاس بالنسبة إلى نقطة الصفر المصطلح عليها . ونقطة الصفر فى المقاييس الواقعة فى مصر من أسوان إلى الدلتا هى مستوى سطح البحر المتوسط . لمزيد من التفاصيل انظر: محمد عوض

www.alkottob.com

محمد: نهر النيل، ص٢٥٣-٢٥٦بم الأقفهسى :كتاب أخبار نيل مصر، ص٦٧.

١٦٩ – قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة ١، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م)، ص ٤٠ .

١٧٠ –السيوطى: كوكب الروضة من تاريخ النيل وجزيرة الروضة، (تحقيق: محمد الششتاوى، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ١٤٦، القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٣؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٤٣٣؛الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص٧ .

١٧١ –القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤؛ابن سعيد الأندلسى:النجوم الزاهرة فى حُلى حَضْرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة(تحقيق:حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م) ص٣٨١ .

١٧٢ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٤ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣بم ص٢٩٤ .

١٧٣– ابن سعيد الأندلسى: النجوم الزاهرة فى حُلى حضرة القاهرة، ص٣٨١ .

١٧٤ –الأسعد بن مماتى: قوانين الدواوين(تحقيق: عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣م)، ص ٧٥، ص ٧٦ .

١٧٥ –چون أنتيس:مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر(١٧٧٠-١٧٨٢) ترجمة سيد الناصرى، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد٢٢ القاهرة ١٩٩٧م) ص١١٠ .

١٧٦ –من الأساطير التى تتردد إلى يومنا هذا عن أحد الأولياء وهو (الشيخ إبراهيم الدسوقى) ملخصها: "أن تمساحاً ضخما ابتلع طفلاً صغيرا، وقد لجأت أم الطفل إلى ولى الله إبراهيم الدسوقى، وطلبت منه أن يحضر لها طفلا، فما كان من الولىّ إلا أن خرج إلى البحر (فرع رشيد) الذى تحول فيما بعد عن المسجد، وطلب من التماسيح أن تخرج له التمساح الذى ابتلع الطفل فحضر هذا التمساح، وطلب منه الولى إخراج الطفل، فخرج الطفل من بطن التمساح حياً وقد عاقب الولى التمساح، فقتله، حتى يريح الناس

من شروره. للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فاروق أحمد مصطفى، الموالد دارسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر(سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٩٦، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ١٨٠-١٨١ .

١٧٧– أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٣٤١ .

١٧٨ – ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور، ص٢٢ .

١٧٩ – سليمان حسن :الرموز التشكيلية، ص٧٩ .

١٨٠ – أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، ص٥٤ .

١٨١ – تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره، مصدر سابق، ص١١٢ .

١٨٢ –ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٤٧ .

١٨٣ –الظاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. (تحقيق: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٥م)، ص ٢٧ .

١٨٤ –أولياچلبى:المصدر السابق، ص٢٤٥ .

١٨٥–نفسه، ص ٢٤٦ .

١٨٦ –البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ١٠٣ .

١٨٧ – أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٦٢٠ .

١٨٨ –القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ١٤٦، ص ١٤٧؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ١٠٠ .

١٨٩ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ١٦٠ .

١٩٠– المقريزى: الخطط، ج١، ص ١٦١ .

١٩١ –محمد رجب النجار، دراسة المأثورات الشعبية فى التراث العربى(مجلة عالم الفكر، المجلد الحادى والعشرون، العدد الثانى)، ص ١٨٢، ص ١٨٣ .

١٩٢ – أسطورة عوج بن عناق: ترددت فى التراث الشعبى الشفاهى، كما ترددت فى كتابات المؤرخين والمفسرين فى التراث العربى المدوّن وارتبطت بقصة الطوفان كما ارتبطت بخروج بنى إسرائيل من مصر، ودخولهم إلى أرض كنعان . وعنه يذكر ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ) فى تاريخه عن الأمم والملوك، عند حديثه عن الطوفان أنه :"لم يبق شىء من الخلائق إلا نوح ومن معه فى الفلك، وإلا عوج بن عنق فيما يزعم أهل الكتاب ". وذكره القزوينى فى كتاب عجائب المخلوقات تحت

www.alkottob.com

باب :"خاتمة فى حيوانات غريبة الصور والأشكال ". فيقول:"كان الطوفان يصل إلى وسطه . وكان جباراً فى خلقته مفسداً فى أفعاله، وإذا غضب على أهل بلد بال عليهم فيغرقون فى بوله .. وقد ضربه موسى بعصاه ' فلم يلحق إلا كعبه فانصرع قتيلاً إلى الأرض، فكانت فخدة ساقه زماناً طويلاً قنطرة على النيل". القزوينى :عجائب المخلوقات، ص١٩٧.وانظر قصته فى سفر يشوع (١٢/٤-٥)،سفر العدد(٢١/٢٣-٢٤-٢٥).

١٩٣ -ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٧٨٢، ٧٨٣ .

١٩٤-قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٩ .

الفصل الثالث

كنوز مصر القديمة فى التاريخ والأسطورة

www.alkottob.com

"ويقال إن غالب أرضها ذهب مدفون . حتى قيل إنه ما فيها موضع إلا وهو مشغول بشيءٍ من الدفائن "

ابن الوردى

"خريدة العجائب وفريدة الغرائب٣٢"

" ..ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر، من الترف والغنى فى عوائدهم، ما يقضى منه العجب، حتى أن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر؛ لذلك لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر، أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة، وإيثاراً من جميع أهل الأرض.. "

ابن خلدون

"مقدمة ابن خلدون ٢/٨٠٥"

www.alkottob.com

القصص والحكايات التى دارت فى المجتمع المصرى عن كنوز قدماء المصريين التى كانت مخبأة فى مقابرهم ومعابدهم – والتى ما تزال تكتشف كل حين إلى الآن – فقد كان بعضها حقيقيا، على حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة، وقد أوردها تقى الدين المقريزى تحت عنوان "ذكر الدفائن والكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب"(١)، وهى تسمية تكشف على أية حال عن أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان(٢).

ويعرج بنا المقريزى إلى أحد العلوم التى تأسست فى مصر بفضل كنوزها وهو "علم الكنوز" وأن مفاتيح هذا العلم مخبأة فى كنيسة القسطنطينية فى إشارة ربما للحث على ضرورة فتح القسطنطينية فيذكر: "... ويقال أن الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيراً من أموالها فى مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتباً بإعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك، وقيل أن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، والكلدانيين، والقبط، فلما خرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها فى الكنيسة"(٣).

وبهذا يقدم لنا المقريزى مصطلحاً كما دعاه "علم الكنوز" ووصفه بأنه وثائق كتبت فيها الأماكن التى أودعت الأموال والذخائر، نقلها الروم لما خرجوا من مصر والشام وأودعوها كنيسة القسطنطينية. واختلفت الآراء فى أصل تلك الوثائق؛ فرأىٌ يقول أنها وثائق الروم ورأىٌ يقول أنها آلت إليهم عن ملوك وحكام البلاد التى استعمروها

من القبط واليونانيين والكلدانيين، وربما أمكن الربط بين هذا الرأى وبين ما هو معروف عن أمر البرديات التى عثر عليها والتى حملت إلى أديرة أوربا وكنائسها، وأن هذا الأمر يعود إلى زمن بعيد.

وكان انتشار أخبار تلك الكنوز وظهورها كفيلاً بأن يحاول الخيال الشعبى فى مصر لتفسير أسباب وجودها، فيقول السيوطى: "إن فرعون كان يدخر من خراج مصر ربعاً، حيث يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها،فيدفن ذلك فيها لنائبة تنزل أو حائجة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذى يدفن هى كنوز فرعون التى يتحدث الناس أنها ستظهر فيطلبها الذين يبتغون الكنوز .."(٤)، رآها البعض أنها :"كنوز يوسف (وكنوز الملوك قبله والملوك بعده لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات و المؤن لنوائب الدهر.."(٥)كما ذكر البعض أن: "القوم كانوا على دين التناسخ، فاتخذوا الأهرام علامة لعلهم عرفوا مدة ذهابهم ومجيئهم إلى الدنيا بعلامة ذلك..."(٦)، ورأى الخيال الشعبى أن سبب وجود تلك الكنوز هو: "أن أهل مصر لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضى، ويدفنون أموالهم فى الأرض.."(٧) كما أن مصر:"من بين الأمصار فما برح نقدها (المنسوب إلى قيم الأعمال وأثمان المبيعات) الذهب خاصة،كل سائر دولها جاهلية وإسلاماً يشهد لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر فى قديم الدهر حديثه إنما هو الذهب"(٨).

ما يهمنا هو أن محاولة تفسير وجود الكنوز فى مقابر المصريين القدماء أضحى مرتعاً لخيال المؤرخين والناس فيما سمعوه وما دونوه معتمدين فى ذلك على ما نقلوه من كتب القدماء، وما جمعوه

www.alkottob.com

من الموروث الشعبى المتداول بيد أن بعضهم كاد أن يقترب من الحقيقة والتى ترتبط بعقيدة المصريين القدماء فى الموت والحياة الأخرى، وفكره الخلود، طقوس الدفن،والتى لم يتم التعرف على تفاصيلها سوى منذ فترة قصيرة نسبيا؛ حيث فلسفة عقيدة الخلود لدى المصرى القديم والتى كانت نتاجاً طبيعياً لتأثير عوامل سياسة واجتماعية واقتصادية على العقل المصرى، بحيث دفعته إلى إبداع تصوراته عن عالم خالد أثر فى رؤيته للحياة تأثيراً عميقاً عاش فيه حتى اليوم.

ظلت كنوز مصر التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم: (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) (الشعراء / ٥٧، ٥٨)، ظلت مرتعاً ومراحاً للخيال الشعبى الشغوف بكنوز السالفين وخاصة مع تواتر أخبارها فى الكتابات التاريخية وغيرها، وحاول أن يتصور حجم تلك الكنوز ومثال ذلك ما قيل عن أن: " فى تلك الأهرام فنوناً من الذهب والفضة والكيمياء والزبرجد الرفيعة والجواهر النفيسة ما لا يحصله وصف واصف..."(٩)، وأن بها الكثير:"من التماثيل والعلوم والعجائب،والجواهر والأموال " وأن: "كنوزها لا تحصى"(١٠)، لدرجة أن أولياجلبى يقول: "وتحتوى الأراضى المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة، وخبايا كثيرة، ومطالب عزيزة. وقد روى أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفى"(١١)، إذ أن فيها من: "المطالب والكنوز ما لا يحصى له عدد..(١٢)، ولهذا: "استخرج أهل مصر والإسكندرية من كنوزها وأموالها شيئا كثيرا، وقد استغنى بها بشر كثير هلك أكثرهم..." (١٣) .

يكشف ابن خلدون عن الأصل فى وجود ما عرف بـ "المطالب"(١٤) فيشير إلى معتقدات المصريين القدماء "القبط" بقوله: "... وأما ما وقع فى مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر فى ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدور، فلما انقضت دولة القبط، وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك فى قبورهم، وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف، كالأهرام من قبورهم مظنة لذلك العهد، ويعثر على الدفين فيها فى كثير من الأوقات ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم فى الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك. فصارت قبور القبط منذ آلاف السنين مظنة لوجود ذلك فيها واستخراجها، حتى أنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة، ضربت على أهل المطالب، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهووسين"(١٥)

ويتحدث ابن عبد الحكم عن الأمر فيقول: "زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذى كان يعمل به مصر على عهد ملوكها، أنهم كانوا يقرون القرى فى أيدى أهلها، كل قرية بكراء معلوم، لا ينقص عليهم إلا فى كل أربع سنين من أجل الظمأ، وتنقل اليسار، فإذا مضت أربع سنين نقص ذلك، وعدل تعديلاً جديداً، فيرفق بمن يستحق الرفق، ويزداد على من يحتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جُبِىَ الخراج وجُمِعَ وكان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به ما يريد، والربع الثانى لجنده ومن يقوى به

www.alkottob.com

على حربه، وجباية خراجه، ودفع عدوه، والربع الثالث فى مصلحة الأرض، وما يحتاج إليه من يسورها، وحفر خلْجها وبناء قناطرها، والقوة للمزارعين على زرعهم، وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج من ريع ما يصيب كل قرى من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه تنزل أو جائعة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذى يدفن فى كل قرية من خراجها هو كنوز فرعون التى تتحدث الناس بها أنها ستظهر، ويتطلبها الذين يتبعون الكنوز ..."(١٦)

ويسترعى الانتباه ما تورده الروايات السابقة من أخبار التماس الناس وشغفهم بكنوز مصر وحرصهم على استخراجها، حتى صار ذلك حرفه يحترفها بعض الناس، وانتهى الأمر بأن فُرضت على العاملين فى هذا المجال المكوس والضرائب، كما تعطى لنا الروايات إشارات لما تصوره المؤرخون عن أخبار ذلك التنظيم الدقيق لأمور مصر ومرافقها على أيدى ملوك مصر القديمة، كدليل على إحساس المؤرخين بعظمة تلك الحضارة القائمة آثارها، وتصوروا أن وراء تلك الآثار كان لا بد من وجود إدارة حاكمة تراعى الرفق بالرعية والعناية الشديدة بأمر الأرض والبشر؛ من إصلاح وتسوير، وحفر الترع والخلجان، وما كان يخصص لذلك من أموال، ثم ذلك التحسب والاستعداد لمواجهة الكوارث والنوائب التى قد تقع وتخصيص الأموال الكافية لذلك، وادخارها فى كل موقع على حدة، كما يلاحظ أن ابن عبد الحكم فى روايته؛ قد جعل الأصل فى وجود الكنوز والمطالب تلك الحصة منذ الأموال التى كانت تدفن فى كل قرى تحسبا للكوارث والنوائب، بينما اقترب ابن خلدون من بعض الحقائق

التاريخية حين أشار إلى أن عقيدة المصريين هى التى دفعتهم لدفن كنوزهم معهم، وأشار لذلك ابن ظهيرة فى قوله: "كانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا من كان وإن كان صانعا دفنت معه آلته.."(١٧).

روايات المؤرخين عن دفن الأموال تحسباً لنوائب الدهر، تكشف لنا عن التطور التاريخى والاجتماعى فى شخصية الشعب المصرى، الذى عمد إلى إخفاء ما يراهذاقيمة لديه بعيداً عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التى تبرز شخصية الناس فى مصر بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت والذى دفع الناس إلى عمل الحفر العميقة؛ لإخفاء أموالهم، لدرجة أثارت انتباه المؤرخين فى قول أحدهم: "إن أرض مصر لا يوجد بها ذراع مكية واحدة خالة من كنز من الكنوز القديمة، ويظهر فيه كل سنة حتى الآن دفائن عدة وكنوز ثمينة"(١٨)

لأن أهلها لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضى ويدفنون أموالهم فى الأرض"(١٩)، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة، عن القدور التى يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة، ضربت فى عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهى (إخراج ما تحت البلاطة) وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخى للبلاد، وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءاً من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر(٢٠)بم

www.alkottob.com

وقد لفتت نظر المؤرخ الإسحاقى رواية تؤيد ما ذهبنا إليه،حتى أنه أوردها بالكامل،ليدخل بها إلى صميم التاريخ العربى لمصر من بوابات الأسطورة فيقول :

" عندما دخل عمرو بن العاص، قال لقبط مصر: من كتم كنزاً عنده لأقتلنَّه، وحدث أن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس علم عمرو أن عنده كنزاً . فأرسل إليه فسأله عنه، فأنكر وجحد فحبسه، وصار يسأل عن أحد فقالوا له لا، ولكن سمعناه يسأل عن راهب فى الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب إلى ذلك الراهب أن أبعث لى بما عندك، وختم الكتاب بختم بطرس فجاء المرسل بقلة شامخة مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها مكتوباً: مالكم تحت الفسقية الكبيرة، فأرسل عمرو إلى دار بطرس وحبس الماء عن الفسقية فوجد فيها اثنين وخمسين إردب ذهب مضروبة، فضرب عمرو رأس بُطْرس، وأخذ المال جميعاً فعند ذلك أَخْرَجت القبط كنوزهم شفقة على أنفسهم .." (٢١) ، ولا نسوق هذا النص للتدليل على أن عدداً من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة، وإنما لنشير إلى تداخل عناصر عديدة لإخفاء الأموال لدى العامة – خاصة الفقراء والطبقة المتوسطة ـ مع العامل السابق كالخوف من طمع وبطش الحاكم أو الخوف من الحسد وطلب الستر وما إلى ذلك، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحياناً، وإذا أضفنا تراث التَقيَّة الفاطمى أو الشيعى (التقية بتشديد مع فتح التاء والياء) إلى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب، وتقضى التقية أن يكتم المرء (ذهبه ومذهبه وذهابه)(٢٢) أى لا يبدى

أو لا يظهر أياً منها، وربما أسهمت الحركة الديرية المصرية هرباً من الاضطهاد البيزنطى فى تعميق ذلك أيضاً. وحسْبُنَا ما أشار إليه موفق الدين بن عثمان فى قوله: "قال بعض المؤرخين: كان رجلٌ بمصر يسمى عفان بن سليمان المصرى، قد وجد فى داره مالاً مدفونا، فصار عفان يتصدق من المال على الفقراء"(٢٣).

ولعلنا نعى أن فكرة اكتناز الذهب عند المصريين ارتبطت أيضاً بأفكار دينية وخواص سحرية؛ يتضح ذلك حين نعلم أنه كان للذهب فى الديانة المصرية، معدناً سماوياً مقدساً ذا تداعيات سحرية قوية . فهو ؛ أولاً :يشبه بلونه وبريقه قرص الشمس، وهو معدن لا يفسد ولا يصدأ ارتبط بالدوام والخلود . لذلك عنى المصريين بأن يعطوا توابيتهم ورموزهم الدينية والجنائزية الكثير من ذلك (الذهب النقى). ومن أقدم الأزمنة ارتبط الذهب ارتباطاً وثيقاً بعبادة هاتور، إلآهة السماء التى عبدها (الشعب) فى كنعان باسم (ملكة السموات) واشتكى يهوه لحزقيال من أن نساء الشعب يصنعن التقدمات لها . ومن ارتباط عبادة هاتور بالذهب، دعيت فى النصوص المصرية باسم السيدة الذهبية و (الإلآهة الذهبية)، أو – إعزازاً – باسم (الذهب) كما دعى حورس باسم (حورس الذهبى)، ولما كان الفرعون قد اعتبر ابناً للإله الشمس رع، فإنه وصف بأنه "جبل الذهب الذى يشع على العالم كله" . ومن استخدام الذهب فى صنع التوابيت المصرية ليمنح من يوضع فيها سحره، دُعيت حجرات الدفن الملكية وأماكن صنع التوابيت بـ"بيوت الذهب" . ولقد كانت معظم سرقات المقابر بسبب ذلك الذهب الكثير الذى "وُشيت" به التوابيت، ولم يبق من التوابيت

www.alkottob.com

الملكية ما احتفظ بكل ما وُشى به من ذهب إلا تابوت توت عنخ آمون الذى سحر العالم المعاصر بروعته .

وقد شاع استعمال الحُلى الذهبية للغاية فى أنحاء مصر، وارتداها الرجال والنساء والأطفال من مختلف الطبقات الاجتماعية . واستخدمت كزينة شخصية، كما استخدمت فى الأعمال الجنائزية، لإضافة لون إلى الثوب الكتانى الأبيض الفاتح، وبما يشير إلى مرتبة المتوفى . كما استخدمت بشكل أساسى لأغراض السحر فى صورة تمائم رمزية حارسة . ظهرت بوضوح فى تيجان الذهب الملكية حيث ظهرت فى مقدمة التاج الأفعى الملكية المنتصبة "أوراكوس" . ولم يكن يرتدى الكوبرا المقدسة "أوراكوس" سوى الأسرة الملكية، حيث أن ارتداءها فى وضعها المنتصب فوق الحاجب، يجعلها تحمى الفرعون، رمزياً وتنفخ النار فى وجه من يقترب منه من الأعداء(٢٤).

وقد كانت مصر المصدر الرئيسى للذهب فى العالم القديم، إذ كان المصريون يستخرجون كميات كبيرة منه من مناجم النوبة التى دعيت بذلك الاسم اشتقاقاً من اللفظة المصرية (نوب)أى (الذهب) . ولم يكن الذهب مطلوباً لدى المصريين، بل ولدى بعض العائلات المالكة الصديقة للفراعنة، ليس لكونه معدناً ثميناً وجميلاً فحسب، بل ولما اتصف به فى معتقدات المصريين التى شاعت بين الشعوب المجاورة من قيمة دينية وخواص سحرية، اشتقاقاً من خلود الإله واعتبار الذهب (لحم الإله)"رع" إله الشمس ؛ ولأنه يرمز إلى الشمس، قدره المصريون تقديراً كبيراً . ولذلك لم يكن اكتناز الذهب بقصد الثراء الدنيوى فحسب، بل وبهدف الثراء الدينى أيضاً؛ لأن

امتلاك الذهب اعتبر مما يُكسب مقتنيه فضلاً لدى الآلهة فوق ما يمنحه إياه من صحة وعافية وعمر طويل فى الحياة، وما يزوده به من قوى تتزود بها الروح فى مسعاها صوب البقاء، بعد الممات. (٢٥)

وقدمت لنا النصوص التاريخية – دون قصد – وصفاً لهيئة "المطالبية" الذين احترفوا مهنة البحث عن كنوز مصر ودفائنها، يشير إليهم البلوى كاتب سيرة أحمد بن طولون بقوله: "وحدث نسيم الخادم قال: ركب مولاى – أحمد بن طولون ـ يوما إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، وفى أيديهم مساح ومعاول، فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم، لا تخرجوا بعد هذا الوقت إلا بمنشور رجل من قبلى يكون معكم، فقالوا له :سمعاً وطاعة للأمير أيده الله . فسألهم عما رُفع إليهم من الصفات فذكروا له أن فى سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون فى إثارته إلى جمع كبير ونفقات واسعة فإن فيه مالاً عظيماً . فنظر مولاى إلى شيخ من أصحابه يعرف بالرافقى من أهل الثغر فضمه إليهم، وتقدم إلى عامل معونة الجيزة فيدفع جميع ما يحتاجون إليه من الرجال والنفقات."(٢٦)

كان "المطالبية" إذاً جماعة من الناس لهم ثيابهم الخاصة، ومعهم أدواتهم التى يستعينون بها على أداء عملهم "المساحى" و " المعاول" يطلبون المطالب، وكانوا قد تجمعوا وكونوا فريقاً يمارس عمله بعيداً عن أعين الحاكم، إلى أن علم بذلك أحمد ابن طولون، فأمرهم ألا يمارسوا عملهم ذاك إلا بعد أن يأذن لهم، ويعيِّن من رجاله من يراقب عملهم، ويمكن القول: أن هذه أول إشارة إلى ما يمكن اعتباره

www.alkottob.com

تنظيما رسميا لعملية التنقيب عن المطالب "الكنوز والآثار".

وهكذا، أصبح البحث والتنقيب يمارس تحت سمع وبصر الحاكم، إضافة لذلك فقد كشفت لنا الكتابات التاريخية حجم المحنة التى واجهت الآثار المصرية من جراء ما قام به الناس وشاركهم فى ذلك الحكام، وشراهتهم فى البحث عن الآثار والتنقيب،والعبث بها، لا حباً فى كنوزها فحسب بل سعياً وراء أحجار المعابد والمبانى الأثرية القديمة، لاستعمالها فى بناء مساجدهم وعمائرهم، والحق أن هذا العبث لم يكن جهلاً منهم بقيمة تلك الآثار ودلالتها العظيمة فحسب؛ ولكنهم وجدوا فيها مصدراً للثروة والمال الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه لتعمير المدن والأمصار،وتشييد العمائر وإعداد الجيوش،بفضل كنوز مصر التى اشتهرت بها. لدرجة أن ابن الوردى يلمح إلى ذلك بقوله: "مصر خلد الله ملك سلطانها، من خصائصها كثرة الذهب والدنانير، وكان يقال فى المثل السائر ما معناه: من دخل مصر ولم يستغن فلا غناه الله.."(٢٧)، "فخراج مصر فى قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب"(٢٨)

كما كان العبث بدفائن المصريين القدماء إلى جانب الذهب والكنوز هو الاعتقاد الذى شاع فى العصور الوسطى بين عدد من الشعوب؛ بأن قليلا من طحين أو مسحوق، مومياء مصرية قديمة كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية، وقد أشار إلى ذلك (الحميرى) فى سياق حديثه عن مدينة قوص بقوله: "منحوت فى جبال منها قبور الأموات، لا يعلم لها عهد. تستخرج منها المومياء الطبية، وهم يجدونها فى رممهم وبين أكفانهم"(٢٩)بم وكان الطبيب

العربى ابن سينا هو الذى ذكر المومياء ودافع عن استخدامها فى علاج عدد من الأمراض منها :" الخُرَّاج والطفح الجلدى والكسور وارتجاج المخ والشلل، واضطراب نبض القلب واضطرابات الطحال والكبد " وكانت وصفته ينبغى أن تُؤخذ (على فرض جعل طعمها سائغاً) فى خلطة من النباتات مثل: البردقوش، والزعتر، والبلسان، والشعير والعدس والزعفران والقرفة الصينى والبقدونس . ووردت وصفة ابن سينا عن مسحوق المومياء ضمن DE VIRILEUS CORDIS فى قائمة مكتبة سان ماركو فى فلورنسا، سنة ١٤٤٤م. ومنذ القرن الحادى عشر كان بعض العلماء العرب الكبار، يعزون قيمة المومياء العلاجية إلى اللحم المحنط فعلاً وقد شاع هذا المفهوم عن المومياء فى أوربا العصور الوسطى، وقد ذكر استخدام المومياوات كعلاج "جاى دى شايللاك" GUY DE CHAVILLAC، الذى كان جراح البابا كليمنت السادس سنة ١٣٦٣م. ولاقى هذا العلاج شعبية واسعة،وكان مادة قيمة من مواد التجارة،ويباع عبر أسواق المسكنات وعلاج الجروح. وصارت الجبانات المصرية القديمة مقصداً جديداً كان يذهب إليه بعض المسافرين إلى القاهرة بحثاً عن بضائع القبور والمومياوات قبل وبعد القرن السادس عشر فصاعداً.(٣٠)

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص التى تصور اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب والدفائن، ومشاركتهم فى البحث عنها وما اكتنف ذلك من أخطار وأحداث مثيرة امتزجت فيها الوقائع والحقائق بالخيال فى تعانق حميم، وأخذ المطالبية يعثون

www.alkottob.com

فى الأرض فساداً وفى الآثار تخريباً بحثاً عن الكنوز والدفائن، واتخذوا من تجارتهم حرفة تدر عليهم الرزق من أسهل الطرق وأحقرها. لدرجة أثارت سخط وحنق بعض المؤرخين والرحالة، فقد وصف أحدهم ذلك العدوان الجائر بقوله: " وقد كان هذا البيت – المعبد – مُمكناً على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة، فحفر نحتها الجهلة والحمقى طمعا فى المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه.."(٣١)

هذا الوعى الحضارى النادر بين علماء ذلك الزمان، والذى أملته على البغدادى نزعته العلمية الغيورة على آثار الحضارات القديمة المجسدة لأسرار التاريخ الإنسانى. لم يستمر للأسف، إذ عادت الجهالة والخرافة وضيق الأفق إلى صدارة الوعى التاريخى عند الولاة والحكام وعامة الناس.

ويمكن القول أن من أحد أسباب العدوان الجائر على آثار مصر هو الأخبار الرائجة عن "المطالب"، والتى وصلت للناس عبر الأساطير والحكايات الشعبية والأخبار عن حضارات العالم القديم، وكنوزها المخبوءة فى باطن الأرض، والذى يمكن لعارفى علوم الأقدمين والسحرة الوصول إليها. ويقف بنا البغدادى على أسباب هوس الناس بهذه الآثار فى قوله: "رأوا آثارها الهائلة وراعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها، وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء فى قلوبهم؛ وهو الدينار والدرهم ..."(٣٢) وعرض البغدادى لمظاهر الخرافات والأساطير التى سيطرت على ألباب وقلوب الناس فيما يتعلق "بالمطالب" بقوله: "كل شيء رآه ظنه

قدحاً، وأن رأى ظل شخص ظنه الساقى فهم – يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب، وكل شيء مفطور فى جبل أنه يفضى إلى كنز، وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه، وهو مهلك عليه، فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال، ويخاف منها التلف، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمار أنها صناديق مقفلة على ذخائر، ويسربون فى فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها، وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها"(٣٣).

وقد أدى نهم الناس وأحلامهم فى الثراء السريع بفضل هذه المطالب إلى أزمة اجتماعية واقتصادية صبت فى خانة الخصم من رصيد المجتمع المصرى الأخلاقى وليس الإضافة إليه إذ يقول البغدادى: "... من كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك – المطالب – ومن كان فقيراً قصد بعض المياسر، وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها له، وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه، وعلامات يدعى أنه شاهدها حتى يخسر عقله، وماله، وما أقبح بعد ذلك مآله ..."(٣٤)

ويكشف لنا (ابن خلدون) إلى أى حد سيطرت الخرافة والأساطير على عقول الناس فيما يتعلق بالبحث عن الذات من خلال المال والثراء للخروج من شرنقة الفقر المدقع والقمع الذى يعانى منه الناس من جراء سطوة الولاة والحكام. فيقول: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول فى الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم

www.alkottob.com

سحرية، لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله، من البخور والدعاء والقربان"[٣٥] ، ويوضح أن الدافع وراء ذلك أنهم :" يترقبون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشى إما بخطوط عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الأمارات عليها فى أماكنها يبتغون بذلك الرزق بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا حتى يكونوا بمأمن من منال الحكام والعقوبات... فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدى على الاحتفار، والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدولة، فإذا لم يعثروا على شىء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذى ختم به على ذلك المال ويخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم.."[٣٦] ، ويضيف ابن خلدون إلى أسباب هذا السعى وراء ذلك الوهم البعيد إلى أن: "الذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل؛ إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية، للكسب عن التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة .. ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه فى نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم بابتغاء مع ذلك لمنال العقوبات..."[٣٧]. وما يهمنا هنا هو وقوف الرحالة ابن خلدون والبغدادى على مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية والقديمة من ناحية، كما ألمح ابن خلدون إلى شيوع أوراق قديمة بها كتابات وكلمات غريبة ،وربما هى نفسها الكلمات الشائعة فى مصنفات السحر الشعبى، والتى يقال إنها سريانية أو عبرية، وهو

تقليد سائد فى مصنفات السحر الشعبى إمعاناً فى الغموض والدلالات غير المباح بها، مما يضفى على النصوص صفة الترميز والتشفير.

ومحاولة إماطة اللثام عن هذه الرموز يعد ضرباً من العبث، وطريقاً ملغوماً بالمخاطر ؛ ولذلك نجد أن أصحاب المصنفات المتعلقة بالسحر الشعبى دائماً ما يلغزون وصفاتهم، وكلامهم فى ذلك مُغلق بأقفال الرموز، ليس على ظاهرة ولا على نسق واحد متتابع على تركيب العمل، فهم يضعون الجمل فى غير موضعها، ولم يذكروا فى مصنفاتهم عملاً كاملاً، وهم يقولون فى ذلك إنهم رمّزوه وأخفوه حتى لايقع فى يد فاسق أو جاهل، واتكالاً على وضوحها فى غير مكانها للحكماء . فقد أخذوا العهد على أنفسهم بذلك ليحملوا الطالب على أخذها من أربابها، كما عاهدوا أنفسهم أن لا يعطوها إلا لمن يكون أهلاً لها، فلا يقع على علومهم إلا الحكيم الحاذق، وهم فى ذلك يضعون شروطاً على رأسها شيخ الطريقة [٣٨]بم وقد أكد أرباب هذه الصناعة على ذلك فقالوا "اطلبوا شيخ الحكمة ولو لم يكن تقياً، "وقال بعضهم [٣٩]:

ولابد من شيخ يريك شخوصها ×××لتفريقها بالعين والاسم أقطعُ
وإلا فنصف العلم عندك حاصل×××ونصف إذا حاولته يتمنعُ

أضف لذلك أن الروايات التى سبقت تكشف عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى دفعت بالناس إلى العبث فى ركام الماضى للنجاة من قسوة حاضرهم ومستقبلهم مستعينين فى ذلك بالخرافات والأساطير التى يستحضرونها لملء فراغ الجوع، فيقول

www.alkottob.com

ابن خلدون موضحا إن: "من سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر، وما فى معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء، هكذا بلغنى عن أهل مصر فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه، لما يرونه أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها فى مجارى النيل، وأنه أعظم ما يسترد دفيناً أو مختزنا، فى تلك الآفاق، ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة فى الاعتذار عن الوصول إليها بحرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص بما مع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه، من هذه كلفاً بشأن السحر متوارثاً، فى ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقى بأرضهم فى البرارى وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك"(٤٠)

بيد أن الفقر الذى كانت تعيش فيه الطبقات الشعبية هو الذى فجر خيالها فيما يمكن أن يكون مختفياً تحت الأرض من كنوز. وكانت مصر هى المنبع الواضح لهذا الخيال حول الكنوز،وحول ما تحت الأرض من أشياء فيها الثراء أو قد يكون فيها مغامرات تنتهى إلى الثراء، فالذى لا شك فيه أن المصريين من قديم كانوا يحفرون فى الأرض، ويجدون آثار الفراعنة التى تكون كنوزا حقه. والتى تفتح لهم أبواب الثراء الملموس، بل إننا إلى اليوم نجد هذا الاعتقاد فى الكنوز متفشياً فى جهات مصر التى دلت الحفريات العلمية والأثرية على وجود كنوز حقيقية مدفونة فى أرضها. والظاهر أن أهل مصر

شهروا بذلك من قديم بين غيرهم من الأمم الإسلامية(٤١) فنسبوا لمصر السحر، وجعلها ابن النديم فى كتابه الفهرست بابل السحرة؛ حيث يتكلم عن كتب السحر فيقول: "وهذا الشأن ببلاد مصر وما والاها ظاهر،والكتب فيه مؤلفة كثيرة موجودة، وبابل [منادل] السحرة بأرض مصر، قال لى من رآها: "بها بقايا ساحرين وساحرات، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة أن لهم خواتيم وعزائم ورقى وصنادل وجراب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه فى علومهم(٤٢) ، بل إن ابن النديم ينسب إلى أهل مصر نوعاً خاصا من السحر هو الطلسمات فيقول: "والطلسمات بأرض مصر والشام كثيرة ظاهرة الأشخاص، غير أن أفعالها قد بُطلت لتقادم العهد"(٤٣)

وقد نقل يهود مصر السحر عن أهلها من الأقباط ومازالوا يعملون به ويتفننون فى أساليبه، وقد نقلوه إلى بلاد العرب، وعند ظهور الإسلام كان بعض العرب ومعظم اليهود يعملون بالسحر حتى أن اليهودى (لوسيادس) عمل سحراً للرسول (فى شكل خيط من الدوبارة، وكان يعقد بها عقداً على أبعاد متساوية ثم ينفث فى هذه العقد، وهو يتلو كلماتهالسحرية، كما صنع تمثالاً من الخشب يمثل الرسول (ورشقه بالإبر ثم رماه فى أحد الآبار . ونزلت بهذه المناسبة (سورة الفلق) وتمكن الرسول الأكرم من استخراج السحر من مكانه وإعدامه، فبطل وفسد عمله (٤٤).

والثابت أن مصر شهرت فى أول الأمر بالسحرة والساحرات خاصة، وكان ذلك فيما يظهر صدى لقصة موسى وفرعون، ولكن هذه الظاهرة التى ما زالت ترى إلى اليوم، وهى استطاعة الفقراء أن

www.alkottob.com

يجدوا تحت الأرض كنوزا حقه من قبور الفراعنة، قد صبغت هذا الصيت بلون آخر هو أن الكنوز والطلاسم وما يتعلق بها يدل على ناحية خاصة من القدرة السحرية(٤٥) ؛ وبذلك أفسح سحرة مصر فى كتابات الرحالة والمؤرخين، مكاناً هاماً للكنوز لتلعب دورها فى المخيلة الشعبية، لينعكس أثر هذا كله على رؤية الناس لتاريخ مصر القديم. غير أن لانتشار الظن برصد الكنوز بواسطة قوى خفية، سبباً جوهرياً غير هذا الذى ذكره ابن خلدون وغيره من المؤرخين ؛ ففى المجتمع الذى لا تتاح فيه الحياة الكريمة، يهرب الناس من مواجهة مشكلاته ومنها مسألة الحصول على الثروة – إلى تخيلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى القيت التعزيمة المناسبة والبخرَةَ المطلوبة، وما أيسر هذا بالنسبة لإبداء جهد إيجابى فى سبيل كفالة الحياة المستقرة الرخَّية . وعندما تؤمن الجماعة الشعبية بهذا المعتقد، إنما تتبنى بذلك اتجاهاً انسحابياً بعد عجزها عن التعامل مع الواقع، ومن ثم تضرب فى أطناب الغيب، وهذا الاتجاه يتواصل ويتسع نطاقه لدى قطاعات لا يستهان بها .

وقد يرى البعض أن شيوع مثل هذه المعتقدات تمثل شكلاً من أشكال (الاختراق) الذى يستهدف التأثير على المجتمع، و تدلنا قراءة التاريخ – فضلاً عن دواعى المنطق – أن حالات الهروب من الواقع وثيقة الصلة بوطأة أو قسوة الظروف المعيشية، فحين تتزايد الضغوط على الناس، تتجه فئات منهم إلى الانسحاب والفكاك إلى عوالم أخرى.

هذا الهرب نجده سائداً فى القصص الشعبية حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد فهو يلقاه كل صباح "تحت سجادة الصلاة" أو الوسادة، شأنه شأن البطل الذى يقطع الآماد على بساط سحرى حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة .أو أن يحقق الإنسان كل ما يتمنى بحصوله على خاتم سليمان وهو الخاتم الذى استطاع سليمان به أن يستخدم الجن ويسخره، فحملت له البساط، وقطعت له الأحجار، وبنت له القصور، وفجرت له الأنهار والآبار وصورت له التماثيل من خشب ونحاس ومعادن أخرى كأنها الحياض التى تروى الأرض لطولها وعرضها وبواسطة هذا الخاتم – كما يقول الموروث الشعبى – ملك سليمان البلاد.

ويبدو أن فكرة خاتم سليمان الذى تكمن فيه قوى خارقة كانت سبباً فى ظهور الكثير من المأثورات العربية وغيرها، حيث كان بطل هذه المأثورات (الخاتم المطلسم الذى يحقق الأمانى) ويقول الموروث الشعبى :إن سليمان سخر الكثير من الجان كعقاب لهم لخدمة بعض الأدوات كعبيد أو خدام يلبون رغبات من يملك هذه الأداة، من ذلك اللوح الذى يتحكم فى الجنى (عيروض) الذى يخدم سيف بن ذى يزن فى سيرة سيف، وكذلك الخادم الموكل بالسوط المطلسم، والطاقية المخفية، والجراب الذى لا نفذ ما فيه، وكثيراً ما يتردد فى ألف ليلة وليلة تلك الأقسام التى وضعها سيدنا سليمان الحكيم لقهر الجنى – كما يقول الموروث الشعبى – يردد هذه الأقسام الكاهن أو الساحر لإرغام الجنى على الطاعة وتنفيذ الأوامر(٤٦) ، فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل. فكل مجهول لدى العامة من الناس،

www.alkottob.com

وكل عقبة كئود، فى بطن الأرض أو خرابها أو موحشها، وفى تلك الأوضاع الاجتماعية شديدة الوطأة ؛ يتولد الوهم وتنسج الأسطورة وتغذيها وتقوم الأوضاع الاجتماعية الضاغطة بحماية هذا المعتقد وتعضد فكرة فتح الكنوز بواسطة السحر[٤٧] خاصة وأن المصريين القدماء كانوا يدفنون مع موتاهم نفائسهم وكنوزهم، وكانت قبورهم فى المخيلة الشعبية محوطة بسوار من الأسطورة .وأموالهم كانت (مرصودة)، فيما يظنون . ولكن كثيراً ما اقتحم الحكام وذوى السلطة هذا السوار واستحلوا النفائس، وفعل مثلهم أصحاب البأس من اللصوص، ولا ريب فى أن امتلاك تلك الكنوز بالغصب قد أثار لدى العامة المجردين من الحول والسلطة، الأمل فى الحصول على ما قد يكون خافياً منها .

التنقيب عن كنوز أهل مصر القدامى، وهدم وتخريب آثارهم كان مجالاً لتفكير ولاة وحكام مصر، حيث غلبت على أكثرهم فكرة وجود كنوز مدفونة فيها، وبحسب رواية الرحالة عبد اللطيف البغدادى فقد حاول عثمان بن صلاح الدين الأيوبى هدم واحد من الأهرام الصغيرة ليستعمل حجارته فى بعض مشاريعه العمرانية، ولكنه اضطر إلى العدول عن هذه المحاولة الصعبة المنال: "لم ينالوا بغية، ولا بلغوا غاية، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل"[٤٨]، ورأينا الخليفة المأمون يرسل جيوشاً من الحفارين؛ للبحث والتنقيب حتى استطاع بعضهم دخول الهرم الأكبر فى عهده: "فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفى بقلعها وهى من الحجر والرخام.. رغم أن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من

التأليف[٤٩]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أدى إلى هدم مدن بكاملها من جراء ذلك مثل: "عين شمس والتى يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى"[٥٠]

يورد المؤرخون العديد من القصص والسماعيات حول محنة الآثار المصرية فى عهد عبد العزيز بن مروان عامل مصر فى عهد أخيه عبد الملك بن مروان، فيقول المقريزى: "عندما كان عبد العزيز بن مروان والياً على مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مروان جاءه رجل وقال له بالمقبرة الفلانية كنز عظيم، وقدم الدليل على صدق كلامه، فأمر عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال، وبدأت تظهر تحت الحفر بلاطات من رخام ومرمر إلى أن ظهر عمود من الذهب، على أعلاه ديك عيناه ياقوتان تساويان ملك الدنيا، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك ... ثم انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره لمعان عظيم ... ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب .. فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة نحاس ينتهى إلى ما هناك. فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا، وهوى جسمه سفلاً فلما استقر جسمه على بعض الدرج، اهتز العمود، وصفر الديك صفيراً عجيباً سمع من كان البعد من هناك وحرك جناحيه، وظهرت من تحته

www.alkottob.com

أصوات قد عملت بالكواكب والحركات، إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شيء أو مسها شيء انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها من يحفر ويعمل، وينقل التراب، وينظر ويحول ويأمر وينهى نحو ألف رجل فهلكوا جميعا، فخرج عبد العزيز، وقال: هذا ردم عجيب الأمر، ممنوع النيل نعوذ بالله منه، وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبراً لهم.."[٥١] هذه القصة ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة، مثل انهيار الحفر أو سقوط بعض العمال داخل أحدى مقابر قدماء المصريين،التى اعتادوا نحتها فى أعماق بعيدة تحت سطح الأرض، مثل مقابر وادى الملوك،على الضفة الغربية للنيل بمدينة الأقصر، والتى حرص المصريون القدامى على عمل أبواب تمويهية لمقابرهم،وافتعال فخاخ للصوص، وربما كانت تلك الفخاخ وراء حدوث بعض الإصابات. ثم حولتها مبالغات الرواة الشفوية إلى هذا النمط من القصة، التى تتميز بالحبكة الفنية، على الرغم من أن بطلها الأساسى شخص تاريخى حقيقى هو عبد العزيز بن مروان . أحد ولاة مصر فى العصر الأموى. وعلى أية حال فإن علماء الآثار المصرية الأجانب روجوا خلال القرن الماضى وهذا القرن عدداً من القصص حول ما أسموه "لعنة الفراعنة"[٥٢] والتى أولع بها الخيال الشعبى فى مصر، وروَّج لها وأعادت للأذهان الحكايات الشعبية حول الكنوز المرصودة التى تدور فى القصص والسيَّر العربية.

ساعد ما كتبه الرحالة والمؤرخون وما شاع بين الناس طوال

العصور الإسلامية على رواج الاعتقاد بقدرات وقوى خفية وطلاسم كائنة فى آثار الحضارة المصرية القديمة، وكان من الطبيعى أن يستجيب العامة من الناس لهذه القصص الخيالية،وأن ينشغلوا بها وبقائليها انشغالاً عظيما، لا سيما فى عصور بحث الناس فيها عن العجيب والغريب، وتلبستهم الخرافة وصدقوها وتحولت أُطر قرارات الناس بنصيحة قارئ الكف أو ضاربة الودع، وتبحث عن السعادة فى الطالع، وتؤطر حياتها بالسحر والأساطير، التى برع فى حياكتها المصريون منذ القدم. وساد الاعتقاد بين الناس – وما زال – عن وجود رابط سحرى غامض بين المصريين القدماء والسحر والغموض فى ظاهرة عجيبة تختلط فيها الأساطير بالمعتقدات الخاطئة أحيانا. ولكن ذلك لا ينفى حقيقة أن المصريين القدماء هم الذين خططوا لبقاء هذا الارتباط بمعرفتهم المذهلة لعلم الفلك "فمصر بلد العلم والحكمة من قديم الدهر ومنها خرج العلماء الذين عمروا الدنيا"[٥٣] والقصص التى تدور حول هذا الموضوع كثيرة، ولكنها تشترك جميعا فى صفة واحدة هى المبالغة التى تعكس الانبهار بالحضارة المصرية القديمة والتى تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق. ونجد عددا لا بأس به أورده الرحالة والمؤرخون عن كنوز مصر المرصودة،والتى تصيب لعنتها كل من يحاول أن يعبث بها ويؤرق مضاجع أصحابها، ويحكى الرحالة "ابن محشرة" أن: "قوما قصدوا الأهرام، فنزلوا فى تلك الآبار، وطلبوا أن يدخلوا فى تلك المضايق،التى تخرج منها الرياح واحتلموا معهم سرجا فى أوان رخام، فلما دخلوا فى تلك المضايق، خرجت عليهم ريح شديدة،

www.alkottob.com

وأخرجتهم منها عنفا، وأطفأت أكبر سرجهم فأخذوا أحدهم، وكان أقواهم جأشا وأشدهم عزما وأصلبهم قلبا، فربطوا وسطه بالحبال. وقالوا:"أدخل .. فلما دخل .. انقطعت حبالهم .. وبقى الرجل فى ذلك الشق وهم لا يعلمون عنه خبرا. فصعدوا هاربين حتى خرجوا من البئر، واغتموا ما أصاب صاحبهم..فبينما هم كذلك. إذ انفجرت الأرض فرجة كالكوة، وأثارت لهم ذلك الرجل عرياناً.. مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين. وهو يتكلم بكلام عجيب لا يفهم، فلما فرغ من كلامه سقط ميتا. فاحتملوا صاحبهم، وتصلوا أنباؤهم بوالى مصر وهو (ابن المدبر فى أيام المتوكل) فأمر أن يكتب الكلام الذى قال ذلك الرجل الذى مات حسب ما قاله، وأقام ابن المدبر يطلب من يفسره ففسره: "هذا جزاء من طلب ما ليس له، وأراد الكشف على ما يخفى فليعتبر من رآه". قال: فمنع حينئذ ابن المدبر أن يتعرض أحد للأهرام.."(٥٤)

وحاول الرحالة "أوليا چلبى" أن يلح على توكيد مثل تلك الأخبار عن القوى الغامضة الحارسة للأهرام فيقول: "وخلاصة القول: أن الخوف والهلع قد ساورنا وأحاطبنا كل الجوانب وقررنا العودة، وبينما نحن نفكر فيما آل إليه أمرنا، إذ بمشاعلنا تنطفئ، وإذ برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور – الخفافيش– كادت تقضى علينا وعلى سرجنا الضئيلة أيضا.." ثم يؤكد بأسلوب لا يقطعه الشك أنه " ليس هناك شك فى أن هذا البناء العجيب – الأهرامات– مطلسم، لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور بهتنا كلنا، وتولتنا الحيرة والدهشة وأحاط بنا النصب والأذى من كل جهة فعدنا

بأعجوبة ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسادنا من هول الموقف"(٥٥) .

رواية أخرى تناقلها الرحالة والمؤرخون تحكى أن: "قوماً دخلوا بعض الأسراب التى فى الهرم، فانتهوا إلى صنم أخضر على صورة شيخ، وبين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم، ثم صاروا فوجدوا فوارة تحت قبة يقع فيها ماء من أعلى تلك القبة، فيكون له نشيش شديد كأنه يطفئ ناراً، ثم يفيض هناك ولا يتبين ثم داروا فوجدوا بيتا مسدودا،لا يظهر له باب غير حجر صلد، وفيه دوى شديد لا يدرى ما هو، ووجدوا عنده شبه المطهرة الكبيرة فيها ماء ودنانير منقوش فى الوجه الواحد صورة أسد، وفى الوجه الثانى صورة طير فأخذوا من تلك الدنانير شيئاً فلم يقدروا على حركة ولا كلام حتى تركوها فى موضعها.."(٥٦)

تكشف الروايات السابقة عن اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب، ومشاركتهم فى البحث عنها، وتنظيمهم لها، وما اكتنف ذلك من أخطار، وأحداث مثيرة تمخض عنها أخبارٌ وحكايات غرائبية تساعدنا على رصد بعض السمات التى اتصفت بها ثقافة المجتمع المصرى فى طور من أطوار حياته؛ حيث تعددت فيه هذا النوع من الأساطير والحكايات فى تنوع يتسع للعديد من الأفكار المتناقضة أحياناً، بما يدل على ثراء الفكر والإبداع الشعبى فى مصر، كما يشهد على محاولات دائمة لتطوير الفكر الإنسانى الباحث عن ماهية الأشياء، ولسد الفراغات النقص الحاد فى رصيده المعرفى.

www.alkottob.com

على جانب آخر وجدنا الحكام يحذرون الناس وفى نفس الوقت يقومون هم بعمل منظم للحصول على كنوز المصريين القدماء والاستعانة بها فى تعضيد حكمهم وسلطتهم، حتى لقد قيل أن (أحمد بن طولون) قد اكتشف كنزاً عظيما، استطاع به أن يشيد جامعه العظيم بالقاهرة[٥٧] ، و"أنه قد أصاب فيه من المال [ما] كان مقداره ألف ألف دينار، وهو المطلب الذى شاع خبره "[٥٨]، ومنه " أنفق على الجامع مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار، وعلى البيمارستان ومستغلّه ستون ألف دينار .. وأنفق فى بناء الميدان مائة وخمسين ألف دينار"[٥٩]، وضرب دينارا باسمه سمى بـ (الأحمدى) وصار أجود عيار وكان لا يطلى إلا به[٦٠]، و"كان عيار الدينار منه أجود من عيار السندى بن شاهك ومن عيار المعتصم، ولم يكن يرى أجود منهما [٦١]، كما عرف عن: أحمد بن طولون أنه: "كان مولعاً بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب"[٦٢].

ويحكى التاريخ أن (أحمد بن طولون) استطاع بفضل ثروة مصر وكنوزها أن يناطح الخلافة العباسية فى بغداد، وينطلق من مصر بأفكاره الاستقلالية، وينشأ دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، ومن الحكايات التى قيلت فى شأن (أحمد بن طولون): "أنه دخل جماعة فى أيام أحمد بن طولون، الهرم الأكبر، فوجدوا فى أحد بيوته جام زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا به فقدوا واحداً، فدخلوا فى طلبه، ورجع هارباً إلى داخل، فعلموا أن الجن استهوته، وشاع أمرهم، فأحضروا عند أحمد بن طولون، فحكوا له القصة، فمنع الناس من دخول الهرم، وأخذ منهم ذلك الجام الزجاج لنفسه..."[٦٣]

فى الوقت نفسه نجد رواية تناقلها المؤرخون تؤكد على استباحة أحمد بن طولون كنوز مصر لنفسه؛ فيقول ابن إياس نقلا عن وصيف شاه: "... خرج الأمير أحمد بن طولون يوما على سبيل التنزه إلى نحو الأهرام، فبينما هو يسير إذا غاصت قوائم فرسه فى الأرض، فأمر بكشف ذلك المكان، فلما كشفه إذ هو مطلب فيه دنانير يوسفية"[٦٤] ، نقلها إلى خزائنه على ظهور الجمال بالشكاير، واتسع حاله، فأخذ فى أسباب بناء الجامع المعروف به..."[٦٥] ولعبت النبؤة والأحلام دورها الفاعل فى رواية عثور بن طولون على الكنز وكأنه قدر وحق مكتوب يسوغ للحاكم (أحمد بن طولون) الحق فى الاستحواذ على الكنز، فيقول كاتب سيرة بن طولون :"وأقر أحمد بن طولون .. عبد الله بن دشومة أميناً عليه .. وكان عبدالله بن دشومة منهم، واسع الحيلة .. وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دشومة فى ذلك .. فقال: أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضَرتَّان . ولسوف يجتمع للأمير أيده الله مما قد عزم إسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار .. فشغل قلبه كلامه، فبات فى تلك الليلة بعد أن مضى .. فرأى فى منامه رجلاً من إخوانه الزهاد بطرسوس، وهو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق والفسخ برأى تحمد عاقبته فلا تقبله .. فأمضِ ما كنت عزمت عليه .. وركب فى غد ذلك اليوم إلى الصيد، فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه، وهو رمل، فسقط الغلام .. فنظر فإذا بفتق ففتح، وأصاب فيه من المال "[٦٦]

www.alkottob.com

الحكايات الخرافية والأساطير التى تداولها الموروث الشعبى والتى وصلتنا من مدونات الكتابات التاريخية وأقلام الرحالة ؛ واصلت حديثها عن اللعنة التى تصيب كل من يعبث بآثار مصر فتربط بين موت ابن طولون بتحطيمه لتمثال مصرى كان قائما فى المطرية، فقد أورد ابن إياس: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بمدينة عين شمس، وهى المطرية، صنم من الكدان الأبيض على قدر خلقة الرجل المعتدل القامة، وكان ينظر إلهى، فنهاه بعض الكهان عن رؤية هذا الصنم، وقال: أيها الأمير لا تنظر إلى هذا الصنم، فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عزل فى عامه، فلم يعبأ بهذا الكلام، وركب وتوجه إلى عند ذلك الصنم، ورآه، ثم إنه أمر بقطعه قطعا فلم يبق له أثر، فلما رجع حم من يومه ولزم الفراش، فسلم فى المرض نحو عشرة أشهر .. فاستمر حتى مات"(٦٧).

دلالة القصة غير خافية فهى تحذر من التطاول على الآثار المصرية، وتدعو إلى احترامها وإلى تقدير أصحابها، والاعتراف بسبقهم وفضلهم فى تداخل وعناق حميم بين الأسطورة والتاريخ.

لقد أحاط الرحالة والمؤرخون آثار مصر وكنوزها بأساطير وحكايات مزعجة مخيفة تبعث الرعب فى كل من يقترب منها أو يحاول الدخول إليها والعبث بها، ورأينا كيف قالوا أن الهرم الأكبر يحرسه روح شيطانية عبارة عن "غلام" عار أمرد أصفر اللون تطل من فمه أنياب حادة، بل وسجل بعضهم ما ذكره لهم بعض الناس من أنهم قد رأوا هذه الروح بأعينهم، وهى تحوم حول الهرم وقت القيلولة ووقت الغروب وعلى نفس المنوال الذى نسج عليه هؤلاء

المؤرخون، نسج مؤرخون وجغرافيون ورحالة عرب آخرون معلومات أكثر تطرفاً فى الخرافة وأكبر بعداً عن منطق الأشياء تساعدنا فى التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات المجتمع المصرى فى أحد أطوار تاريخه، وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الأسطورى ولعجائبى للمجتمع والتى سجلها لنا الرحالة والمؤرخون بين دفات كتبهمورحلاتهم عن كنوز الحضارة المصرية القديمة والتى كان الولاة والحكام وعامة الناس يطمعون فى استخراج تلك الكنوز التى يشاع أن الفراعنة قد دفنوها معهم بداخل مقابرهم، وبطبيعة الحال فقد تبددت أحلام البعض منهم فى العثور على ما كان يتوقعه من كنوز مدفونة، بينما نجح البعض الآخر فى الوصول إلى تحقيق أحلامه ولكن على حساب سلامة آثار مصر.

وينقل لنا المسعودى رواية تقول: ".... وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أغرى بحفر الحفائر، وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة وصف موضع ببلاد مصر، وعلى أذرع يسيرة من بعض الأهرام؛ بأن فيه مطلباً عجيباً، فأخبروا (الإخشيد محمد بن طغج) بذلك فأذن لهم فى حفر وأباح لهم استعمال الحيلة فى إخراجه، فحفروا حفراً عظيمة إلى أن انتهوا إلى أزج(٦٨) وأقباء وحجارة مجوفة"(٦٩).

ويبدو من هذا أن أولئك المطالبية، كانوا يدركون أن الأهرام هو مركز يجتذب إليه المدافن والكنوز، وهو أمر كشف عنه الأثريون؛ وأوضحوا أن كبار القوم كانوا يعملون على أن يدفنوا بالقرب من

www.alkottob.com

الأهرامات لينعموا بما كان يقدم لأصحابها من الطقوس والقرابين. كما أن الروايات السابقة تكشف لنا بعض أخبار الحفائر التى قام بها العرب للتنقيب عن الآثار المصرية القديمة بداية من محاولات عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان إلى أحمد بن طولون إلى عصر الإخشيد بن طغج. والصور المشوشة التى نقلها لنا المؤرخون عن وصف المقابر المكتشفة والدفائن التى كانت بها، صورة تكاد تنطبق على الاكتشافات الأثرية، وما تميزت به القبور المكتشفة من سمات تكاد تكون مشتركة، ولكن الغالب من المؤرخين لم يحدثوننا عن مصيرهذه الثروة الأثرية، وهل كان وراء اكتشافها جهد علمى حقيقى، أم هو مجرد انسياق مع أحاديث العامة عن الكنوز المرصودة، والذهب الذى تحرسه الطلسمات ولا يكشف إلا لأصحاب الوقت، والعقائد الشعبية الأخرى التى ملأت الضمير الشعبى المصرى فى أولى مراحل حسه الحضارى وإدراكه للثروة التراثية الخطيرة التى يعيش فوقها . وإن كنا نحس أن المعنى التاريخى للمكتشفات الفرعونية لم تغب عن أذهان بعض الرحالة و المؤرخين – كالمسعودى مثلا – حيث استطاع البعض منهم أن يجمع من هذه المقولات المتداولة ما يشكل هيكلاً ما للتاريخ المصرى القديم بعد ما يقرب من أربعة آلاف سنة فى أعماق التاريخ، وواضح أن تلك الفترة من تاريخ مصر امتلأت بمثل هذه الحفائر التى أضاعت الكثير من الآثار المصرية القديمة والتى أضافت فى الوقت ذاته بعض المعلومات إلى الذخيرة التاريخية العربية المليئة بالتشويش حول التاريخ المصرى القديم(٧٠)

ورغم أن الزمن قد غدر بالعديد من الآثار التى خلفتها الحضارة المصرية القديمة، فإن كتابات المؤرخين ظلت حافلة بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التى شيدها المصريون، من قصور ومعابد وأهرام وتماثيل ومسلات... ومن أعظم تلك الآثار قاطبة "منار الإسكندرية"(٧١) .

حيث كان منار الإسكندرية بحق هداية للقادمين إليها من البحر فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التى يجتازها المسافرون فى البحر، وقد شاهد الرحالة المغربى ابن بطوطة جانباً مهدماً من المنار فى أثناء زيارته الأولى للإسكندرية (سنة ٧٢٥ هـ)، ثم شاهده عند زيارته الثانية لها فى(سنة ٧٥٠ هـ)، وقد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه"(٧٢) ولم يبق من المنار والذى كانت الزلازل سبباً فى دماره – زمن النويرى السكندرى (سنة ٧٧٥ هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التى ظلت قائمة حتى أيام المقريزى(٧٣)

منار الإسكندرية ترك أثره على الموروث الشعبى الذى وصلنا فى كتابات الرحالة والمؤرخين وما كان يدور حول المنار من أفكار تتطلع إلى كنوز الحضارة المصرية وإرثها الأثرى الضخم فنجد رواية شعبية تقول: "أرسل صاحب الروم يخدع صاحب مصر، ويقول: إن الإسكندر قد كنز بأعلى المنارة كنزاً عظيما من الجواهر واليواقيت والأحجار التى لا قيمة لها خوفاً عليها.. فانخدع لذلك وظنه حقاً، فهدم القبة فلم يجد شيئا مما ذكره،فسد طلسم المرآة"(٧٤) ، ونسجت الحكايات التى تفسر سر تهدم المنار وترجعه إلى احتيال الروم الذين

www.alkottob.com

راموا التخلص من مرآتها التى كانت تحول بينهم وبين دخول الإسكندرية والاستيلاء عليها. وأورد المؤرخون حكايات مشابهة تمت فيها الحيلة على"عمرو بن العاص" تارة وعلى"الوليد بن عبد الملك" تارة أخرى(٧٥) تلك المرآة التى تحدث عنها (الموروث الشعبى) هى التى جعلت من (منار الإسكندرية) أحد عجائب الدنيا على حد قول الهروى: "أنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة"، وإنما المنارة اليوم ليست من العجائب إنما هى على هيئة مثال برج على ساحل البحر على هيئة المرقب.."(٧٦)

وحينما ألهبت منار الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط الخيال الشعبى وجعلته مولعاً بنسج الحكايات والأساطير حولها. فقد شيد الموروث الشعبى مناراً آخراً ولكن على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، ونسبت تلك المنار إلى أحد ملوك مصر القدامى بعد الطوفان فيحدثنا ابن وصيف شله بقوله :" وتولى فرسون وكان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة، عمل منارة على بحر القلزم، الذى هو بحر الحجاز، وجعل فوقها مرآة من أخلاط شتى، تجذب المراكب إلى البحر ولا تبرح حتى يؤخذ منه العشر "(٧٧).

كما وصلتنا روايات شبيه حول قيام أحد ملوك مصر القدامى قبل الطوفان بعمل :"طلسمات للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير، حتى يعملوا له على كل مركب ضريبة يأخذها، فيطلق إليهم الريح من الجو فيسافروا به "(٧٨).

ونحن لا نورد تلك الحكايات عن منار بحر الحجاز (القلزم/الأحمر) لندلل على رغبة الوجدان الشعبى فى إيجاد طلسماً

– ربما – ليحمى الأماكن المقدسة فى الحجاز خاصة مع محاولات الصليبيين العبث بمقدسات المسلمين بالمدينة المنورة وبمكة المكرمة . أو أنها إشارة على استشعار الوجدان الشعبى فى بضرورة اليقظة لحماية حدود مصر – خاصة الشرقية منها ـوأمنها ضد أى خطر متوقع. ولكن كى نلقى الضوء على شيوع فكرة المرآة المطلسمة التى شاعت فى العديد من أساطير العالم القديم .

ولعل الحديث عن المرآة وعجائبيتها يعد امتداداً لما شاع فى الموروث الشعبى عن وظائف المرآة السحرية لدى العديد من الشعوب فنجد أن من بين الوسائل المتبعة فى الكونغو للتنبؤ، والتى تشبه إلى حد بعيد فتح المندل فى عاداتنا الشعبية، تقليد يقوم على استعانة الساحر بمرآة لتظهر عليها صور الأشخاص الذين يرغب فى التعرف عليهم، كمعرفة السارق أو العدو أو ما شاكل ذلك(٧٩). ونسج المؤرخون والرحالة العديد من الحكايات العجائبية حول فكرة المرآة السحرية والتى تتشابه لحد بعيد مع فكرة فتح المندل فيشير التلمسانى إلى وجود مرآة سحرية عند أهل بابل بالعراق وهى :"مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أىّ حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه حاضراً (٨٠).

كما استخدمت المرآة أيضاً عند الحيثيين فى الطقوس السحرية الخاصة لإعادة الوظائف الجنسية لرجل أو امرأة بعد أن تكون قد تعطلت :"أضع مرآة ومغزلاً فى يد المريض ثم يمر تحت "بوابة" وعندما يخرج من تحت البوابة، آخذ منه المرآة والمغزل وأعطيه قوساً، وأقول له :"انظر لقد أخذت منك الأنوثة وأعطيتك الرجولة، ولقد

www.alkottob.com

طرحت عن نفسك طبيعة المرأة، وتحليت بطبيعة الرجل"."(٨١)

ويبدو فى هذا التقاليد أيضاً أنها قريبة من تقاليد مماثلة كانت منتشرة فى عهد الفراعنة حيث استخدمت المرآة فى أغراض سحرية وكانت مرايا مصقولة بعناية تسمى (عنخ)، مصنوعة من البرونز، أو النحاس، أو الفضة، وعثر على مرايا موضوعة تحت رؤوس المومياوات، أو فى مقابل وجوهها، كما حدث مع مومياء مسئول من الأسرة الحادية عشرة، مدفون فى (أواست) . وكان للمرايا مقابض أنيقة بأشكال بديعة مثل فتيات صغيرات، أو زهور، أو حيوانات، أو رمز للحياة الأخرى – المعروف أيضاً باسم عنخ – والعديد من التصميمات ذات الرمزية السحرية ويعد (عنخ) أكثر الرموز المصرية شعبية، وأقدمها، وأشهرها، وهو يمثل الحياة الأبدية، هدف المصريين من وجودهم كله . وتمثل الدائرة فى الرمز الشمس، بينما يمثل الصليب الأرض؛ وبارتباطهما يرمز عنخ إلى الاتحاد بين الإله والإنسان، والسماء والأرض . وغالباً ما يصور الإله (آتون) على هيئة شمس متوهجة ذات أشعة ممتدة تنتهى برموز الحياة (عنخ) . وهذا التصوير بالتحديد رمزاً لأن البشر تحوطهم أشعة آتون مانحة الحياة . وكان الملوك يرتدون (عنخ) التى تمد الفرعون بالحماية والحياة الأبدية، وصنعت المرايا استلهاماً منها، وهى تسمى أيضاً (عنخ) على هيئة الرمز الذى حملت اسمه (٨٢)

المرآة السحرية كان لها حضور قوى فى أساطير الرحالة والمؤرخين المسلمين فى سياق حديثهم عن ملوك مصر القديمة قبل الطوفان فنجد ابن وصيف شاه يتحدث عن أعمال الملك سوريد

بقوله: "وكان عالماً فاضلاً فى علم السحر والطلسمات وكانت له أعمال كثيرة، وكان أغنى ملوك الأرض، ثم عمل مرآة من أخلاط شتى، فكان ينظر فيها جميع ما يقع فى الأقاليم السبعة من خير وشر، وما روى من أرضها بالماء وما لم يُرْوَ، وكانت تلك المرآة فى وسط مدينة أمسوس قائمة على جامة خضراء أسطوانية "(٨٣) .

واستمرت (موتيفة) المرآة السحرية مع ملوك مصر بعد الطوفان فيقول ابن وصيف شاه فى سياق حديثه عن أعمال الملك (صا) فيقول: " وتولى من بعده ابنه صا (وهو الذى بنى مدينة صا) وبه سميت، وهى الآن خراب على شاطئ بحر النيل، وكان بها أسطوانة من الرخام الأبيض، وعليها مرآة من أخلاط شتى، وكان ينظر فيها جميع ما يحدث من الحوادث فى الأقاليم السبعة من خير أو شر، واستمر فى الملك حتى هلك "(٨٤).

وحول أثار ملوك مصر القديمة دارت الروايات والقصص الشعبية ومنها الدراهم والقساطل والأوانى التى خلفها هؤلاء الملوك، إذ يقول ابن وصيف شاه فى سياق حديثه عن أعمال ملوك مصر القديمة :"وكان الملك (هوجيب) حكيماً فاضلاً فى علم السحر والكهانة، وله أعمال عجيبة، منها أنه عمل درهماً إذا ابتاع صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن هذا الدرهم ولا يطلب عليه زيادة فيغتر البائع ويقبل الشرط، فإذا وقع الوزن بذلك الدرهم فيزن قبالته جميع الأصناف ولا يعد له فى الوزن، وقد وجد هذا الدرهم فى كنوز بعد مدة طويلة، واتصل من ناس إلى ناس حتى وجد فى خزائن بنى أمية، وكان من شأن الدرهم إذا أراد الرجل أن يبتاع فيقلبه ويقول

www.alkottob.com

له :يا درهم اذكر العهد القديم الذى أنت عليه، ثم يبتاع به ما أراد، فإذا مضى إلى بيته فيجد ذلك الدرهم قد سبقه إلى ميزانه . ويجد البائع مكان ذلك الدرهم ورقة بيضاء من قرطاس أو ورقة آس، فكان الناس يتعجبون من شأن هذا الدرهم، حتى فقد من الوجود إلى العدم، واستمر (هوجيب) فى الملك حتى هلك."[٨٥]

ولعل فكرة هذا الدرهم المزعوم هى امتداد لما شاع فى مصنفات السحر الشعبى وتشبع به الوجدان والخيال الشعبى عن جلب الدراهم والكنوز متى ألقيت التعزيمة المناسبة وأطلقت الطقوس الخاصة، وهو ما نقله لنا ابن الحاج التلمسانى فى كتابه (شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى) فيشرح تحت عنوان (مسألة فى جلب الدراهم) الطريقة التى بها يحصل الإنسان على مراده من الأموال والذهب وتتلخص:" فى أن يضع الإنسان مربعاً سحرياً خاص فى كاغد أخضر فى اليوم الأول من يناير وتكتب هذه الآية دائرة.وهى قوله تعالى :"وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ..إلى قوله تعالى سعياً ".ثم تبخر عملك ببخور السودان ثم تصلى اثنتا عشرة ركعة كل ركعة بفاتحة الكتاب والآية سبعين مرة ثم تذكر عليه هذا الكلام إلى طلوع الشمس وهو (بأسلوم أجب شروت بحق صفيا كل وأنت قـ...) جعلت قبل الصلاة درهماً من فضة مكتوباً فيه جامع بالنقش وفى الثانى جاعل بالنقش، وهو تحت السجادة والمربع الذى فيه الدرهم المكتوب فيه جامع تحت جبهتك عند الصلاة، فإذا طلعت الشمس فإنك تجد الدرهم المكتوب فيه جاعل قد رجع إلى عند المكتوب، فأنفق بالمكتوب فيه جاعل فإنه يرجع، ولو أنفقته سبعين مرة

لا تدفعه إلا لأهل الذمة من اليهود فإنك إن أكلت به مال أحد من المسلمين بطل عملك ....[٨٦]

ويتحدث المقريزى عن آنية بمصر :" إذا جُعِلَ فيها الماء صار خمراً فى لونه ورائحته وفعله، وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح فى إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، وكان الذى وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانى، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمراً سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون، فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى "[٨٧].

ويعلق المقريزى على ذلك بعبارة تكشف مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة فى ثنايا الرواية الأخيرة فهو يذكر: "وأما الآنية النحاسية التى تجعل الماء خمراً فإنها منسوبة إلى قلوبطرة [كليوباترا] بنت بطلميوس ملكة الإسكندرية "[٨٨] بينما يقول ابن وصيف شاه :"أن الملك مرقونس ..كان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة وهو الذى عمل آنية إذا ملئت ماءُ يصير خمراً، وقد وجدت فى بعض الكنوز بمدينة إطفيح فى أيام هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ثم هلك"[٨٩] لنجد اختلاطاً بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية بشكل مثير .وإن كانت تتحدث دائماً عن أعمال السحر والعجائب التى كانت تلازم ملوك مصر القديمة، والتى من شأنها أيضاً أن تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الفادح فى المعلومات التاريخية .

www.alkottob.com

إن الآثار المصرية وكنوزها، وأسرارها على الرغم من توالى الأزمنة، ودورة العصور لا تزال تتوهج بالأساطير التى تركت أثرها عليأصحاب الكتابات التاريخية كلما اقتربوا من تلك الآثار المصرية فى إحساس يحمل من الجاذبية والسحر قدر ما يحمل من القلق والخوف فالدخول إلى هذا العالم هو دخول إلى عالم يتمازج فيه الواقع مع الخيال والطبيعة مع ما وراءها والحاضر مع الماضى .

كل هذا عبر مشهد سطوة وسحر الآثار المصرية والتى وقف أمامها الرحالة الزهرى فى(أواسط القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) قائلا: "وفيها من الأعاجيب والبنيان والمطالب والكنوز، ما لا يحصى له عدد،فاختصرنا ذكرها لشهرتها، وسنذكر منها لمعاً فمن ذلك أن فيها مغارات تحت الأرض فيها طلاسم تتحرك بيد بعضها سيوف وأقواس ترمى بها من يدخل عليها. وقد ذُكر أن قوماً دخلوا هذه المطالب فبلغوا إلى باب من حديد قد طلى بالذهب ولم تبدله الأيام وعليه طلسم واقف،وبيده سيف مشهور طوله أربعة أذرع وفى عرضه ذراع،لو صب على جبل لمزقه،فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم فلما قربوا من الباب إذا بنبال ترشقهم من خلفهم فصنعوا لذلك واقى لظهورهم فكادت النبال ترشقهم وتنفذهم لشدة رميها فلما فتحوا الباب إذا هم بقصر تحت الأرض قد دارت بهم مراتب .. فأخرج كل واحد منهم وقره وما قدر عليه من الذخائر،فلما خرجوا من الباب اختلف عليهم الطريق وتلف بعضهم عن بعض،وطفيت مصابيحهم فهلكوا ونجا بعضهم. فمن خرج منهم أخبر بكل ما رآه فما زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون منها أنواعا من هذه

الصفات والذخائر فمنهم من يخرج ومنهم من يهلك"(٩٠)

جدير بالذكر أن المصريين القدماء كان لديهم اعتقاد راسخ فى الدور السحرى الذى تؤديه كنوزهم وفى القدرة السحرية لقطع الحلى والمصوغات والمجوهرات واستخدمها كتمائم وتعاويذ لمنع الأذى أو اتقاء لسوء الحظ، أو للتحصين ضد السحر الأسود الشرير، أو ضد الحسد وأعين الحاسدين، وإبعاد الأرواح الشريرة والوقاية من الأمراض، بالإضافة إلى قدرتها السحرية على تحقيق الرغبات والأمنيات الطيبة . ومن المعروف ـ حتى فى عصرناالحالى ـ أن المخيلة الشعبية مازالت تؤمن بمثل هذه المعتقدات، وترى فى بعض أنواع الحلى ومشغولات المصوغات والمجوهرات، قدرة على تحقيق الحماية من الأمراض أو الوقاية من عض الثعابين والأفاعى ولدغ العقارب وغيرها من الحشرات السامة .

وكان سحر مصر يكمن فى أمور أخرى عند بعض الرحالة والمؤرخين والكتَّاب،وأن لم تكن مصر جذابة فى حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلا اهتم التلمسانى (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) بعجائب مصر من منظور آخر فى كتابه "سكردان السلطان(٩١)، وهو كتاب أدبى تاريخى، يشتمل على أنواع الجد والهزل، ألفة للسلطان الملك الناصر بن أبى المحاسن فى سنة ٧٥٧ هـ. فى خواص السبعة التى هى أشرف الأعداد طبع وحاول أن يشعرنا فيه بأن هناك رابطاً سحريا غامضاً بين عجائب أرض مصر وبين العدد سبعة حتى أنه خصص باباً كاملاً فى هذا الشأن تحت عنوان: "فى ذكر نبذة مما وقع فى إقليم مصر من هذا

www.alkottob.com

العدد على طريق الإجمال"[٩٢] فيشير لذلك بقوله :"فلما كانت السبعة من أشرف الأعداد، وكان وجودها بمصر المحروسة أكثر من سائر البلاد، ألفت منها فى هذا الكتاب سنة سبع وخمسين وسبع مئة ما لم أسبق إليه، ولا أحد فى الأقاليم السبعة عليه، وسيأتى مصداق هذا الكلام، ولاسيما عند ذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام[٩٣] ومن أطرف الحكايات التى تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة مرتبطة بأسرار العدد سبعة ؛ أن أحد ملوك مصر القدامى: "عمل مرآة من المعادن السبعة[٩٤]، فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما أخصب منها وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث، عمل فى وسط المدينة صورة امرأة جالسة فى حجرها صبى كأنها ترضعه، فأى امرأة أصابها وجع فى جسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك المرأة فتبرأ من ساعتها، وهذا من العجائب"[٩٥].

فأسطورية الرقم (سبعة) وظهوراته – فى الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر يكاد لا ينتهى، إذ أنها رمزية تندرج فى نطاق الرمزية (الكوزمولوجية) ظلت محافظة على قدسيتها واستمراريتها عبر العصور، ولدى أغلب الشعوب، رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس الذى يكون معبداً وثنيا ثم يصير كنيسة فجامعاً فمدرسة دينية، فقد مثل الرقم (سبعة) دائماً رقما ملغزاً، سحرياً، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية، وفى مصر يبرز الرقم (سبعة) دائما فيما يتعلق بالعجائب والأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك[٩٦]

العدد سبعة أيضاً له مكانته المميزة والإستمرارية فى مصنفات

السحر الشعبى فيقول البونى فى شأن العدد سبعة :"واعلم أن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين وخلق الخلفاء للظاهر سبعاً والشياطين سبعاً والنجوم السيارة سبعاً وكذلك الملائكة المقربين، والأفلاك والصفات الأسمائية والأسماء الأفعالية والأسماء الذاتية، وخلق الجنة على سبع، وأعلم أن العرفاء سبع، وبهم يستدير السبع السفليات وعليهم استمداد أنوار العلويات فيفيض كل واحد على عرش الآخر إلا الغوث فإنه يمتد من العرش المطلق فيفيضه، ولذلك كان استمداد السبعة منه بواسطة الأربعة، والسبعة أقطاب تمد السبعين، والأربعة رأس الأربعين، والجميع من نسبة الكرسى، وكل عالم يردّ الآخر، وهذه صورة الإنسان وما له من الصفات والأسماء وما تحت رجليه اليمين والشمال .قال صلى الله عليه وسلم :"الجنة تحت أقدام الأمهات وهذه صورتها "[٩٧].

من هنا يعد السحر المكتوب أكثر ضروب السحر الرسمى أهمية لدى العامة.وتنبع أهميته البالغة من حيث هو – فى نظر العامة – «سحر عالم» بمعنى انه يقوم على علوم مضبوطة القواعد تدرس عكس ما هو عليه الأمر بالنسبة إلى السحر الشعبى الذى تتناقل وصفاته بين عامة الناس عن طريق المشافهة، وإذا كانت فعالية السحر الشعبى نسبية اعتبارا لكونه يتداول بشكل مفتوح بين العامة فإن سحر الأحرف والأرقام يعد «مؤكد الفعالية» بسبب توفره على شرطى الغموض والسرية الضروريين لتمام العملية السحرية ونجاحها. وذلك من خلال الوفق؛ والوفق :يسمى أيضا فى لغة أهل «الحرف» الجدول أو المربع ويسمى أيضا الخاتم هو جدول يتكون من

www.alkottob.com

عدد معين من الخانات أفقيا ومثلها عموديا وتتوافق أعدادها وأحرفها وتستوى فى الأقطار والزوايا وعدم التكرار لتنتج مفعولا سحريا، وتختلف أسماء الأوفاق بحسب عدد أضلاعها ففى الحال التى يكون عددها ثلاثا يسمى الوفق مثلثا، وفى حال الأربعة مربعا، وهكذا إلى المعشر الذى هو الجدل المشكل من عشر خانات عمودية وعشر أفقية. وبحسب البونى فإن لكل صنف من الاوفاق أغراض يتوسل به إلى قضائها وهكذا، فإن:

المثلث: لأعمال الخير وتيسير الأعمال العسرة كإطلاق المسجون وتسهيل الولادة ودفع الخصومة والظفر بالعدو والأمن من الغرق وابتداء الأعمال وذهاب ريح القولنج. والمربع: لأعمال الخير كالمحبة والجذب ومنع التعب والنصرة على الحرب والجاه والقبول ولقاء الأمراء وكسب مودة النساء. والمخمس: لأعمال الخير كتسليط المرض والفرقة والعداوة والخراب والرجم ومحبة النساء. أما المسدس: لأعمال الخير كالرفعة والجاه والعمارة والنصر وزيادة المال. والمسبع: للظفر بالعدو وتسهيل العلوم ومنع السحر وإذهاب البلادة. والمثمن: لأعمال الخير والشر والجاه وجلب الامطار والبرء من المرض وذهاب الجنون وتسهيل العلوم وابتداء الأعمال والإخفاء عن أعين الناس. والمتسع: لأعمال الخير كالجاه والقبول ودفع الخصومة والأمن من المكائد وللمحبة والنصرة فى الحرب ومنع البرودة من الأعصاب وإذهاب البلغم. وأخيراً المعشر: للعظمة والشرف ومنع الحديد ودفع السموم وذهاب الوباء وتسهيل الأمور الشاقة وقضاء الحوائج من الأمراء والسلاطين والنصرة فى الحرب وغير ذلك.

وهكذا كان لأرقام معينة فى مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم "قيّمُ سحرية" اعتبرت بالغة الفعالية إلا أن الأعداد عند اليهود – الذين لم يعرفوا الأرقام – أصبحت حواذاً غلاباً افترش صفحات (العهد القديم) كله وسرى فى أوصال الديانة، وربما انتقل هذا التأثير إلى كتابات الرحالة و المؤرخين الذين لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد فى القرآن الكريم من أخبار مصر القديمة، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روى من هذه الأحداث فى الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى[٩٨] .

وعندما توصل الفيثاغوريون سنة ٥٤٠ ق.م إلى التفكير فى العداد كعنصر أساسى لتقويم كافة الأشياء – أمكن عن طريق هذا التفكير تطوير الرياضة وإدخالها فى مجال جديد . ولقد تسنى استكمال هذه الرياضة بعدئذ على يد فلاسفة العرب فى العصر الإسلامى ثم توقف من بعدهم تطوير الرياضة فترة من الزمن . ولقد ارتبطت الأعداد عند اليونان بالماديات ولذلك نراها ترتبط منذ بداية التفكير فيها بمولد الإنسان ووجوده جثمانياً فى الطبيعة ولا غرابة أن نجد فى الرموز الرياضية للفيثاغوريين التى تجنبت تحديد الوقت أنها ترمز أيضاً إلى رحم الأم الذى يعتبر مصدر الحياة، وحاز العدد ١ (واحد) قداسة خاصة فى الفكر المصرى ؛ لأنه – فى ذلك الفكر – ارتبط بالألوهة وبالبدء وبالزمن الاول الذى لم يكن قدوُجد فيه شيئان على أرض مصر . فهو تجسُّد المطلق والوُحدة، وهو الذى يولّد التعدّد من ذاته . ومتى دلفنا إلى عالم الأعداد المسحور ذاك، سنجد أنفسنا

www.alkottob.com

مواجهين، بلا مهرب قبل أى شيء آخر، بالعدد واحد، وبالتالى بمسألة خلق العالم وقضية التوحيد .

فى بردية نسى آمسو نجد أنه قبل أن يوجد العالم وما فيه ومن فيه، لم يكن هناك إلا الواحد . وعندما حان وقت التعدد والكثرة "صنع الواحد فمه، وبفمه نطق باسمه بكلمة القدرة فأوجد ذاته وبزغ من المادة الأولى التى وجدت بغير شكل منذ الأزل، وكان الواحد كامناً فيها، وكان اسمه أوزيريس، جبلة المادة الأولى، ولم يكن هناك وجود لشئٍ قبله، ولم يكن هناك غيره، وعندما بزغ بكلمة فمه إذ نطق باسمه، صنع كل الأشياء وحده "

وفى كتاب الموتى يقول الإله :" أنا الواحد . أنا الأوحد . أنا رع الذى بزغ فى البدء . أنا الإله العظيم الذى أوجد ذاته بذاته وجعل أسماءه جمع آلهة فى الإله الواحد " ثم يقول الإله :"أنا الأمس . أنا اليوم . أنا الغد . أنا بالأمس أوزيريس . أنا اليوم رع . أنا فى الغد حورس" .

وكما قدس المصريون العدد واحد، قدسوا العدد ٢ ؛ لأنه رَمَزَ فى فكرهم الدينى إلى التثنية، إلى خلق ما هو أعلى وما هو أسفل، إلى خلق الليل والنهار، إلى تثنية جنس الإله بحيث هو لاجنس له، وإلى خلق الذكر والأنثى (٩٩).

فالواحد المطلق، إذ يعى ذاته يخلق التعدد، فيصبح الواحد اثنين، ويخلق التقابل والتضاد . فالعدد ٢ يعبر عن التضاد وتباين الطبيعة والاستقطاب، وفى الأسطورية المصرية تمثَّل ذلك أساساً فى التضاد بين أوزيريس وست، ثم بين حورس وست . وكذلك ارتبط العدد ٢

الذى أتى من ازدواج العدد المفرد بالعضو الجنسى عند الرجل، أما العدد ٣ فقد ارتبط حسب رياضة اليونان هذه بالتكاثر الناجم عن اقتران الرجل بالمرأة(١٠٠) .

وفى الأسطورية المصرية، اكتسب ذلك العدد ٣ قداسة خاصة استمدت من قداسة الثالوث الأوزيريسى: أوزيريس – إيزيس – حورس، وثالوث طيبة: آمون – مُتْ – خنسو . وبشكل عام وجد الفكر المصرى أن ذلك هو العدد الذى له بداية ووسط، ونهاية، ووجده أول الأعداد تجسيداً لكمال الوحدة المركَّبة، الرمز الرئيسى للألوهة عند المصريين، باعتباره رمز الكامل كمالاً مطلقاً، واللامتناهى، الذى كان، والذى هو كائن والذى سوف يكون ("أنا الأمس وأنا اليوم وأنا الغد") . ومن قداسة ذلك العدد، قُسم النهار إلى ثلاثة أوقات: الصبح والظهر والمساء لإقامة الصلوات فى المعابد كل يوم .

ولم يكن وقوف المصريين على ذلك المفهوم التثليثى عشوائياً أو من قبيل التهويم: "فأى ظاهرة من ظواهر العالم الطبيعى تمثل – لحظة حدوثها – لحظة من التوازن بين قوى موجبة وقوى سالبة . ولقد كان العقل المصرى المستنير قادراً على إدراك ذلك، والتعامل معه بعلمه المتقدم . ومن الواضح أن علماً يقدر على فهم تلك الحقيقة يصبح قادراً أيضاً على إدراك أنه مستطيع، متى توصل إلى معرفة كافية بتلك القوى الموجبة والسالبة، وأن يتوصل – عن طريق الاستنتاج – إلى الوقوف على المزيد من المعارف عن القوة الثالثة التى لا سبيل إلى وصفها، والأقدس من أن تحددها كلمات اللغة، من حيث إنها، وهى المحدثة للتوازن بين الموجب والسالب، لابد كائنة ولا

www.alkottob.com

بد معادلة فى القوة لتلك القوى المتضادة . ومن هذا السعى إلى الوقوف على كنه تلك القوة الثالثة، خطوة قصيرة إلى الرغبة فى استخدام ما تفضى إليه المعرفة بها . والقدرة على استخدام تلك المعرفة وجه من أوجه ما نسميه بـ"السحر".

أما العدد ٤، فاستمد أهميته من انكباب كهنة (أون) بهليوبوليس على تعمّق مضامين الأبعاد المكانية، وإقامتهم المذبح مربع الأركان المتوجه كُلٌ ركن من أركانه إلى جهة من الجهات الأصلية الأربع التى قالت الأسطورية الدينية المصرية القديمة: إن أبناء حورس الأربعة يحرسونها، وفى لاهوتية هليوبوليس، كانت قدرة الخلق الأصلية مقسمةً ذاتها إلى ؛ الأرض والماء والنار والهواء: الأرض تنجب كل حياة وتزود كل حىّ بما يقيم أوده، لكنها – فى النهاية – تبتلع كل حياة أنجبتها، والماء يعطى المطر ويسبب الخصب ويحدث الفيضان، لكنه أيضاً يحدث الدمار من حيث كونه عنصر الفوضى الأولى المهدَّد أبداً باجتياح الخليقة ؛ والهواء نفس الحياة المسمى: النور، والدفء ومنبع الحياة الواعية، لكنها أيضاً عنصر الدمار الذى يُهلك ولا يبقى على شىء . تلك العناصر الأربعة معاً تشكل المحصلة الكلية للكون بكل أوجهها المتضادة الإيجابية والسلبية والخيرة والضارة.(١٠١)

الأفكار نفسها انتقلت إلى إخوان الصفا (فى القرن العاشر الميلادى) حين اعتبروا أن العدد ٤ أصل الموجودات، ورتبوه على الأمور الطبيعية والروحانية واعتمدوا فى ذلك على المربعات لأنهم وجدوا عدد الأربعة فى أكثرها، فصار له شرف الصدارة عندهم، مع ما لسائر الأعداد من الفضل فى نسبة بعضها إلى بعض كما توجد

النسبة فى الأمور الطبيعية والأمور الروحانية، فمن ذلك قولهم فى الرسالة الأولى :"إن الأمور الطبيعية أكثرها جعلها البارى جل ثناؤه مربعات مثل الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ ومثل الأركان الأربعة التى هى النار والهواء والماء والتراب، ومثل الأخلاط الأربعة التى هى الدم والبلغم والمرتان (المِرّة الصفراء والمِرّة السوداء) ومثل الأزمان الأربعة التى هى الربيع والصيف والخريف والشتاء، ومثل الجهات الأربع.والرياح الأربع: الصبا والدبور، والجنوب والشمال، والأوتاد الأربع الطالع والغارب ووتد الأرض، والمكونات الأربع التى هى المعادن والنبات والحيوان والإنس، وعلى سبيل هذا المثال وجد أكثر الأمور الطبيعية مربعات، وقد أكد هؤلاء تفوق علم الهندسة وعلم الكون وفقاً للتقاليد الفيثاغورية .

وهناك تقليد جاء من الهند وفارس أضاف مربعات سحرية أخرى، منها ما يعرف بالمربع الجيدى الذى استخدم فيما بعد كمفتاح للتخطيطات والرسوم الهندسية الإسلامية، وقد أخذت الحضارة الإسلامية هذا المربع وضمته إلى اكتشافاتها فى زمن مبكر، وتحتوى فيه مربعات كل من الصف الأول الأفقى والصف الأولى الرأسى على الأرقام من ١ إلى ٩، وتملأ المربعات الأخرى بحاصل ضرب الرقمين الأفقى والرأسى المتقابلين (أو مجموع الأرقام التى يتكون منها حاصل الضرب) فى شكل يشبه شبكة الكلمات المتقاطعة مثال ٧ × ٩=٦٣ (٣+٦=٩) إن هذا المربع ملىء بالطرائف والمفاجآت الرياضية أولها الرقم سبعة فى مركز المربع

www.alkottob.com

وله قوة سحرية خاصة (١٠٢)

وإن كان العدد ٤ قد احتل تلك المكانة عند فلاسفة الإسلام ومن قبلهم عند كهنة الحضارة المصرية القديمة فما بلك بالعدد ٧، الذى كان – دينياً وسحرياً – أعظم الأعداد أهمية عند المصريين، باعتباره العدد المجسِّد للكمال والاكتمال، فهو الذى يرمز إلى وحدة الروح والمادة، وحدة العدد ٣ والعدد ٤ . ولسنا بحاجة إلى الذهاب بعيداً فى بحثنا عما يجسد مغزى العدد ٧ وأهميته عند المصريين، فلدينا الهرم – الذى مازالوا حائرين فيه حتى اليوم آخذين فى نسبته إلى "مهندسين يهود" أو زوار جاءوا من الفضاء فبنوه – وقاعدته المربعة التى ترمز إلى الجهات الأربع الأصلية وجوانبه الثلاث التى ترمز إلى الثالوث، ولدينا أيضاً اللاهوتية المصرية كلها، وكون العدد ٧ فيها العدد المقدس للإله الشمس رع، مسبِّع القدرات، والإلهة معات، ربة الحقيقة، وبالنظر إلى أنه حاصل جمع العدد ٣، الرمز الرئيسى للألوهة فى الديانة المصرية، والعدد ٤ المجسد للمحصلة الكلية للعالم الذى أوجدته الألوهة، فهو العدد السحرى الأشمل والأكمل و الأفعل تعبيراً عن وحدة الإله وخليقته .

وقد وصف الفيلسوف الإسلامى ابن سينا الذى ولد سنة ٩٨٠م، فلسفة الكون بدوائر سبع وكان كل كوكب يناظر مربعاً سحرياً، ويتولد عن هذه المربعات عدة تراكيب من التخطيطات ويشير ابن سينا إلى الأفلاك السبعة وخصائصها العددية . ويضيف التلمسانى صاحب كتاب (سكردان السلطان) تحت باب(فى ذكر شرف هذا العدد[سبعة] وخاصيته ومزيته على غيره من الأعداد) يقول:"السبعة

أول الأعداد الكاملة ؛ لأنها جمعت العدد كله، لأن العدد أزواج وأفراد، فالأزواج منها أوّل وثان، فالاثنان أول الأزواج، والأربعة عدد ثان والثلاثة أول الأفراد، والخمسة فرد ثان، فإذا جمعت الزوج الأول مع الفرد الثانى، أو الفرد الأول مع الزوج الثانى كانت سبعة، وهذه الخاصية لاتوجد فى عدد قبل السبعة ... والعرب تبالغ بالسبعة ؛ لأن التديل فى نصف العدد وهو خمسة إذا زيد عليه واحد، كان لأدنى المبالغة، وإذا زيد عليه اثنان كان لأقصى المبالغة ولا زيادة على ذلك ... والسبعة عدد مقنع ؛لأنها فى السموات والأرض، وفى خلق الإنسان، وفى رزقه، وفى أعضائه التى يطيع الله، وبها يعصيه، وهى عيناه وأذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه . قال الإمام فخر الدين فى أسرار التنزيل :لا إله إلا الله محمد رسول الله سبع كلمات، وللعبد سبعة أعضاء، وللنار سبعة أبواب، فكلّ كلمة من هذه الكلمات السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة، عن عضو من الأعضاء السبعة . "(١٠٣)

وقد حاول بعضُ المؤرخين والرحالة أن يطوعوا استسرارية العدد عليعجائب مصر السحرية او التى كان للسحر دوراً لا بأس به فى وجودها. فالقصص التى تدور حول هذا الموضوع كثيرة ومتناثرة فى بطون الكتب التاريخية، ولكنها تشترك جميعاً فى صفة واحدة هى المبالغة التى تعكس الانبهار بمصر؛ الإنسان،والأرض،والحضارة. والتى تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق فى خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته، مما يعطى القناعة بأن العجيب متجذر فى

www.alkottob.com

الكتابة التاريخية المتعلقة بمصر تجذراً،يجعل منه سمة بارزة وشكلاً يحضر مرة بهذه الصفة، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصراً تحفيزياً تاريخياً حقيقياً وفاعلاً فى الواقع والوقائع.

وهكذا، بقدر ما بهرت الآثار العظيمة التى خلفتها الحضارة المصرية القديمة، والتى لم تخلف مثلها حضارة أخرى من حضارات العالم القديم، بقدر ما بهرت هذه الآثار العالم فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة. التى عرفت جميعاً ذلك الهوس الجمالى بتلك الآثار، والذى عبر عن نفسه فيما كتبه الرحالة والمؤرخون والرحالة والأدباء، طوال تلك العصور، ولا يزالون حتى يومنا هذا، يوالون التعبير بالكلمة والصورة عن ذلك الهوس النبيل، بما أبدعه الإنسان المصرى القديم؛ من آيات حضارية شامخة بقدر هذا الإعجاب الإنسانى بحضارة مصر القديمة الذى لا يماثله إعجاب بأى من الحضارات الإنسانية الأخرى، بقدر ما تعرضت هذه الآثار المصرية العظيمة من أقدم العصور – أيضا إلى يومنا هذا للعدوان والمحو والتشويه والسرقة والاستهانة والتهريب والجهل الغليظ، وشارك الكثير من الناس والحكام فى تلك الجرائم والخطايا التى ارتكبت فى حق الآثار المصرية العظيمة. وصدقت نبوءة الحكيم السكندرى "أسكليبيوس" عن مصير تلك الآثار والتى يقول فيها: "يقترب الوقت الذى لا يعرف فيه أحد ديانة المصريين وسيهجر بلدنا،وستكون القبور والموتى فقط شهوداً عليه. فيا مصر ! لن يبق من مذهبك سوى أساطير،لا يؤمن بها أحد من الأعقاب ولن يبق غير الكلام المنقوش على الحجر والذى يحدّث عن قدماء الآلهة". ولم تتحقق نبوءة

رمسيس الثانى المكتوبة على جدران معبده: "سيظل هذا بيتاً للرب إلى الأبد"(١٠٤).

تلك بعض لمحات من تاريخ الآثار المصرية وكنوزها التى لم تكن أسعد حالاً من بناتها الحقيقيين أهل مصر الذين ظلوا خارج المعادلة طوال العصور، لكنهم مثل آثارهم العظيمة قاوموا ولا يزالون كل عوامل الفناء!!!

www.alkottob.com

الهوامش

١ –الخطط، ج١، ص ٤٠ – ص ٤٢ .
٢ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٩ .
٣ –المقريزى، المصدر السابق، ص ٤٠ .
٤ –السيوطى:كوكب الروضة، ص ١٣٦، المقريزى، الخطط، ج١، ص ٤٠، ص ٧٤ .
٥ –النواجى (شمس الدين محمد)(ت ٨٨٨ هـ): حلبة الكميت فى الأدب، والنوادر والفكاهات (سلسلة الذخائر، العدد ٢٧، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٢٩٦؛ المقريزى: الخطط١، ج١، ص ٤٠ .
٦–القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩ .
٧ – سياحتنا مه مصر، ص ٢٣٨ .
٨ – المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)،ص٩٢ .
٩ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٥٥؛ القزوينى، المصدر السابق، ص ٢٦٨ .
١٠ – السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٤؛ابن ظهيرة :الفضائل الباهرة، ص٦٩ .
١١–سياحتنا مه مصر، ص ٢٣٨ .
١٢ – الزهرى (عبد الله محمد بن أبى بكر): كتاب الجغرافية (تحقيق: محمد صادق، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٣٩ .
١٣ – الزهرى :كتاب الجعرافية، ص٤٧ .
١٤ – المطالب واحدها مطلب، كلمة كان المصريون يطلقونها على الكنوز، وأشار المقريزى إلى أنها مستعملة لهذا المعنى إلى عهده . والقوم المطالبية هم الباحثون عن الكنوز .

١٥ – ابن خلدون:المقدمة (الجزء الثانى، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٨٤٢ .
١٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٤٩ .
١٧ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٦ .
١٨ – أولياجلبى: سياحتنامه مصر، صـ ٦٠٥ .
١٩ –نفسه، صـ ٢٣٨ .
٢٠ –كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر (الجزء الأول، ترجمة / محمد مسعود، مطبعة أبى الهول، القاهرة، د.ت)، صـ ٥٢١؛ عبد الحميد يونس: مجتمعنا(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، صـ ١١٤؛ حسين مؤنس: الحضارة، صـ ٣٧٤؛ عمرو عبد العزيز منير: العمران فى مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة فى كتابات الرحالة (رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب، جامعة الزقازيق ٢٠٠٤م)، ص ٢٨٥، ص ٢٨٦ .
٢١– الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص ١٠٥ ؛الحميرى: الروض المعطار، ص٥٥٤ .
٢٢ – ميكل ونتر: المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى (ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م)،ص١٦ .
٢٣–موفق الدين بن عثمان: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، (تحقيق: محمد فتحى، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص ١٨٢ .
٢٤ – آنا رويز: روح مصر القديمة، ص٦٣ .
٢٥ – شفيق مقار: السحر فى التوراة،ص٢٣٤ .
٢٦ –البلوى (أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى) :سيرة أحمد بن طولون (تحقيق:محمد كرد على، سلسلة الذخائر، العدد ٥٥ القاهرة ١٩٩٩م)، ص١٩٤بم١٩٥؛المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤١؛ابن سعيد الأندلسى: المُغرِب فى حُلى المغْرِب ص٩٨ .
٢٧ –ابن الوردى: خريدة العجائب، ص ٢٠٥ .
٢٨ –المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق: ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٥٥ .

www.alkottob.com

٢٩ –الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، ص ٤٨٥ .
٣٠ – آن وولف: كم تبعد القاهرة ؟، ص ٢٥٣ – ص٢٥٥ .
٣١ –البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ١٠١ .
٣٢ –البغدادى: المصدر السابق، ص ١٠٧ .
٣٣–نفسه، ص ١٠٧ .
٣٤ –نفسه، صـ ١٠٨ .
٣٥ –ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص ٨٣٨ .
٣٦ – المقدمة، ص ٨٣٩ .
٣٧ –ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٣٩ .
٣٨ –سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص١٣٣ .
٣٩ – ابن الحاج التلمسانى المغربى:شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى(ط١بم مكتبة صبيح، القاهرة ب.ت)،ص١٢٣ .
٤٠ – نفسه، ص ٨٤١ .
٤١ –سهير القلماوى: ألف ليلة وليلة (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ١٥٩ .
٤٢ –ابن النديم: الفهرست (الجزء الأول تحقيق: محمد عونى، إيمان جلال، سلسلة الذخائر، العدد ١٤٩، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٣٠٩ .
٤٣ – الفهرست، ص ٣٠٩ .
٤٤– محمد جعفر :كتاب السحر (الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م)،ص٢٠ .
٤٥–سهير القلماوى: المرجع السابق، ص ١٦٠ .
٤٦– سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص١٧١ .
٤٧ – أحمد رشدى صالح: الأدب الشعبى (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)،ص١٤٤ بم٤٨.١٤٥ –البغدادى :الإفادة والاعتبار، ص ٩٤، ص ٩٥ .
٤٩ –ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٣٦؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ٥٦، البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص٩٢؛ الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول، ص١٠٩؛ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٧٨٥؛ الأقفهسى: أخبار نيل مصر، ص٦٣؛ أولياجلبى: سياحتنا مه مصر، ص ٦١٨ .

٥٠–القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٢٥ .
٥١ –الخطط، ج١، ص ٤٠ ص ٤١ .
٥٢ – مؤخراً، رأى العلماء أن "لعنة الفراعنة" ربما تكون بالفعل هى جراثيم الأتربة التى اكتشفها علماء الأحياء الدقيقة فى المومياوات المصرية، وهذه الجراثيم يمكنها البقاء آلاف السنوات فى مكان مظلم وجاف، معظمها غير مؤذ، غير أن بعضها يمكن أن يكون ساماً وربما تكون هذه الجراثيم خرجت للهواء عندما فتحت المقابر للمرة الأولى، ودخلت أجساد الذين فتحوا المقابر عبر الأنف أو الفم، أو العينين، وربما يؤدى الضرر الذى تحدثه هذه الجراثيم إلى الفشل العضوى والوفاة، خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يعانون من ضعف أجهزة المناعة لديهم، ويُقال أن (هوارد كارتر) مكتشف مقبرة (توت عنخ أمون) عام ١٩٢٢م، لاحظ وجود فطريات بنية اللون تغطى الجدران الداخلية لمقبرة (توت عنخ أمون) وعقب افتتاح المقبرة بوقت قصير، بدأت قصة تنتشر فحواها أن لعنة أصابت كل من تورط فى إقلاق نوم الفرعون، ووفقا لرواية هوارد كارتر، عثر على لوحة طينية نقش عليها "الموت يأتى على أجنحة لمن يقلق نوم الملوك" واللوحة نفسها لم تدرج فى قائمة محتويات المقبرة، ولا توجد بأى حال احتمال – إلا فى خيال كارتر، ولم يذكر خبراء المصريات والآثار شيئا عن الدليل على وجود اللوحة، ومع ذلك سارعت التقارير الصحفية إلى التأييد، وروجت لفكرة لعنة المومياء المصرية الأسطورية الجذور. انظر:آنا رويز: روح مصر القديمة (ترجمة إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٩٦٥، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص ٢٠٩؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص: ص ٦٠–٦١ .
٥٣ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٨٤ .
٥٤ – ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص٥٩ .
٥٥ – سياحتنامه مصر، ص ٦٢٠– ٦٢١ .
٥٦ –ابن محشرة: المصدر السابق، ص ٦٠ .
٥٧ –ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٣٨ .
٥٨ – البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٦ .
٥٩ – نفسه، ص٣٥١ .

www.alkottob.com

٦٠ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٢؛ البلوى: سيرة أحمد بن طولون،ص١٩٦ .
٦١ – البلوى: مصدر سابق، ص١٩٦ .
٦٢ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ١٠٢ .
٦٣ –التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٤٦٠ .
٦٤ –دنانير يوسفية: نسبة إلى يوسف (، والذى كان يعتقد أنه خزن أموال وكنوز مصر فى الأهرام واتخذ منها أهراء لهذا الغرض.
٦٥–بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٣٦؛ ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ١٠٢؛ المقريزى: الخطط، ج١، صـ ٧٥ .
٦٦ – البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٦ .
٦٧ –بدائع الزهور: ص ١٦٧ .
٦٨ –الأَزَجُ: بناء مستطيل مقوس السقف، وجمعها: آزاج، المعجم الوجيز؛ القاموس، المحيط، ج١، ص ١٨٤ .
٦٩ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٢٧٥ .
٧٠– فاروق خورشيد: جولة فى التراث، معادن الجوهر (مكتبة الأسرة ' القاهرة ١٩٩٩م)،ص٩٠ .
٧١ –كان منار الإسكندرية منذ إنشائه فى عهد بطليموس فيلادلغوس (٢٨٠ ق.م – ٢٧٩ ق.م) أحد المعالم البارزة فى العمران السكندرى، بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه فى المصادر المختلفة: اليونانية، واللاتينية والعربية، وقلدت صوره فى منارات أخرى ومن بينها منار قادس الذى كانت صورة مصغرة منه: الزهرى: كتاب الجعرافيا، ص ١٠، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الإسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس (صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، مدريد ١٩٨٦م، عدد ٢٣)، ص ١٨٤؛ سحر السيد عبد العزيز: مدينة قادش ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الإسلامى(الإسكندرية، ١٩٩٠م) ص ٩، ص ٤٠ .

٧٢ –ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (دار صادر، بيروت، ١٩٦٠)، ص ٤٠ .
٧٣ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٢٧٧ .
٧٤ –ابن الوردى: خريدة العجائب، ص ٣١؛ ابن محشرة: الاستبصار، صـ ٩٥ .
٧٥ –انظر: ابن إياس بدائع الزهور، ج١، ص ١٠٦؛ المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٢٨١ .
٧٦ –الهروى: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٨؛ القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٤٦ .
٧٧ – ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور،ص٢٠
٧٨– المرجع نفسه، ص١٧ .
٧٩ – سعد الخادم: الفن الشعبى، ص ٨٢ .
٨٠ – التلمسانى: سكردان السلطان، ص٤٣٤ .
٨١ – أ . د . جرنى: الحيثيون (ترجمة :محمد عبد القادر محمد، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد٢٥٧، القاهرة ١٩٩٧م)،ص١٩٦ .
٨٢ – آنا رويز: روح مصر القديمة، ص١٥٧ .
٨٣ – ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور، ص١٨ .
٨٤– نفسه، ص٢١ .
٨٥ – ابن وصيف شاه :جواهر البحور ووقائع الدهور، ص١٩ .
٨٦– ابن الحاج التلمسانى المغربى (ت٧٣٧هـ):شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى (الطبعة الأولى، مكتبة محمد على صبيح، ميدان الأزهر و القاهرة ١٩٠٧م)، ص٩٥ .
٨٧ – المقريزى: الخطط، ج١، ص٣٤ .
٨٨– نفسه، ج١بص٣٥ .٨٩ – جواهر البحور ووقائع الأمور، ص٢١ .
٩٠ – الزهرى: كتاب الجغرافية، ص ٣٩ ص ٤٠ .
٩١ –السكردان فى الأصل: خوان يوضع فيه الشراب.
٩٢ –التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٣٥١ .
٩٣– المصدر السابق، ص٣٤٩ .
٩٤ –كان المصريون أول الكيميائيين، وفى عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن

www.alkottob.com

السبعة: الذهب، الفضة، الزئبق، النحاس، والحديد، الزنك، الرصاص، ويتحكم فى كل منها الكواكب السبعة على التوالى التى كانت تُعْبَد: الشمس والقمر، عطارد، الزهرة، المريخ والمشترى، وزحل. للمزيد انظر: آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤ .

٩٥ –التلمسانى: المصدر السابق، ص ٤٣٣؛ المقريزى، الخطط، ج١، ص٣٣ .

٩٦ –آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤ .

٩٧ – البونى :شمس المعارف الكبرى، ص٤٦٢ .

٩٨ –شفيق مقار: السحر فى التوراة والعهد القديم (الطبعة الأولى، مكتبة رياض الريس، بيروت ١٩٩٠م)، ص ٤٦٣، ص ٥٠٤؛ حسين مؤنس: الحضارة، ص ٧٠ .

٩٩ – شفيق مقار: السحر فى التوراة، ص٤٧٨ .

١٠٠ – سعد الخاتم :الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص١٥٤ .

١٠١ – للمزيد، انظر شفيق مقار، السحر فى التوراة، ص٤٧٩ .

١٠٢ – سليمان حسن :الرموز التشكيلية، ص١٨٠ .

١٠٣– التلمسانى: سكردان السلطان، ص٣٥٦-٣٥٧ .

١٠٤ –إميل لودفيغ: النيل حياة نهر (ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص ٦٦٣، ص ٦٦٥ .

الفصل الرابع

فراعنة مصر القديمة الأسطورة والتاريخ

www.alkottob.com

" ارفع من شأن الجيل الجديد، إن مجتمعك ملىءٌ بالشباب الناشئ الذين هم فى سن العشرين، فضاعف هذا الجيل الجديد وزد من عدد أتباعك منه، وزوده بالثروة والحقول والماشية"

«التعاليم الموجهة إلى الملك المصرى"مرى كارع"

بردية لينينجراد التى يرجع عهدها إلى عصر تحتمس الثالث (١٤٧٨-١٤٤٧ق.م)

حين اندثرت الحضارة المصرية القديمة، وحلت محلها حضارات أخرى، فإن الآثار المبهرة التى خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينة فى الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمى المتراكمة، ما زالت تكتشف يوماً بعد يوم، وما زالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على إبهار الرحالة والمؤرخين والذين سجلوا وذكروا قصصاً كثيرة عن الفراعنة الذين كانوا يحكمون مصر، وعن حياة وعادات وتقاليد المصرين التى

www.alkottob.com

كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه، كما ذكروا أيضا الكثير من الأساطير والخرافات التى لا تصدق عن مصر وحضارتها التى ارتبطت بالفراعنة، وهم ملوكها القدماء، الذين توارت شخصيتهم بين الأسطورة والتاريخ.

وكانت كثيرة هى الجهود التى بذلت من جانب الرحالة والمؤرخين؛ للتعرف على فراعنة مصر القديمة، فكانت جهودهم أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ فى بعض موضوعاتها. التى حفلت بالخيال الواسع الذى زاد من خصوبته أن فرعون لم يعجز فى أن يجد حوله من يدافع عنه ويستأنف حكم القصص الدينى عليه أمام الوجدان الشعبى الجمعى الشغوف بصورة البطل المنصف، أو المستبد العادل والمبارك – رغم أن المستبد لم يكن عادلاً أو مباركاً فى يوم من الأيام – إنه تمجيد لصورة القوة حتى لو خلت من وجه الإنسان.

دفع الوجدان الشعبى ببطلان حكم القصص الدينى على الفرعون الذى ارتبط اسمه بمصر، مدعمين دفاعاتهم بروايات مختلفة جاء فيها: ".. وقال موسى: يا رب، إن فرعون جحدك مائتى سنة، وادعى أنه أنت مائتى سنة، فكيف أمهلته. فأوحى الله إليه: أمهلته لخلال فيه. إنى حببت إليه العدل، والسخاء، وحفظت له تربيتك.... إنه عمر بلادى وأحسن إلى عبادى..."(١). والروايات أظهرت فرعون عادلاً منزهاً عن الظلم حين عنف وزيره هامان عندما جمع مائة ألف ألف دينار للخزينة مقابل أن يجرى هامان للناس الماء إلى أرضهم فعنف فرعون هامان بقوله: "بئس ما صنعت من أخذ هذه الأموال، أما علمت أن السيد المالك ينبغى له أن يعطف على عبيده، ولا يأخذ منهم

على إيصال منفعة أجراً، ولا ينظر إلى ما بأيديهم. أُردد المال إلى أربابه ولا تأتى بمثلها..."(٢)

الموروث الشعبى المتعلق بفرعون مصر – الموسوم بالكفر والطغيان فى القرآن – تعاطف كثيراً معه، فأضفى عليه بعض الصفات المحببة إلى نفوس العامة، بحيث يعطى لشخصيته بعداً دينياً محبباً، فالشخصية التاريخية هنا غير الشخصية الأسطورية التى غذَّاها ولا يزال يُغذيها الوجدان الشعبى الشغوف بفضائل مصر، والذى ما لبث يخلع على ملوكها الفراعنة صفات وينسب لهم أحداثاً مغايرة ليكتب لهم الخلود شعبياً، إلى الدرجة التى ينبغى التمييِّز عند الدراسة بين الشخصية الشعبية، والشخصية التاريخية لنفس الحدث أو الشخص.

فجاءت الشخصية التاريخية لفرعون مصر غير الشخصية الشعبية له إذ تحكى الروايات؛ أنه خرج من صفوف الفقراء وظهر كمدافع عن حقوقهم، وبرز للناس بريئاً من تجاوزات بطانته الظالمة، ليصبح فى الذهنية الشعبية صاحب سلوك مثالى، ولا شك أن إسقاط العيوب عن الشخصية التاريخية لصالح الشخصية الشعبية، يعد تعبيراً صادقاً وتلقائياً عن رأى الناس فى الدور المحورى والتاريخى لملوك مصر الفراعنة الذين شيدوا العديد من المبانى الضخمة والرائعة فى طول البلاد وعرضها، فجاءت تلك الروايات تقديراً من الناس لهذا الدور بغض النظر عما أثبتته الإشارات القرآنية، أو ما سطرته أقلام الرحالة والمؤرخين و المفسرين والفقهاء الملتزمين بالحقائق المجردة.

www.alkottob.com

بيد أن ذلك لم يمنع من أن لفظ (فرعون) قبع فى الذاكرة الشعبية للناس رمزاً للجبروت، والقوة والتعالى؛ فيصفون من يتخذ هذه الصفات بأنه "مُتفَرْعن" ويفسرون تَفرْعُنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه، وعدم رده وصده بقوة أكبر[٣]، وربما تسنى لنا إيجاد صلة بين هذا المعنى وبين ما ورد عند النابلسى من تأويله لرؤيا فرعون فى الأحلام بقوله :"هو فى المنام عدو الدين ومن رأى فرعون حسن الحال فهو سوء حال الإمام وقومه، كما أن سؤ حال فرعون حسن حال الإمام وقومه، كذلك كل عدو لرجل، ومن رأى أنه تحول بعض فراعنة الدنيا فإنه ينال قوة وتشيع دعواه ويفسد دينه "، ويقول ابن سرين فى (منتخب الكلام فى تفسير الأحلام) :" وكل فرعون يراه الرجل فى منامه فهو عدو الإسلام، وصلاح حاله يدل على فساد حال أهل الإسلام وإمامهم ..فإن رأى كأنه تحول كأحد فراعنة الدنيا، فإنه ينال قوة، وتضاهى سيرته سيرة الجبار، ويموت على الشر "[٤]، وهو خلط شاع لدى العامة بين اسم الفراعنة – مفردها فرعون – واسم قدماء المصريين مما حيَّر كلاً من المسعودى وابن خلدون ومن كان فى زمانهم فى سياق بحثهم عن أصل هذا اللقب، فأوردت المصادر التاريخية الكثير من الروايات، وها هو صاحب النجوم الزاهرة ينقل عن المسعودى قوله: "قال المسعودى: سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير اسم فرعون فلم يخبرونى عن معنى ذلك ولا تحصل لى فى لغتهم، فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت"[٥].

كشف المسعودى من المسح التحقيقى الذى أجراه بنفسه فى أيام

زمانه، ومع من وصفهم "بأهل الخبرة" من الأقباط، كشف لنا أن أهل مصر لا يفقهون ماهية هذا اللقب الشهير[٦] ، بل لا يوجد فى لغتهم، كما اكتشف المسعودى بنفسه، وأرجع ذلك بما حدث من تغير اللغة المصرية القديمة التى صبغ اللقب فيها، كتغير اللغات الأخرى، الأمر الذى نتج عنه جهل أقباط مصر بمعناه القديم، وافترض المسعودى أنه كان سمة لملوك مصر الأقدمين، ويمكن القول أن نظرة المسعودى هذه نظرة علمية تتسم بالدقة وسلامة المنهج.

أما الرحالة ابن خلدون فقال فى باب "الخبر عن القبط وأولية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم": كانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر فى اللغة القديمة ثم تغيرت اللغة وبقى هذا الاسم مجهول المعنى كما تغيرت الحميرية إلى المضرية.."[٧]، رغم أن لقب "فرعون" قد ورد فى القرآن الكريم بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع![٨] إلا أنه أصبح عَلماً على أهل مصر فى نعتهم بـ "الفراعنة" (فلقب الفرعون يطلق على ملوك مصر.، فإذا أرادوا الجمع فى اللفظ قالوا: الفراعنة"[٩].

وتناول الرحالة والمؤرخون لقب "فرعون" بالتعريب، حيث أطلقوا أسماء عربية على فراعنة مصر وملوكها فيقول المقريزى: ".. ثم وقع غلاء فى زمن فرعان بن مسور، وهو التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض، وفسدت الزروع، وجاء بعقب ذلك الطوفان، فهلك الملك فرعان وهو سكران وهو أول من سمى باسم فرعان.."[١٠]، وقيل: سمى فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته،

www.alkottob.com

وخدمه ونساءه وكثيراً من الكهنة والحكماء"(١١)، أما التلمسانى فقال: "فرعون؛ لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وهو عات، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة"(١٢).

يلفت النظر هنا تأثير فكرة الأنساب العربية فى نسبة كل شىء إلى جد أسطورى أعلى يفسرون به معنى الاسم الذى ارتبط بالتكبر، والتجبر، والظلم، ومما يسترعى الانتباه أن الروايات جعلت ممن تلقب به رجلاً عربيا كان يعرف بـ "الوليد بن مصعب"، كما خلعت أسماء عربية على معظم فراعنة مصر، وهو ما يكشف لنا عن أن الوجدان الشعبى العربى قد شغل بقصص فرعون حيث كان معروفاً لدى العرب قبل الإسلام، حين كان القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهى العربى، وكانت قصص فرعون، وعاد وثمود تنتقل بينهم بالتواتر، وعندما لم تشبع روايات الإخباريين حاجات وجدانهم، راحوا يضيفون من تصوراتهم وموروثاتهم إلى هذه الأخبار متأثرين بالروح العربية ونزوعها لتعريب الكلمات والأسماء والأحداث.

أشار ابن زولاق إلى الارتباط فيما يتعلق باللقب فقال: "واختلف فيه، فقيل: كان من العماليق، وقيل: كان من القبط ويكنى أبا مرة، وهو الوليد بن مصعب، وهو أول من خضب بالسواد لما شاب، دله علية إبليس، ولعظم شأنه وعتوه ذكره الله فى خمس وعشرين سورة من القرآن..."(١٣)، هذا التشويش والارتباك فيما يتعلق بلقب فرعون شمل أيضا الحديث عن أصول هؤلاء الفراعنة وعددهم وكان ذلك مرتعاً لخيالات الرحالة والمؤرخين وتخميناتهم كقول المسعودى: " والذى اتفقت عليه التواريخ – مع تباين ما فيها – أن عدة ملوك

مصر من الفراعنة، وغيرها؛ اثنان وثلاثون فرعوناً..."(١٤) أما صاحب الاستبصار فيشير إلى أن: "الفراعنة سبعة وهو كان أولهم – يقصد فرعون إبراهيم (– وقيل أنما سمى فرعون لأنه أكثر القتل"(١٥) واتفق معه الإسحاقى بقوله :"وقد ملك مصر سبعة من الكهنة ولهم الأعمال العجيبة والأمور الغريبة"(١٦)، وأورد ابن إياس نقلاً عن وهب بن منبه: "أن الفراعنة الذين ملكوا مصر كانوا ستة؛ فأولهم فرعون إبراهيم الخليل (، كان اسمه طوطيس"(١٧) أما التلمسانى فقد اختص الفراعنة من الملوك بالأنبياء فقط. وجعل الفراعنة وقفاً عليهم بقوله: "الفراعنة ثلاثة؛ أولهم: سنان الأشل صاحب سارة، كان فى زمن الخليل بمصر. الثانى: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف (الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى)(١٨)

حاول المؤرخون والرحالة الإيغال فى زمن فراعنة الأنبياء، والاعتماد على حقائق ملموسة بشأن تلك الفترة، ولكن كانت تعوزهم الأدلة والحجج، فاعتمد فكرهم على النقل من الأقدمين، ثم على الأخبار المتواترة فى المجتمع، فإذا بالأسطورة فتتسرب فتزيد وتبالغ، وتصور ما تعرض له الأنبياء، وتاريخ نضالهم مع قوى الشر والإنكار فجاءت صياغة هذا الموروث؛ صياغة قصصية فى زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، فامتزجت الأسطورة بالتاريخ وتوارى فراعنة مصر بين ركام الخرافة.

من هؤلاء الفراعنة الذين شغلوا فكر المؤرخين فى سياق حديثهم عن مصر "فرعون إبراهيم" حيث نسج الخيال الشعبى حوله أساطير جمة تصوره فى الطور الأول من حياته بالملك العاتى والظالم، ثم

www.alkottob.com

تحوله فى الطور الثانى من حياته؛ ملكاً صالحاً عادلاً وواصلاً لرحمه، تقول الروايات: "حكى أن إبراهيم (؛ كان قادماً مع (سارة) إلى مصر، حدثت النفس الأمارة بالسوء الملك الجبار (طوطيس)، بأن يمد يده إلى (سارة)، ويراودها عن نفسها، فشل الله سبحانه وتعالى يده فى الحال. ودعا (إبراهيم) أخيراً أن يعيد الحياة إلى يده، فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمارة بالسوء، حملته مرة أخرى على اغتصاب (سارة) ومحاولة التعدى عليها، فشلت يداه مرة أخرى، وقد عفا عنه (إبراهيم) هذه المرة، ودعا له بالشفاء، فبرئت يداه، وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم الخليل ناطقا بالشهادة (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فصار مسلماً"(١٩).

وتمضى الرواية التاريخية لتقول إن فرعون إبراهيم قد وهب إبراهيم (السيدة هاجر)، التى ولدت له (إسماعيل) (، وحباً فى لقاء إبراهيم وسارة: "عمد إلى فتح الجبال تجاه بنى سويف، وتمهيد الطريق إلى مسافة ثلاثة أيام، حتى بحر السويس، حيث أجرى النيل إليه، وتمكن من إرسال مئات من السفن، والمراكب بالمؤن والذخائر، إلى أهل مكة....(٢١)

وذهب ابن كثير فى نسب هذا الفرعون إلى أحد العمالقة من نسل سام بن نوح، أو الحميريين من عرب الجنوب، وتخلع عليه اسماً عربياً فى قوله: "وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا الضحَّاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام فى التيجان: أن الذى أرادها عمرو

بن إمرئ القيس بن بابليون بن سبأ وكان على مصر (٢٢)، ويلاحظ أن هذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة فى نسبة كل قبيلة أو مدينة إلى جد أعلى، ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم بابليون (وهو اسم الحصن الذى كانت تقيم به الحامية البيزنطية التى حاصرها جيش عمرو بن العاص فى خضم أحداث فتح مصر)(٢٢) باعتباره اسماً لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر ومن الواضح أن الروايات حاولت إرضاء حاجات ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها فى المجتمع المصرى آنذاك.

الأمر ذاته تكرر مع (فرعون موسى) حيث: "تنازع الناس فى أمر فرعون موسى؛ فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من قال :هو من لخم من الشام، ومنهم من رآه أنه من الفرس من مدينة اصطخر، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصرام، والقبط تثبت ذلك، وزعم قوم أنه من الأعاجم من الأندلس من قرمونة، وذكروا: أن اسمه الوليد بن مصعب..."(٢٣)، وأشار ابن عبد الحكم إلى أن: "فرعون موسى – اسمه طلما – قبطى من قبط مصر، أو من فران بن بلى واسمه الوليد بن مصعب، وكان قصيراً أبرش يطأ فى لحيته .. حدثنا عن هانئ بن المنذر: أنه – فرعون موسى – كان من العماليق وكان يكنى بأبى مرة .. كان فرعون أثرم، ويقال: بل هو رجل من لخم والله أعلم..."(٢٤)، وأمدنا الموروث الشعبى برواية منسوبة إلى عائشة ،"قالت عائشة (: أقام فرعون بمصر أربعمائة سنة .. ولم يكن من أولاد الملوك وإنما أخذ ملك مصر بحيلة(٢٥)، وعلى لسان عمرو بن العاص أورد المؤرخون رواية تقول: "اختلف أولاد الملوك بمصر فيمن

www.alkottob.com

يكون الملك، فرضوا بمن يحكم بينهم، وأن يكون من يطلع من الفج، فطلع فرعون راكباً .. وسألوه الحكم بينهم .. فقال لهم: "قد اخترت نفسى أن أجلس وأوطئ لكم الأمر..."[٢٦] وقيل أن ": فرعون كان عطاراً بإصبهان، فركبه الدَّينْ وأفلسَ، فخرج منها هاربا ..فأتى مصر .. ثم سار فى الناس سيرة سنة، وكان عادلاً سخياً، يقضى بالحق ولو على نفسه، فأحبه الناس فتوفى الملك فولوه عليهم"[٢٧].

ومن ناحية أخرى لعب الفراعنة دوراً لابأس به فى كتابات الرحالة والمؤرخين التى تناولت فضائل إذ نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعاً من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبى، فضلا عن الأدب والدين، والذى كان إفرازاً للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية،والموروثات الثقافية المحلية. فى كل مصر من أمصار دار الخلافة والذى كان قد نضج بالقدر الذى جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها[٢٨]

وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخى من المصريين فى العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل مصر؛ كم مرة ذكرت فى القرآن الكريم؟، وفى الأحاديث النبوية؟، مَنْ نزلها من الصحابة، والتابعين ؟، ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخها منذ بدء الخليقة. وهنا تلعب الأساطير دوراً بارزاً وتفعل فعلها فى الواقع والوقائع. وبرغم أن كثيرا منالرحالة و مؤرخى مصر قد دخلوا إلى صميم (فضائل مصر) من بوابات القرآن والحديث النبوى، فإن باب الأسطورة ظل

مفتوحاً لم يغلقه أحد إلا القليل وخاصة حول تفسير الآيات القرآنية الكريمة التى ورد فيها ذكر مصر.

فنجد قصصاً شعبية تتسم بالحبكة الكاملة فى سياق تفسير الآيات القرآنية كالتى يحكيها ابن زولاق وغيره من المؤرخين عن السحرة الذين آمنوا بموسى فى ساعة واحدة فيقول ابن زولاق: "وممن أخرجت مصر من الأفاضل؛ السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى، وكانت عدتهم اثنى عشر ألفاً، تحت يد كل ساحر عشرين عريفاً، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتى ألف واثنين وثلاثين ألف ساحر، آمنوا كلهم فى ساعة واحدة، ولا يعلم من آمن فى ساعة واحدة أكثر من هذا"[٢٩]، لنجد خلافاً بين المؤرخين[٣٠]، فى تقدير عدد هؤلاء السحرة وقد حسبها هؤلاء المؤرخون من فضائل مصر.

وتتسع الرؤية والتفسير الأسطورى للحادثة عند (الإسحاقى المنوفى) لتلعب الكائنات الأسطورية دورها فى المخيلة الشعبية بقوله: "... أن السحرة الذين حشرهم فرعون من سبع مدائن؛ شطى وبوصير وبنها وطنان وأرمنت وأسيوط وأنصنا، ومع ذلك لم يغن عنهم عددهم، ولا كثرة عددهم، بل لما ألقى موسى عصاه بإذن الرب الإله خروا له ساجدين. وقالوا: آمنا برب العالمين، قيل: أنه لما ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين أى حية صفراء فاتحة فاها.. ثمانون ذراعا، وقيل: أنها ارتفعت من الأرض قدر ميل، وقامت على ذنبها، واضعة فكها الأسفل فى الأرض والأعلى على سطح القصر الذى فيه فرعون، فوثب فرعون هاربا. أحدث. قيل: أخذته البطنة فى

www.alkottob.com

ذلك اليوم أربعمائة مرة وحملت على الناس فانهزموا، ومات منهم خلق كثير ... مات منهم خمسة وعشرون ألفاً وذكر أن فرعون صاح وقال: خذها يا موسى وأنا أؤمن بك .. فأخذها فعادت عصا فلم يؤمن فرعون بل كفر وعصى ...[٣١]

ما يهمنا فى الروايات السابقة؛ هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بحقيقة فرعون مصر وأصله، جعلت المؤرخين والرواة والرحالة فى حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم" واختلق الموروث الشعبى بعض الروايات ونسبوها إلى كبار الصحاب لإضفاء المصداقية على ما يقولونه، كما أوضحت لنا رؤية الناس لفراعنة مصر،وما يجول بخاطرهم فجاء فرعون فى المخيلة الشعبية بصورة مغايرة عما جاء به فى النصوص الدينية. حيث وجدناه ملكاً عادلا جاء بإرادة الناس ولم يكن جباراً شقياً، استعارت بعض الروايات ملامحها من نسيج السيرة النبوية فى تلميح إلى قصة احتكام سادة العرب فى أمر وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة فاحتكموا إلى الرسول الأكرم (**ص**) كذلك الأمر مع فرعون واحتكام الناس إليه، وكيف أن الخيال الشعبى قد استعار هيكل السيرة النبوية دون المضمون فيما يتعلق بتلك الحادثة. مما يدلنا إلى أى مدى تأثر الوجدان الجمعى بسيرة النبى (**ص**) التى ظلت سيرته (أبرز شخصية أساسية فى الآداب الشعبية العربية لكونه البؤرة النورانية المباركة، التى يلتقى عندها العديد من فنون الأدب الشعبى، والواضح أن الكثير من الروايات التى صاغها الوجدان الشعبى حول فرعون مصر،فى بعضها صدى لسيرةوكرامات الأنبياء أو محملة بإشارات

من قصصهم التى لم تزدهر وتنمو وتنضج إلا فى ظلال القرآن الكريم.

أما فيما يتعلق برواية عصا موسى والأفعى العملاقة فالثابت تاريخياً أن كل مدرسة من مدارس السحر فى مصر القديمة تخصص فى نوع معين من السحر، وما يرتبط به من معجزات يحتفظ بسرها الساحر الأعظم أو رئيس الكهنة، فاشتهر معبد زايس (صالحجر) بسحر الأفاعى وفى مقدمته تحويل العصا أو حزام الوسط إلى أفعى بعد إلقائها على الأرض، وقراءة التعاويذ السحرية عليها . كما كانت لهم قوة السيطرة على الفاعى بالتعزيم عليها حتى تأتمر بأمرهم فيخرجونها من جحورها . ويبطلون من فاعلية سمومها أو يوجهونها إلى أى مكان يريدون لتنتقم من أعدائهم . وكانوا يعدون الأفاعى نوعاً من الجن الذى يتشكل بشكل الأفعى .

ومعبد زايس المذكور هو الذى تعلم فيه موسى (عليه السلام) ودرس اللاهوت والحكمة وفاق بمعجزاته بقية السحرة أمام فرعون عندما ألقى بعصاه فتحولت إلى أفعى أكلت أفاعى بقية السحرة . كما اشتهر كهنة أهناسيا بمعجزات ما أطلق عليه سر الأحلام، وقراءة الغيب والوساطة والاتصال الروحى عن طريق الأحلام . وتحوى بردية (تورين) الكثير من صفحات كتب سحر الأحلام وكتاب مفتاح الأحلاموفى هذا المعبد درس يوسف عليه السلام الرياضيات والفلك وعينه فرعون كاتباً بالقصر وأميناً على المخازن، بعد نبوءته المشهورة فى تفسير الأحلام[٣٢].

إضافة لذلك فقد كان هؤلاء الفراعنة فى الأساطير العربية التى

www.alkottob.com

صاغها الوجدان الشعبى على علم بالسحر والطلسمات التى تساعدهم على إعمار الأرض وتشييد العمائر الضخمة التى تركوها والتى استطاعوا بواسطتها إحداث ممارسات حضارية جديدة بل واستطاعوا بمساعدة علوم السحر أن يشقوا نهر النيل وإصلاحه فنجد ذلك فى روايات عديدة حفظها لنا المؤرخون والرحالة بقولهم: " إن مصرام هو الذى بنى مدينة مصر،وإليه تنسب، وكان عالماً بعلم الكهانة والطلسمات،وكان قد كتب على أبواب مصر،أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة،والصور الناطقة وهو الذى ساوى الأرض حتى أتى منبع النيل وبنى به الجسور والقناطر وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التى كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحاً فى الأرض نحواً من ثلاثين سنة، ثم هلك وتولى من بعده أخوه عيقام وقد توجه عيقام إلى خلف الاستواء وبنى هناك قلعة من نحاس أصفر. فى سفح جبل القمر، الذى ينحدر من أعلاه النيل وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلولها ماء النيل،ويصب فى بطائح هناك،ثم ينحدر إلى أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد. وقدر ذلك على ستة عشر ذراعاً تروى أرض مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكناً فى القصر النحاس الذى بناه على سطح جبل القمر حتى هلك "(٣٣).

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدى البشر، وتمضى الأسطورة عند المقريزى لتضيف عن نهر النيل أنه :" لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل كان ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى وجه

إلى النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم، التى بنوها وساقوا منه نهراً إلى مدينة أمسوس. ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبى النيل تعديلاً ثانياً بعدما أتلفه الطوفان"(٣٤) كما يشير القلقشندى إلى أن :" نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام نزلها فى سبعين رجلاً من بنى غرباب الجبابرة ' فعمروها، وهو الذى هندس نيلها وحفره حتى أجراه، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات(٣٥).

ولعلنا نلحظ ظهور المعادن – خاصة معدن النحاس – بكثرة فى أعمال السحر التى قام بها فراعنة مصر الملمين بأعمال السحر والكهانة فوجود النحاس فى القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيراً فيما يتعلق بمنابع النيل. وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية فى الآداب الشعبية – ولعل هذا صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور فى وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية. فالمعروف أن الطقوس السحرية والأساطير الشعبية قد تأثرت بالنحاس والبرونز فاتخذت منها هى الأخرى مادة لتعاويذ السحر استمرت رغم انقضاء ألوف السنين تشغل حيزاً كبيراً من فكر الوجدان الشعبى حتى يومنا هذا، حيث نرى ما تبقى منها قائماً فى صورة أسحار أو تمائم أو فوازير متداولة عند الشعبيين .

www.alkottob.com

ولقد استخدم جنود الفراعنة فى الدولتين القديمة والوسطى النحاس فى صناعة أسلحتهم، ويبدو أن المصريين اضطروا إلى استيراد النحاس من بلاد آسيا كجبال سوريا، وبعض الجزر مثل قبرص، ونجد أن الصناع الذين اختصوا بتشكيل هذه المعادن، سواء أكانت نحاساً أم حديداً أم برونزاً، قد أحيطوا منذ القدم بأساطير رفعتهم أحياناً إلى مرتبة الآلهة .فنجد مثلاً فى المعتقدات الفينيقية القديمة إلهاً يدعى حداداً، وهو إله الرعد . وكأنه بأصواته التى يصدرها يدق بمطرقته على السندان وهو السماء، ليصنع أدوات الحديد(٣٦)، ويقول ابن شاهين فى كتاب (الإشارات فى علم العبارات) :" إن ابن سرين حين سئُل عن النحاس فإنه يؤول على أوجه، فمن رأى أنه أصاب نحاساً فإنه يصيب خيراً أو رزقاً . وقيل عند النابلسى من رآه فإنه يصيب مال من قبل اليهود والنصارى (٣٧)، وسبك النحاس اصطناع معروف لما فعله الإسكندر من سبك النحاس على سد يأجوج ومأجوج . ومن رأى أنه أصاب نحاساً غير معمول فإنه دخان وهول،وإن كان معمولاً فهو من الخدم (وأما السندان) فإنه يؤول بالقوة وربما كان مالاً على قدر ثقله . وقال جعفر الصادق: السندان يؤول على خمسة أوجه: رجل جليل القدر، ومنفعة وقوة وولاية وإقبال فى الأشغال .

ومن بين العقائد المرتبطة بالحديد والنحاس أيضاً اقترانهما منذ القدم بعقائد كانت تتخذ منها وسيلة لطرد الشياطين، كدقات الأجراس والآلات الموسيقية المختلفة، مثل المثلث والجنك الذى نرى إيزيس الممثلة فى كثير من تماثيل دولة البطالسة فى مصر ممسكة به

ومتخذة منه سلاحاً لطرد الأرواح والشياطين الضارة .

وفى فنوننا الشعبية نجد الأجراس النحاسية والحديدية مستخدمة كثيراً فى لجام وسرج بعض الدواب ولا سيما ما يجر منها العربات، حيث يمكن أن نستشف منها الغرض السحرى الذى يهدف إلى طرد الأرواح أو الشياطين التى قد تؤثر على الدابة فتجعلها تتعثر فى سيرها . وكانت بمصر عادة شعبية حتى بداية القرن العشرين، ثم أخذت تتلاشى تدريجياً وهى استعمال طاسة الخضة ؛ وطاسة الخضة طاسة نحاسية كتب عليها بعض عبارات سحرية وتعاويذ بخط تتعذر قراءته فى غالبية الأحيان، وفى وسط الطاسة شكل اسطوانى يشبه النافورة، تتدلى منه سيقان نحاسية صغيرة تشبه السمك، وهى تحدث عند تحريك الطاسة صوتاً خافتاً . والمفروض أن يشرب المخضوض من طاسة الخضة إذا أصيب بذعر أو فزع، فطاسة الخضة ـ أو طاسة التربة على حد قول الشعبيين ـ تعتبر نوعاً آخر من الأجراس والصنوج التى من شأنها طرد الأرواح التى تصيب الإنسان أو الحيوان بالسوء، فمتى طردت هذه الأرواح زال الأثر السيئ المصاحب لها فيشفى الإنسان مما أصابه (٣٨) ومن بين الوسائل المتبعة فى الكونغو للتنبؤ، والتى تشبه إلى حد بعيد فتح المندل فى عاداتنا الشعبية، تقليد يقوم على استعانة الساحر بمرآة، يشترط فى صنعها أن تكون من النحاس المصقول ؛لتظهر عليها صور الأشخاص الذين يرغب فى التعرف عليهم، كمعرفة السارق أو العدو أو ما شاكل ذلك . ويبدو فى هذا التقليد أيضاً أنه يقرب من تقليد مماثل كان منتشراً فى عهد الفراعنة، حيث استخدمت المرآة

www.alkottob.com

النحاسية فى أغراض سحرية [٣٩]، فتستخدم الشخوص النحاسية فى ممارسات السحر الشعبى للاعتقاد بأنها تعمل على تقوية الباه، وتذكر إحدى الوصفات السحرية أنه فى وقت حلول الزهرة درجة شرفها، يكون القمر والمريخ ممازحين لها، وتؤخذ صفيحة نحاس معتدلة السبك، وينقش عليها تمثال رجل وامرأة، ويشترط أن يكون النقش فى وجود سبعة أشخاص بها فيهم النقاش، وثلاثة ذكور وأربع إناث [٤٠] . ومن الشخوص النحاسية ما يعتقد أنها تقوى الباه وتصلح للعطف واستمالة النساء، نوع يصنع من النحاس الأصفر بوزن ثلاثة مثاقيل، ويصنع منه خاتم فى وقت معين، ثم يركب عليه فص من حجر اللازورد الخالص، وينقش على الفص صورة أمرأة جالسة مرخاة الشعر، وعن يمينها امرأة أخرى تنظر إليها وفى ثيابها خضرة أو صفرة، وعليها طوق وأسورة وخلاخل . ومن عجيب ما يقال عن هذا الخاتم إن داود النبى قد صنعه، فكان عنده قوة شديدة على النساء حتى أنه تزوج مائة امرأة[٤١].

فعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس فى ليالى ألف ليلة وليلة، وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التى نراها عليها فى الليالى محاطة بالسور العجيب، يذكر المسعودى فى مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر(النحاس) وقبة الرصاص التى بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"[٤٢]، والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه

وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هى غاية محصورة فى العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصية[٤٣].

كما نتلمس أخبار مدينة النحاس تلك فى الأساطير العربية التى نقلها لنا الرحالة والمؤرخون فى سياق حديثهم عن واحات مصر والواحات سواء أكانت هى التى تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال الإنسانى، فإنها – فى الحالتين – تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهى فى أحد وجوها تعبر عن حلم بمجتمع خيالى يطمح الإنسان لفك ألغازه التى تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضارى معروف لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه فى رواية المؤرخين أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا الواحات المصرية بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة.[٤٤]

وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا، ... وزعموا أن فى أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضل فى الصحراء، وفى النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع، وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا ..

www.alkottob.com

وقد وقع فى هذا البلد رجل من عرب بنى قرة.. وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما فى أيدى أربابه من الأموال.. فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه مقرب بن ماض، عزم على النهوض إليهم .. فنزل فى رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض فى بهاء تلك الصحراء، فوجد بعض أصحابه فى نواحى تلك الربوة بيتاً للأول فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا فى البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول، فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التى وجدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها..." (٤٥). ويبدو أن النقوش والكتابات التى ابتكرها الفراعنة وسميت (بالهيروغليفية) والتى كانت تنطوى على رموز تمثيلية دالة على معناها فتتداخل اللغة اللفظية مع قرينتها البصرية فى تراكم تام، والتى انتشرت على جدران المعابد المصرية والبرديات وآثار مصر القديمة، قد وقف أمامها الوجدان الشعبى مشدوداً مشدوهاً محاولاً تفسير تلك الرموز وتقديم صيغة علمية لتلك النقوش، فوصلت إلينا عبر كتابات الرحالة والمؤرخين مصحوبة بنوع من المبالغات والتصورات السرابية والتأويلات، وكانت الشروح الجغرافية والتاريخية تستند فى الكثير من جوانبها برواية الرواة وخيال الشعراء والحالمين والواهمين الذين حالوا التنقيب عن تاريخ الفراعنة القدامى المشبع بالروحانيات وبرموز الموت والقدر والسحر والتمائم والطلسمات فنجده يتحدث عن أعمال الفراعنة وينسب إليهم الخوارق ويحيطهم بهالة من القداسة التى كان السبب الأول فيها هو

إلمام هؤلاء الملوك بالسحر والكهانة وعلوم الطلسمات فيقول ابن وصيف شاه عن أحد ملوك مصر بعد الطوفان :"وأما الفرعون الخامس وهو الذى يقال له ميلاطيس الفرعونى صاحب الصنائع العجيبة والأفعال الغريبة التى لم يعمل مثلها وهو ابن دريموس، كان عالماً فاضلاً وله أعمال غريبة منها أنه عمل ميزاناً بكفتين من ذهب معلقة فى هيكل الشمس على أحدى كفتيه حق والأخرى باطل، وجعل تحتها فصوصاً ونقش عليها اسم الكواكب، فيدخل الظالم، والمظلوم، ويأخذ كل واحد منهما فصاً من جملة الفصوص ويسمى عليه ما يريده، ويجعل كلاً منهما فى كفة فتثقل كفة الظالم وتخف كفة المظلوم .. فلما دخل بختنصر إلى مصر أخذ هذا الميزان وحمله إلى بابل مع جملة ما حمل معه من مصر" (٤٦).

وربما تسنى لنا أن نجد ثمة علاقة بين الميزان الذى صنعه الملك (ميلاطيس) – والمحتمل أن يكون قد تسرب إلى الوجدان الشعبى عن طريق الرسوم الجدارية والنقوش على جدران الأهرامات والمعابد المصرية وتوابيت الفراعنة – وبين الميزان الذى كان يستخدم (مجازاً) فى الطقوس الجنائزية عند المصريين القدماء فى تلك التجربة المخيفة الخاصة بوزن القلب، مقر الأفكار الحميمة لدى المتوفى والمتضمن لأعماله الطيبة أو الشريرة ..وهناك ميزان أمام أوزيريس، فوق إحدى كفتيه يوضع القلب، الذى يجب أن يكون وزنه موازياً تماماً فى خفته لوزن ريشة (الماعت) (٤٧) الموضوعة فوق الكفة الأخرى، ويقوم أنوبيس بعملية الوزن، فى حين يقوم تحوت بتدوين النتيجة حتى لاتحدث أى مجادلة . وتبدا المحاكمة، التى يرأسها

www.alkottob.com

أوزيريس، فى سماع قائمتين طويلتى المدى عن الخطايا التى يعلق الميت أنه لم يرتكبها (٤٨) .

وصورة هذا الميزان وفكرته نجد لهما رديف فى كتب السحر الشعبى، وقد سمى الميزان الأول باسم ميزان المصادقة: طفهو ميزان، يُعرف من طبائع الحروف المتصادقة التى تحتاجها وقت الأعمال ويلقى منه الأحرف وقت العمال، وأما الموازين المتضادة التى تحتاجها وقت أعمال الشر وما أشبهها . والثانى تعرف منه نسبة الحروف المتقابلة عن الدرج والدقائق والثوانى والثوالث . والميزان الثالث الكبير له خواص جليلة وهو معرفة ميزان الأعشاب والحيوان والمعادن والحروف وطرح الإكسير... ومن خواص هذا الميزان لجميع ما عمل له فإذا كتب على أى معدن كان له تأثير عظيم وهو نافع للصلاح والفساد والخير والشر، وعند العلماء المحققين، إذا أطلقوا فى قولهم لما كتب له يكون ذلك، والله الموفق " (٤٩)

على جانب آخر لم ينس الموروث الشعبى المتعلق بفراعنة مصر القدامى أنه قد تربع على عرش مصر ملكات كانت لهن مواقف حاسمة فى تاريخ مصر وهنا يأتى دور الجماعة الشعبية التى تختار (أحد أبطالها أو حكامها) فترفعه الذهنية الشعبية لقمة هرمها المقلوب والمتجه بعكس الهرم الرسمى وتوصله إلى حد (القداسة). وهذا دائماً يكون لفترة زمنية محدودة، وهى فترة الأحداث الجسيمة والفارقة، ومع نهاية المناسبة يتحول هذا المقدس إلى شخص عادى وسط الجماعة الشعبية . وقد تقوم الذهنية الشعبية – بما تمتلكه من ملكات تصل بها إلى حد الموهبة – حسب الطلب فيثبتوه فى موضعه

لفترات ليقاوموا به، ويخلقون له بناية خاصة تتسق وفترة ولايته وقداسته، وهذا نفسه ما حدث للملكة دلوكة التى تولت الحكم فى فترة فراغ سياسى وأمنى شديد الخطورة فاستطاعت بدهائها وبما امتلكته من قدرات سحرية أن تحمى مصر من براثن العدو المتربص على الحدود الشرقية بإقامة سورخرج من نسيج المخيلة الشعبية ليقدم لنا دلالات فى غاية الخطورة. ولعل دور الملكة دلوكة يتشابه لحد كبير مع دور الملكة المصرية (شجر الدر) بعد وفاة زوجها السلطان الصالح نجم الدين أثناء صراعه مع الفرنج (الصليبيين) فى غزوهم لمصر (٥٠) .

وتقديراً لدور هذه الملكة صاغ الوجدان الشعبى لها صورة شعبية ضمنها سيرة الظاهر بيبرس متجاهلاً تفاصيل الحقائق التاريخية لصالح الصورة التى تعبر عن رؤية الناس للدور التاريخى لهذه السيدة ؛ وهو الدور الذى ارتبط بأعز مقدسات المصريين ـ أعنى الدفاع عن بلادهم ضد الفرنج المعتدين ـ وابتكر الوجدان الشعبى حلاً يناسب الرؤية الشعبية لدور المرأة فى المجتمع ومكانتها السياسية والاجتماعية . لقد رفض الخيال الذى أبدع السيرة الشعبية أن تقوم امرأة على كرسى الحكم وعرش السلطنة (وهذا ما حدث فعلاً فى التاريخ كما تسجله روايات المؤرخين فى الصورة التاريخية)، ولكنه حفظ لشجر الدر الجميل والمعروف بسبب دورها فى الدفاع عن البلاد وجعل حكم مصر حقاً شرعياً لها (وهو ما رفض الخليفة العباسى الاعتراف به)، لكنه جعلها تتزوج الصالح نجم الدين أيوب ـ بصفاته وأخلاقه المثالية من وجهة النظر الشعبية

www.alkottob.com

ـ بحيث يكون من حقه أن يحكم البلاد التى تملكها زوجته بدلاً منها من منطلق قوامة الرجال على النساء . الأمر الذى يمكننا من اعتبار (الصورة التاريخية) و (الصورة الشعبية) بمثابة قرائتين متوازيتين للتاريخ .

ولعل الوجدان الشعبى قد استعار ملامح هذا الدور العظيم ليضفيه على الملكة دلوكة التى حمت مصر بالعديد من الوسائل التى تداخلت مع العديد من الوسائل التى غلفها الجو السحرى، كان من أبرزها ما يسمى(بسور الملكة)، والسور كان أول مفردة فى منظومة التراث العمرانى المصرى، إذ كان معلماً قديماً قَدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون من الإشارة إلى وجود سور يحيط بمصر من العريش إلى أسوان. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للسور بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه فى الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التى تنظر بعين الحسد، وتتحين أى فرصة لضعف الدولة للانقضاض عليها، إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين على إيقاف الهجوم الذى يهدد بلادهم، وهذا ما نلمسه فى طيات الأسطورة التى روج لها المؤرخون فى كتاباتهم فى سياق حديثهم عن ما يسمى "بحائط العجوز" فى قولهم :" من المبانى العجيبة بمصر أيضا، حائط العجوز، وأسمها دلوكا، ملكت مصر، وهذا الحائط من العريش إلى أسوان، شامل بكور مصر من الجانب الشرقى، تزعم الضبط أن سبب بنائها له ؛ خوفها على مصر وأهلها بعد غرق فرعون وقومه، وأن تطمع فيها الملوك فبنته لذلك" (٥١)، وجعلت فيه

محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس (٥٢) ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت فى كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بأجراس، فأتاهم الخبر من كل وجه وكان فى ساعة واحدة، فنظروا فى ذلك، فمنعت مصر مَنْ أرادها، وفرغت من بنائه فى ستة أشهر، وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة"(٥٣).

والموروث الشعبى الدائر حول سور الملكة دلوكة يكشف عن حقيقة تاريخية فى غاية الأهمية، وهى أن الحدود الشرقية كانت وما زالت مصدر الخطر الدائم عبر التاريخ.ومن هنا كان اهتمام مصر الاستراتيجى الأول متعلقا بحدودها الشرقية على مر العصور وقد تعين على حكام مصر الفرعونية ابتداء من عصربداية الأسرات (منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد) أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية، وبدأت سياسة السلام المسلح فى عهد امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (١٩٦١–١٧٧٨ ق. م) بإقامة المشاريع الدفاعية التى امتدت على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وسميت فى مجملها " أسوار الوالى" (٥٤)، فهذه الروايات أيضا تحمل ظلا تاريخا يشير إلى ما أثبتته أحداث التاريخ أن حدود مصر الشرقية الطبيعية تبدأ من خارجها عند فلسطين (٥٥) .

ولعلنا نتساءل من هى الملكة دلوكة التى تردد اسمها فى مدونات المؤرخين أكثر من مرة؟. فليست هى حتشبسوت وليست هى أيضا

www.alkottob.com

كليوباترا، وليس لنا إلا أن نفترض أن الضمير الشعبى المصرى قد أخرج اسم هذه الملكة، ليلحق بها من الأعمال ما يعجز عنه الرجال، استمراراً للحس المصرى بتفوق المرأة فى أعمال السحر ومكانتها فى مجتمع الحكم والسلطة . كما أن المرأة العجوز قد اشتهرت فى الأدب الشعبى بأنها رمز للدهاء والمكيدة، فقد عزا الراوى الشعبى حماية مصر – ولو جزئياً – إلى مكائد ودهاء المرأة العجوز، وصور هذه العجوز كثيرة متعددة فى الأدب الشعبى كما هى كذلك فى ألف ليلة وليلة (٥٦).

إضافة لذلك فالسحر فى مصر القديمة لم يقتصر على السحرة من الرجال فقط، بل كان لبعض النساء دراية تامة بالسحر والاتصال بالأرواح، كما أن بعضهن حملن لقب (عرافة المعبد)، وقد دخلت التاريخ أسماء الكثيرات منهن أمثال ميليت، وأنهاى، وروى، وبعضهن كن أميرات وملكات .

وقد ذكر(ديودور الصقلى) أن بعض الملكات تعلمن السحر من الكهنة وتخصصن فيه، وأن الملكة كانت تجلس بجانب الملك على العرش وتلازمه فى زياراته للمعبد محافظة عليه من السحر المضاد وهو ما يظهر فى بعض الرسوم والتماثيل عندما تظهر الملكة وهى تضع ذراعها على كتف الملك، أو خلف ظهره لتحميه من أعداء الخفاء، بينما تحميه الكوبرا أو الأفعى التى تتصدر تاجه وجبهته من العين الشريرة والأعداء المواجهين له (٥٧) ، وربما كان الرحالة والمؤرخون على اطلاع على تلك النقوش التى جمعت بين الملك وزوجته، فكانت تكئة يستندون إليها فى روايتهم عن الملكة دلوكة .

ويمدنا ابن وصيف شاه بإشارات عن ملكة أخرى تملكت مصر كانت تسمى (نونية) فيقول :"وتولت من بعده ابنته نونية الكاهنة، وكانت ساحرة ماهرة فى علم السحر (لاحظ علاقة المرأة بعالم السحر)، فأقامت مدة . ثم وثب عليها أخوها مرقونس، وكان عالماً فاضلاً بالسحر والكهانة .." (٥٨) ولعلنا نلحظ التقارب بين تلك الملكة التى تحدث عنها ابن وصيف شاه وبين الملكة المصرية القديمة (حتشبسوت)التى شيدت واحداً من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التى خلفتها الدولة الحديثة (حوالى ١٥٨٠ ق.م – ١٠٨٥ ق.م)، وهو معبد فريد فى بابه، وليس له مثيل فى معابد العالم كله، وقد وضع تصميمه وأشرف على بنائه المهندس الشاب (سننموت)، الذى أصبح المستشار الأول للملكة فى كل الأمور . وحكمت البلاد لمدة تبلغ سبعة عشر عاماً واستطاع تحتمس الثالث أن ينفرد بالحكم بعدها لمدة ٤٨ سنة (٥٩). ولعل ذلك يدل على وصول إشارات مرتبكة من تاريخ الفراعنة القدامى إلى الضمير الشعبى، الذى أخذ يتناقل تلك الإشارات الشعبية من جيل على جيل .

وحلق الخيال الشعبى بعيداً فيما يتعلق بحادثة غرق فرعون موسى، والتى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، فيقول ابن عبد الحكم نقلاً عن عدة رواه:" أقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذى عبر منه موسى عليه السلام وطرقه على حالها.. وكان فرعون يومئذ على حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فتفرقوا فى الناس، وتقدم جبريل عليه السلام فسار بين يدى فرعون وتبعه فرعون وصاحت الملائكة فى الناس الحقوا الملك،

www.alkottob.com

حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم التقى البحر عليهم فغرقوا، فسمع بنو إسرائيل وجبة حين التقى . فقالوا: ما هذا ؟ قال موسى: غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل"(٦٠) ، فحين أشار القرآن الكريم إلى فرعون موسى وقومه وما حاق بهم من عذاب بسبب عصيَّانُهم وإنكارهم للحق أشار إلى ذلك بصفة إجمالية، دون اللجوء إلى تفاصيل حقيقة، كان الهدف من ذلك استخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه فى قلوب الناس.

ولكن الرواة تزيَّدوا وأضافوا ولجأوا إلى تفاصيل لم يشر إليها القرآن ومثال ذلك حين:" ألجم فرعون الغرق، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، فجعل جبريل عليه السلام يدس فى فيه من طين البحر، ويقول: الآن وقد عصيت، وكُتِب من المفسدين " (٦١).

وظلت الذهنية الشعبية تبحث عن السطور المفقودة فى حياة فرعون موسى وتنقب عن الشخصيات الثانوية كى تكتمل الحبكة الفنية لديها مثال ذلك قولهم أن: " من حكمة الله وحسن تقديره، أن كان والد سيدنا موسى عليه السلام هذا بواب قصر فرعون، كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص" (٦٢).

وهكذا؛ فإن القراءة الشعبية لتاريخ فراعنة مصر، كانت تحتوى فى عناصرها على مسائل أخرى شغلت الضمير الجمعى ووجدتها فرصة لأن تطرحها فى إطار رؤيتها الشعبية للأحداث فى سياق بحثها المستميت عن العناصر المنسية والناقصة فى الحدث التاريخى.

على جانب آخر لعب الحلم دوراً بارزاً فى التأريخ لحياة الفراعنة، وما يتعلق بأحداث حاسمة فى تاريخ مصر، فالحلم كان ولم يزل منبعاً فياضاً للأسطورة طوال تاريخه، ومصدراً ثرياً لإلهاماته المتواترة على مستوى الشرق والغرب، رغم اختلاف منطق استخدامه من قبل كلٍّ منهما. فضلا عما كان للأحلام من دور – كقوالب فنية – فى تشكيل القصص الشعبى المرتبط بفراعنة مصر القدامى مع تفاعل المؤثرات الدينية على الأخبار التاريخية التى وجدت طريقها إلى كتابات المؤرخين بعد تحويرها وإعادة صياغتها.

يقول ابن إياس وغيره من المؤرخين: "إن فرعون رأى ثلاثة أحلام فى الليلة الأولى؛ سمع فى الحلم هاتفاً يقول له: "ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك، ويكون على يد فتى من بنى إسرائيل". وفى الليلة الثانية؛ رأى فى منامه وكأن شابا دخل عليه وهو يركب أسداً عظيماً، وبيده عصا يضرب بها رأس فرعون، وفى الليلة الثالثة؛ رأى نفس حلم الليلة الثانية، ولما جمع الكهنة، أخبروه بولادة مولود لبنى إسرائيل، يسلب ملكه، وأشار عليه وزراؤه بأن يحضر إلى قصره كل امرأة أوشكت على الولادة تلد هناك، فإن كان المولود أنثى استحياها، وإن كان ذكراً قتله.." (٦٣)، وقد ذكر الإخباريون المسلمون هذا الحديث على خلاف طفيف فيما بينهم، والتى لم تكن تلك الأخبار سوى تنويعات على قصة التوراة إذ يعد العهد القديم المصدر المبكر الوحيد الذى ورد فيه ذكر موسى وفرعون، أما المأثورات المتأخرة حول شخصية فرعون موسى، والتى وردت فى أعمال المؤرخين والرحالة، فيبدو أنها لم تكن سوى مجموعة كبيرة من الأساطير التى

www.alkottob.com

أعادت كتابة التاريخ الذى قدمه العهد القديم والإشارات الواردة بالقصص الدينى، فقد ورد فى الأساطير اليهودية – خارج العهد القديم – وتسربت إلى كتب التاريخ: "رأى فرعون فى منامه؛ أنه بينما كان جالساً على عرشه دخل عليه كهل، فى يده ميزان، فعلقه أمام فرعون، وأتى بكل شيوخ مصر، وأمرائها وكبرائها ووضعهم فى كفة الميزان الأولى، ثم أخذ كبشاً أبيض اللون، ووضعه فى الكفة الأخرى، فرجحهم الكبش، واندهش فرعون لهذا المشهد. وتساءل عن السبب وعندما استيقظ، دعا جميع عبيده، وقص عليهم حلمه فخافوا، لكن أحد خصيانه أخبره بأن شراً عظيما يتربص بمصر، حيث يولد فى إسرائيل ولد يخرب جميع أرض مصر، وأشار على فرعون بأن يصدر أمراً بقتل كل مولود ذكر يولد فى بنى إسرائيل" (٦٤).

وبالمقارنة بين ما كتبه الرحالة والمؤرخون فيما يخص فرعون موسى نجد أنه قد ورد عنصر النبوءة – كأحد سمات الأسطورة – فى العديد من قصص الإخباريين المسلمين وفى بعض الأساطير الإسرائيلية، وقد اتخذت النبؤة فى هذه القصص والأساطير شكلين: إما إخبار الكهنة والسحرة والعرافين فرعون بولادة مولود فى بنى إسرائيل، وإما الأحلام (٦٥) فيذكر المسعودى: "أن أهل الكهانة والنجوم والسحر أخبروا فرعون أن مولودا سيولد فى بنى إسرائيل ويُزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أموراً عظيمة.." (٦٦)، ويذكر المقريزى: "أيضا، أنه عندما أخبر العرَّافون فرعون بميلاد ذلك الطفل، منع بنى إسرائيل من المناكحة لمدة ثلاث سنين..." (٦٧) ويذكر ابن كثير: "أن فرعون رأى فى منامه وكأن ناراً أقبلت من ناحية بيت المقدس

فأحرقت دور مصر وأهلها ولم تضر بنى إسرائيل .. فأمر فرعون بقتل الغلمان.." (٦٨).

جدير بالذكر. أن الخيال الشعبى قد استعار هيكل تلك الروايات ووظفها فى سيرة إبراهيم الخليل، حيث كان مولد إبراهيم عليه السلام فى عصر الملك النمرود، الذى عُرف بكفره وعصيانه، وحذره المنجمون من أنه سيولد فى بلده هذا العام؛ غلام يغير دين أهل الأرض وأن النمرود: "رأى فى منامه كوكباً طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، فقال الكهنة: هو مولود يولد فى هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه.." (٦٩) لتستعين الرواية فى سرد سيرة إبراهيم عليه السلام بالأحداث التاريخية،التى يدعمها النص الدينى، تملأ ما تجده من فراغ تاريخى بروايات خيالية أو قصص تعليلية تكشفعن رؤية الجماعة الإنسانية لتاريخها وذاتها، خاصة مع ميل الشعوب عامةإلى قصص حكايات المعجزات والاستماع إليها. فلا غرابة أن تنتزع من سيَّر الأقدمين تلك الأخبار التى تشير إلى المعجزات والنبوءات فينميها القصاص الشعبى ويفرد لها قصصاً مستقلة.

المزج التاريخى المشوق، والتداخل بين التصور الدينى والتصور الأسطورى لشخصية فرعون مصر استمر فى كتابات المؤرخين والرحالة المسلمين فى إفلات مثير من قيود الزمان والمكان، حيث يبدو هذا واضحا فيما رواه المؤرخون عن فرعون مصر المدعو "كلكن الجبار" الذى كان يعقد التاج على رأسه، وكانت دار مملكته منف.. وكان نمرود جباراً شديد البأس، وكان ملكه بالعراق، وكان قد أوتى

www.alkottob.com

قوة وبطشاً، فغلب على أكثر الأرض، فأراد أن يستوزر كلكن الملك، وبعث إليه فى ذلك، فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك، ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفرداً من أهله وحشمه؛ ليريه من حكمته وسحره، فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن فأقبل كلكن، تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كنار، وهو فى صورة مهيبة، فدخل بها وهو متوشح تنيناً عظيماً والتنين فاغر فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذى بيده، فلما رأى النمرود هالة ما رآه، واعترف له بجليل حكمته، وسأله أن يكون له ظهيراً ففعل.." (٧٠)

هذه القصة الخيالية تحمل ظلا من الفرضية القائلة: أن الحاكم الذى كان يجمع ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى المجتمع يمارس السحر، يتراءى لعامة الناس كمتبحر فى أسراره وطقوسه، ليخلق حول شخصه أسطورية سحرية تضفى عليها صفات بطولة أو – على الأقل – تجعله شخصية مبرزة مرغوبة ويخشى بأسها(٧١) ونجد أن شخصية فرعون مصر ظلت تشغل حيزاً لا بأس به فى الكتابات التاريخية التى تناولت فضائل وتاريخ مصر القديم. كما أن الرواية السابقة قدمت لنا الصورة التى شاعت فى المجتمع المصرى عن فكرة "المخلوقات العجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء "والتى تكشف لنا كيف ربط الخيال الشعبى بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الدينى والسحر، فالحاكم الدينى أو الساحر يستطيعان بحكم قواهما السحرية والدينية أن يستدعيا "التنين الوحش" لتدمير من يريدان، أو لإخافته شخصاً كان أو ربما مدينة .. وهذا يبدو

طبيعياً طالما ربط الخيال الشعبى بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الدينى الذى يمتلك قوى سحرية ومعجزات أو كرامات يسخّر بها قوى ما فوق الطبيعة أو يسخّر بها المخلوقات الضارة المدمرة والتى ترعب الإنسان وتذهب بلبه وتنال منه ومن شجاعته ومن وجوده كله والتى تصبح خدماً لمن يملك الطلسم الذى يتحكم فيهم أو من يعرف الاسم الذى مكن لسيدنا سليمان عليه السلام أن يتحكم فى قوى الطبيعة من رياح وأمطار، وعلى قوة المعرفة التى جعلته يعرف كل اللغات بما فيها لغات الطير والحيوان والهوام أيضاً .وحين سُرِقَ كتاب السحر من تحت إيوانه تعلم منه السحرة والكهنة الكثير من الأسرار وامتلكوا الكثير من القوى التى أعارتهم فى كثير من الحكايات – القدرة على التحكم فى الطبيعة والجان و الحيوان كـ (التنين) . هذا الحيوان الأسطورى بما مثَّلهُ من شخصية هامة فى الحكايات الفولكلورية، والأساطير التى صاغت فيها الأجيال؛ معتقداتها وصنوف رعبها وتشوفها وتصوراتها عن الكائنات القوية والقوى الخفية الكامنة وراء ظواهر العالم المرئى وغير المرئى، ومن النسيج المتراكب والمتشابك المتداخل من الحكى الفولكلورى، والإبداع الأسطورى الذى ظل يتناقل شفاهة من جيل إلى جيل.

www.alkottob.com

الهوامش

١–ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٢١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٠ .
٢ –ابن الوردى: خريدة العجائب، ص ٣٤، ٣٥ .
٣ –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ٨٩؛ الزمخشرى: أساس البلاغة، مادة فرعن؛ سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية فى أمثالها الشعبية(مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٧١، ص ٧٢ .
٤ – تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره، مصدر سابق، ص٤٥٨ .
٥–ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) "ت ٨٧٤هـ": النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة(الجزء الأول، تحقيق: محمد شلتوت، طبعة دار الكتب، القاهرة)، ص ٦١؛ المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣٦٦ .
٦ـ لقب (فرعون) لم يستعمل هذا اللقب الذى يوحى إلينا بشخصية ذات عظمة، ومجد من غابر الأزمنة، إلا فى الألف سنة ق. م، كلقب للملك، وعندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر، وصيغته المصرية عبارة تعنى "البيت العالى " أو " البيت العظيم "، وكانت عبارة أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلى قصور فراعنتهم، ثم صار يطلق على الملوك أنفسهم، غير أن لقب "فرعون " لم يستعمل فى أى وقت من التاريخ كلقب حقيقى رسمى للملك: چورچ بوزنر وأخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص ٢٥٤بم ٢٥٥؛ألن رونر: مصر الفراعنة (ترجمة :نجيب ميخائيل، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م)، ص٧١ .
٧–ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص ٧٤ .
٨ –ورد لفظ "فرعون" فى القرآن الكريم بصيغة المفرد فى أربعة وسبعين موضعا: انظر. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٢٦، ص ٧٢٧ ، وجاء لفظ فرعون عند المفسرين يشوبه الضبابية وعدم الوضوح فنجد فى

كتب التفسير: كجامع البيان فى تأويل القرآن ١/٢١٣بم النيسابورى غرائب القرآن ١/٢٨١بم النسفى، وفى مدارك التنزيل ٤٧/١ وغيرهما أن لفظ فرعون اسم كانت ملوك العمالقة تسمى به، كما كانت ملوك الروم يسمى بعضهم قيصر، وبعضهم هرقل . ويقول الفخر الرازى فى التفسير الكبير ٢/٧١:" إن لفظ فرعون علم لمن ملك مصر من العمالقة، أما ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ١/٩١: إنه علم على من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم . وأشار رشيد رضا فى تفسير المنار إلى: أنه لقب لمن تولى مصر قبل البطالسة .للمزيد انظر :مصطفى عبد الحليم متولى :قصة موسى فى أعمال المفسرين دراسة مقارنة،)رسالة ماچستير –غير منشورة –، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٨٤م)، ص١٧ .
٩ – أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٤١ .
١٠ –المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٦ .
١١ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٧١ .
١٢ –التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٤٢٤ .
١٣ – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٢٢ .
١٤ –المسعودى :مروج الذهب، ص ٣٦٥ .
١٥ –ابن محشرة: المصدر السابق، ص ٧١ .
١٦ – الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ص٦ .
١٧ –ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ١٥ .
١٨ –التلمسانى: مصدر سابق، ص ٤٢٤ .
١٩ – الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٢٤٤؛ ابن كثير: قصص الأنبياء (ج١، المكتبة التوفيقية، القاهر ٢٠٠٠م)، ص ٧٧؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٣١؛ أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٣٩ .
٢٠ – ؛ أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٣٩؛ الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٢٤٤ .
٢١ –ابن كثير: قصص الأنبياء، ج١، ص ٧٧ .
٢٢ –دارت أساطير عدة حول (بابليون) فهو اسم استخدمه حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة، وفكرة وجود (بابليون) فى مصر حيث قذف

www.alkottob.com

"نبوخذ نصر" شدرخ وميشخ وعبد نغو فى الأتون الملتهب (دانيال: ٣-٢٠) كانت فكرة تتردد غالبا فى كتابات الرحالة الأوائل من أوروبا، وهناك أسباب مختلفة لتفسير هذا الاعتقاد الطريف، وكان يبدو أنه منذ أيام نفى اليهود من بابل (٥٩٧-٥٣٨ ق.م) أنهم عاشوا على ضفاف النيل فى موقع ما يسمى الآن مصر القديمة، وفضلا عن ذلك، فإن استرابون تحدث عن (بابليون) باعتبارها قلعة عسكرية، تأسست قبل الرومان على أيدى اللاجئين من بابل "بابليون" القديمة وهكذا استمر الربط بين المكانين، على أية حال، فقد كانت مصر فى عقلية العصور الوسطى دائماً أرض العجائب ؛ إذ كانت تروى عنها حكايات غاية فى الغرابة يصدقها السُذج، يضخمها ما بقى من السحر والتخمين: آن وولف، كم تبعد القاهرة؟ صـ ٣٥ .

٢٣ -الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، ص ٥٥١؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ٧٧؛ المسعودى: مروج الذهب، ج٢، ص ٣٩٧ .

٢٤-ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٤ .

٢٥ -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٨٩؛ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٢١؛ الحميرى: الروض المعطار، ص ٥٥١ .

٢٦ - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة: ص ٨٩، الحميرى: الروض المعطار، ص ٥٥٢ .

٢٧ - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٠ .

٢٨ -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٦ .

٢٩-ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، صـ ١٤ .

٣٠-انظر ؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، صـ ٨٣؛ المقريزى:الخطط، ج١، ص٢٣ .

٣١-أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص٦ .

٣٢ - سامية الساعاتى :السحر والسحرة، ص٤٠ ؛ سيد كريم: السحر والسحرة عند قدماء المصريين (الهلال، العدد الأول، يناير ١٩٧٥م)، ص٥٤.

٣٣ - ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٠، ابن الوردى: خريدة العجائب

وفريدة الغرائب، ص١٥٤- ١٥٥ .

٣٤ - المقريزى: الخطط، ج١، ص ٥١- ٥٢ .

٣٥ - القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٣ .

٣٦- سعد الخادم: الفن الشعبى، ص٧٧ .

٣٧- تفسير الأحلام وتعطيره وتعبيره، مصدر سابق، ص٦١٣ .

٣٨ - سعد الخادم: الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص ٨٠ ، ٨١ .

٣٩- نفسه، ص٨٢ .

٤٠- عبد الفتاح الطوخى: سحر الكهان فى حضور الجان (مكتبة الجمهورية، القاهرة د.ت)، ص١٣٠؛ سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص١٢٧ .

٤١ - الطوخى: المصدر السابق، ص١٣١ .

٤٢ - المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص ٩٥ .

٤٣ - انظر: سهير القلماوى، ألف ليلة وليلة، ص ١٦٠ .

٤٤- لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عموماًباختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التى تأوى إليها الشياطين والجنّ مراحاً ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنسانى المعاص،ر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفى إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمة رابطة بين بنى البشر. ٤٥ -ابن محشرة: الاستبصار، ص ١٤٦، ص ١٤٧، ص ١٤٨؛ الحميرى: الروض المعطار، ص ٦٠٠؛ والقلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٩٠؛ البكرى: المساك والممالك، ص ١٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٤ .

٤٦ - ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور، ص٢٤ .

٤٧ - الإلهة ماعت هى ربة الحقيقة عند المصريين القدماء، وكانت تصور وهى تحمل شارة على شكل ريشة عقاب، ولا ندرى السبب الذى جعلهم يختارون هذه الشارة بالذات، ولم يصل تقديسها فى العصور القديمة إلى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين، ولكنها حظيت بتقدير كبير فى أوساط المتعلمين، ولا غرابة فى ذلك (فالحقيقة) هى باستمرار أهم دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة . ولقد قال عنها أحد الملوك المصريين :"هى خبزى، وإنى أشرب من نداها "، ولعل تلك الصورة للربة

www.alkottob.com

ماعت بريشتها تسربت إلى الوجدان الشعبى بهدوء وئيد وتحورت إلى تلك الصورة التى يطلقها العامة على من يحظى بتقدير استثنائى فى المجتمع فيقولون :" هو يعنى ابن مين ؟ هو على راسه ريشة!! " ؛ انظر: أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، ص٦٨ .

٤٨ – ديمترى ميكس، كريستين فافار ميكس: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية (ترجمة :فاطمة محمود، سلسلة الألف كتاب الثانى، القاهرة ٢٠٠٠م)،ص٢٦٣ .

٤٩ – البونى: شمس المعارف الكبرى، ج ٣، ص٣٧٠ .

٥٠ – فى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة صليبية جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا . وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشام لتنظيم وسائل الدفاع عن مصر وفى صفر ٦٤٧هـ نزل لويس التاسع دمياط بقواته واستولى على المدينة، وانسحبت القوات المصرية المدافعة عن دمياط بعد أن ظن القادة أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات، وفى أعقاب الفرسان والجنود فر السكان المذعورون، وهكذا سقطت دمياط فى وداعة مذهلة لقوات الحملة الصليبية السابعة، وأخذ الصليبيون يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة . واستقبل السلطان أنباء سقوط المدينة، التى بذل جهداً كبيراً فى تحصينها بمزيج من الألم والمرارة والغضب، وتم نقل معسكره إلى مدينة المنصورة، وبدأت حرب العصابات برية ونهرية وفى تلك الأثناء توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فتولت شجر الدر الحكم فى تلك الظروف العصيبة واستطاعت كتمان خبر موت السلطان على الحاشية والرعية، وبفضل شجاعتها وقوة بأسها بدأت (شجر الدر) فى إدارة شئون الدولة ومسرح العمليات العسكرية وكأن السلطان الصالح نجم الدين أيوب ما يزال حياً ؛(قاسم عبده قاسم :بين التاريخ والفولكلور)، ص١٣٥؛ ونفرد هولز: كانت ملكة على مصر (ترجمة: سعد أحمد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م) و ٢١٩ .

٥١–الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٣٤ .

٥٢ – المحارس: ذكرها الرحالة ابن جبير فى رحلته فى (القرن السادس

الهجرى) وهى جمع محرس، وتعنى عنده ؛ مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء . أو هى النقطة الحصينة فى المدينة. انظر: رحلة ابن جبير، ص ٣٢ .

٥٣ –السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٧؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٧، ص ٢٨؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٤؛ ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٧٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥١؛ المقريزى: الخطط، ج١، ص ١٩٩ .

٥٤–عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٣ .

٥٥ – وردَ فى بردية (لينجراد) التى يرجع عهدها إلى عصر تحتمس الثالث (١٤٧٨–١٤٤٧ ق.م) فى التعاليم الموجهة للملك"مرى كارع" إشارة إلى أهمية الحدود الشرقية لمصر بقوله: " الحد الشرقى للمملكة قد أصبح أمنا الآن ضد البدو" الآسيويين" انظر: محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء(مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨م)، ص٧٨ .

٥٦ –صورة العجوز (دلوكة) نجد لها رديفاً فى حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة فى الليالى والتى دارت بسببها، وبسبب حيلِّها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالى، فهى شواهى بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها فى الكيد السياسى، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك فى سبيل الانتقام السياسى، وفى الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش؛ فهى عند المسلمين الناسك الذى يدبر لهم خطة السير، وهى عند النصارى العجوز التى توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حيِّل، وهى ربما كانت العجوز (دلوكة) فى الكتابات التاريخية قد استمدها الراوى من خياله ولكنه صبغها بواقعة كثيرا. أرجَعَ إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين، انظر: سهير القلماوى: ألف ليلة وليلة، ص ٣١٤، ص ٣١٥؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ١٦٧، ص ١٩١ .

٥٧ – سامية حسن الساعاتى :السحر والسحرة بحث فى علم الاجتماع الغيبى (الطبعة الثانية، دار قباء للطباعة، القاهرة ٢٠٠٢م)،ص٣٩ .

www.alkottob.com

٥٨ – ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور،ص٢١ .
٥٩ – انظر: ونفرد هولمز: كانت ملكة على مصر (ترجمة :سعد أحمد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، ص٥٦ـ ٥٧ .
٦٠– ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤٤، ص٤٥ .
٦١– التلمسانى: سكردان السلطان، ص٤٢٨ .
٦٢ – أوليا چلبى: سياحتنامه مصر، ص٤٨ .
٦٣ –ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج١، ص ١١٨، ص ١١٩؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٤٢٤ .
٦٤ – ى. ب. ليبنر: كل أساطير إسرائيل(معدة وفقا للمصادر الأولى، ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمنى)، (القسم الأول، نشر دار أحيا ساف" و "عيفر" أورشليم ١٩٥٠م)، عمود ٢٧٩ .
٦٥ –كارم محمود عزيز: النموذج الفولكلورى للبطل فى العهد القديم، دراسة مقارنة، (رسالة دكتوراة (غير منشورة)، جامعة الزقازيق ١٩٩٧م)، ص ١٨٧ .
٦٦ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٤٨: ٤٩ ؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٤٢٤ .
٦٧ –المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٤٦٦ .
٦٨ –ابن كثير (أبو الفداء الحافظ):البداية والنهاية (المجلد الأول، تحقيق: أحمد أبوملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م)، ص ٢٢٢ ص ٢٢٣ .
٦٩ –انظر: نبيلة إبراهيم سالم: السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبى(مجلة عالم الفكر، المجلد الثانى عشر، العدد الرابع، الكويت ١٩٨٢م)، ص ٣٤٥ ص ٣٤٩ .
٧٠ –المقريزى: الخطط، ج١، ص٣٥؛ ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٧٠ .
٧١ –شفيق مقار: السحر فى التوراة والعهد القديم(ط.الأولى، دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٠م)، ص ٣١٢، ١٦١ .

الفصل الخامس

نهر النيل فى الأساطير العربية

www.alkottob.com

"..النيل مخالف لكل نهر على وجه الأرض ..وفى أصل النيل أقوال :فذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج وهى بجبل قاف، وأنه يخترق البحر الأخضر المالح بقدرة الله تعالى، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد ".

النواجى

"حلبة الكميت ٢٩٦/"

ذات ليلة منذ أكثر من نيف ونصف قرن من الزمان، تساءل "شوقى" مخاطباً النيل فى مجراه:

مِنْ أَىَّ عهدٍ فى القُرى تَتَدفَّقُ... وبأَى كَفٍّ فى المدائن تُغْدِقُ...
ومِنْ السماءِ نزلْتَ أم فُجِّرت من علْيا الجِنان جداولاً تترقرق ...؟!
وبأَىَّ عَيْنٍ، أَم بأَيَّة مُزْنةٍ ... أم أىَّ طوفانٍ تفيض وتَفْهَق؟!.

هذه التساؤلات التى أطلقها "شوقى" تمجيداً للنيل.. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التى طالما ترددت فى شمال الوادى عبر آلاف

www.alkottob.com

السنين، فقد عنى المفكرون فى جميع العصور منذ بدء التاريخ بنهر النيل ووصفه وتتبع منابعه وحوضه، ومصبه، وكثرت المحاولات لتفسير أحواله وظواهره المختلفة، وهذه الأمور جميعها هى ما يطلق عليها "جغرافية النيل".

وكان الاهتمام بالنيل راجعاً إلى أن جميع من سَكَنَ مصر أو خالط أهلها أو زارها أو جاورها، يعلم تمام العلم أن النيل هو السبب فى ثراء مصر ورخائها، وأنه الركيزة الأولى التى قامت عليها حضارتها المبكرة، تلك الحضارة النبيلة الراقية منذ آلاف السنين، والتى كان لها الفضل على العالم كله، حيث نهل أبناؤه من وادى النيل مبادئ هذه الحضارة والعمران، يوم لم يكن حضارة ولا عمران إلا ما نشأ ونما فى أحضان هذا الوادى الخصيب(١) .

لذلك كان من الطبيعى أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين وغيرهم منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. فلا يوجد نهر فى العالم كله له من الفضل على إقليم وساكينه، مالنهر النيل من الفضل على مصر وساكنى مصر. ولذا بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدء المصرى القديم يتحول إلى الزراعة، وعلى الرغم من قلة المعلومات المتاحة للمصريين القدماء عن أعالى النيل، فإنهم سرعان ما اتصلوا بغيرهم من الشعوب والبلاد التى تسكن وادى النيل فى جنوب مصر، وهم بذلك كانوا مجدين فى الاستكشاف والاتصال بالبلاد الأخرى(٢).

واستمرت محاولات المصريين القدماء لكشف النهر، ثم جاء اليونان واستمروا فى البحث والاستقصاء عن النهر ومنابعه، وكان

أشهرهم بطليموس الجغرافى(٣) ، واستمرت محاولات العرب فى القرون الأولى للهجرة، ثم محاولاتهم فى العصور الوسطى، والحقيقة أن العرب نقلوا كتاب بطليموس عن النيل إلى لغتهم، وكان مرجعهم الأكبر فى كتاباتهم الجغرافية، ولكنهم زادوا على بطليموس أشياء كثيرة إلا فيما يختص بأعالى النيل، فكانت كتاباتهم، فى ذلك قليلة.

ومن الملاحظ أيضا أن الزيادات التى أضافها العرب على ما ذكره بطليموس عن النيل لم تكن صحيحة، بل كانت تشوبها الخرافات والأساطير فى أحيان كثيرة، وقد اتضحت هذه الصورة فى كتابات الجغرافيين والمؤرخين فى العصر الملوكى (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، الذين نقلوا ما أورده القدماء من العرب وغيرهم عن نهر النيل، ولم تزد معلوماتهم كثيرا عما أخذوه من القدماء(٤)

وخير مثال لذلك اتفاقهم جميعاً على أن نهر النيل ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عشرة عيون فى الأرض – والبعض ذكر أنها اثنتى عشرة عيناً – (٥) تجتمع فى عشرة روافد، تجتمع كل خمسة منها لتصب فى بحيرة، ثم تجتمع هذه المياه مرة أخرى فى بحيرة واحدة حيث يخرج نهر النيل(٦). وسنجد أن رحلة اكتشاف منابع النيل فى الكتابات التاريخية قد استوعبت القصص والأساطير الشعبية الإسلامية مع الرواسب الأسطورية الفرعونية والقبطية إلى جانب بعض قصص الإسرائيليات، لتصب كلها فى مجرى واحد، غايته – فى المخيلة الشعبية– اكتشاف منابع نهر النيل التى ظلت لغزاً محيراً آلاف السنين.

وقام الوجدان الشعبى برحلة شديدة الحيوية والاستنارة، يلم فيها

www.alkottob.com

بمنابع النيل ويبتدع لغة يتواصل بها مع النيل، واستكشاف مجاهله والوقوف على أسراره وخوافيه، وراح يعمل على تخليق تفسيرات لما يغمض عليه، ويطلق على الأشياء مسميات ويؤلف لها تاريخا موضوعياً متسقاً، يُجيبُ فيه على ما قد يخطر بباله من تساؤلات حول شريان حياته. ويمكن أن نلمح أثر ذلك فى كتب الجغرافيا أو الكتب التى تحدثت عن فضائل مصر، والتى تتفق جميعاً فى أنها تنقل المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر النيل، ولكن وصفهم لمجرى النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان، حتى مصبه فى البحر المتوسط تتسم بالدقة؛ لأنهم شاهدوا النهر فى هذه المنطقة وعاينوا مجراه، ونظراً لأن مجرى النيل فى أعاليه كان عقبة كؤوداً فى وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة المنابع(٧) فقد تصورت الأساطير والخرافات التى أوردها كُتَّابُ ذلك العصر منطقة المنابع أرضا خيالية. تنبتُ فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد، كما يجرى فيها بحر من الزفت تنبعثُ منه الروائح الكريهة، التى تقضى على كل من يحاول الاقتراب من المنطقة التى تصوره أنها تعج بأحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظرُ إليها، وتقضى عليه. هذا الموقف الوجدانى يعكس بطبيعة الحال مدى الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع نهر النيل، ولكنه فى الوقت نفسه يكشف عن مدى الرهبة والخوف الكامنين فى أعماق اللاشعور تجاه النهر الذى عليه قوام الحياة فى مصر.

ولما كان المصريون ما يزالون تحت رحمة النهر الكبير،ولم يتمكنوا من تطويعه وضبط مياهه، فإنهم ظلوا يخشونه ويترقبون مواسم

فيضانه بمزيج من القلق والرهبة،والأمل. فانعكس هذا الموقف العقلى والوجدانى فى أساطيرهم وتصوراتهم عن نهر النيل، ومنطقة منابعه ووصل إلينا الواقع يحمل مبالغات تصل إلى حد الإغراب، والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية(٨).

هذه الأخبار الأسطورية تعكس لنا بالضرورة شغف الناس بتقصى أصول ومنابع النيل، وما جُبِلَ عليه الناس من حب الاستطلاع واستكشاف المجهول، والذى يُثير فيهم نوازع تدفع بهم إلى تعويض النقص الحاد فى معارفهم بالخيال المتخم بالخرافات، التى أدت إلى التشويش والارتباك فى تصوراتهم. وقد أشار التلمسانى إلى ذلك بقوله: " وفى أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج، وهى بجبل قاف، وأنه يخرق البحر الأخضر، بقدرة الله تعالى، إلى أنه يأتى إلى بحيرة الزنج. قال المالكىُ لهذا الكلام: ولولا ذلك يعنى دخوله فى البحر المالح وما يختلط به منه، لما كان يُستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته، وقال قوم: مبدؤه من خلق خط الاستواء بإحدى عشرة درجة، وقال قوم مبدؤه من جبل القمر، وإنه ينبع من اثنتى عشرة عيناً، واختُلِفَ فى سبب زيادته ونقصانه فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله عز وجل"(٩)، وعده البعض " أحد عجائب العالم إذ لا يعرف له منبع" (١٠)، "ولم يعز أصله إلى مكان"(١١).

بيد أن هذه الكتابات التى ذكرت أن النيل يخرج من جبل القمر. تذكر أيضا أن مجرى نهر النيل كان من عمل البشر،إذ يذكر المؤرخون: " يقال والله أعلم: إن أول من ملك مصر عند قسمة

www.alkottob.com

الأرض بين ولد آدم، زمن آنوش، بوصية آدم عليه السلام، ملك يقال له نقراوش بن أضرم،وهو أول من اتخذ المصانع، وعمل الطلسمات، وأقام الأساطين، وزبر عليها التواريخ وبنى فى المدن. وهو الذى حفر النيل وعمقه ووسعه، وكان قبل ذلك ينقطع ويستنفع"(١٢).

ورواية أخرى تقول: " إن مصرام هو الذى بنى مدينة مصر،وإليه تنسب، وكان عالماً بعلم الكهانة، والطلسمات،وكان قد كتب على أبواب مصر،أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة،وهو الذى ساوى الأرض،حتى أتى منبع النيل، وبنى به الجسور والقناطر، وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التى كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحاً فى الأرض نحواً من ثلاثين سنة، ثم هلك وتولى من بعده أخوه عيقام وقد توجه عيقام إلى خلف الاستواء وبنى هناك قلعة من نحاس أصفر. فى سفح جبل القمر،الذى ينحدر من أعلاه النيل وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلولها ماء النيل،ويصب فى بطائح هناك،ثم ينحدر إلى أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد. وقدر ذلك على ستة عشر ذراعاً تروى أرض مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكناً فى القصر النحاس(١٣) الذى بناه على سطح جبل القمر حتى هلك "(١٤).

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدى البشر، وتمضى الأسطورة عند المقريزى، لتضيف عن نهر النيل أنه :" لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى، بل كان ينبطح ويتفرق فى الأرض حتى

وجه إلى النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم، التى بنوها وساقوا منه نهراً إلى مدينة أمسوس. ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبى النيل تعديلاً ثانياً بعدما أتلفه الطوفان"(١٥) كما يشير القلقشندى إلى أن :" نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام نزلها فى سبعين رجلاً من بنى غرباب الجبابرة ' فعمروها، وهو الذى هندس نيلها وحفره حتى أجراه، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات "(١٦)

وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التى حاولت البحث عن منابع النيل ومنطقة مجراه الأعلى، وهى خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات، فقد نقل النويرى عن الإدريسى الجغرافى الشهير (ت٥٦٠هـ) أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التى يخرج منها النيل " كورى" منسوبة إلى طائفة من السودان: " يسكن حولها متوحشون، يأكلون من يقع إليه من الناس فإذا خرج منها النيل، يشق بلاد كورى ثم بلاد نمنم وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة"(١٧). ويعتقد بعض الجغرافيين أن النيل يغوص فى الرمال، ويختص فى المنطقة الواقعة ما بين بلاد كانم وبلاد النوبة. ولا يظهر مرة أخرى سوى عند بلاد النوبة مثلما يغوص نهر الفرات الذى ببلاد العراق"(١٨).

ولعل المسعودى أظهر اهتماماً بالنيل، يظهر من حين لحين فى

www.alkottob.com

أكثر من جزء من أجزاء كتابة الموسوم بـ (مروج الذهب). فذكر مصر فى كتابه يأتى طبيعياً بعد ذكر ملوك الروم وبعد ظهور الإسلام إلا أن ذكره للنيل لا يرتبط بهذا التسلسل المنطقى لأحداث التاريخ فى العالم القديم، فالنيل هنا يستهويه ويستغرق اهتمامه فى أكثر من موضع من كتابه بصرف النظر عن الحديث عن مصر،أو الارتباط بالتسلسل التاريخى أو الجغرافى الذى التزمه فى نقلات حديثه وتدوينه لتاريخ العالم، فهو يذهب فى سياق حديثه عن الإسكندرية إلى بعض الروايات الشعبية التى دارت حول حفر النيل بأيدى البشر فى تناسق وتناغم آسرين بين الحقيقية والخرافة بقوله: " وقد كانالإسكندر بن الفيلقوس المقدونى بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل، وكان يتفجر إليه عظيم ماء النيل ويسقى الإسكندرية،وبلاد مريوط وكان بلد مريوط هذا فى نهاية العمارة، والجبال المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب وكانت السفن تجرى فى النيل فتتصل أسوان بالإسكندرية،وقد بلط أرض نيلها فى المدينة بالرخام والمرمر، فانقطع الماء لعوارض سدت صفحاتها ومنعت النيل من دخوله، وقيل لعل غير ذلك منعت من تنفسه، وردت الماء إلى كثافة لا يحملها كتابنا هذا، فصار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم "(١٩). بيد أنه ينفرد الجغرافى المصرى أبو محمد الأسوانى(٢٠) فى كتابه "أخبار النوبة" الذى وضع فى القرن الرابع الهجرى – لمساعدة الفاطميين فى الدفاع عن دار الإسلام من جهة النيل الأعلى– ينفرد هذا المؤلف بإيراد معلومات تكاد تكون أقرب الأشياء إلى الدقة عن النيل أكثر من غيره من الجغرافيين، فالنيل عنده يتكون من ثمانية أو

تسعة أنهار:نهر عطبره، النيل الأبيض، النيل الأزرق والذى يسميه بـ"النيل الأخضر"الذى يأتى من الجنوب الشرقى، وهو صافى جداً رغم لونه القاتم، حتى أن الأسماك تشاهد فى قعره، ويمضى النيلان الأبيض والأزرق بعد لقائهما، ثم يمتزجان فى هياج الأمواج وتأتى الأنهار الأربعة الأخرى، وكلها دائمة الجريان ماعدا واحد منها من الحبشة وتصب فى النيل الأزرق الذى يلتقى فيما بعد بنهر عطبره، قبل أن يلتقى بالنيل الأبيض.

ووصف الأسوانى للنيل وروافده يكاد يقترب من الواقع وهو لا يأخذ بالأساطير إلا قليلا فيما يتصل بأنهار الحبشة الأربعة، لأن أحدهما يخرج من بلاد الزنج، وهو يقر مثل غيره من الجغرافيين بأن منابع النيلين؛ الأبيض والأزرق مجهولة. وحصيلة البحث الجغرافى الإسلامى، أن أساطير مصر ونهرها تتمفصل على حجر زاوية مصر الإسلامية، وما قبل الإسلامية فى آن واحد(٢١).

ما يهمنا فى الروايات السابقة، خصوصية الزمن المتصل بالنيل عندما قررت إحدى الروايات أن مصرايم ظل سابحا نحو ثلاثين سنة، وهى حسابات زمنية غير مألوفة عند البشر إذ هو ليس وقتاً عادياً بالمفهوم الإنسانى،ووفقاً للقدرة الإنسانية على السيَّر، كما أن هذه "اللامعقولية" فى زمن الحادثة تجعله زمناً خاصاً يخرج عن فهمنا نحن المتلقين للزمن، كما أنه يبعد عن زمن التجربة الواقعية اليومية وتحديداتها مما يضفى عليه سمة "الأسطورية " . فضلا عن أن تلك الروايات كشفت – بقصد أو بدون وعى – عما وقر فى أذهان ومخيلة الناس من تصورات مفادها أن نهر النيل تم شقه بأيدى

www.alkottob.com

البشر، وتقدم لنا تصورا خياليا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل القمر، ولكن هذه الأساطير لا تكتفى بهذا، وإنما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى فى مجرى النيل فى منطقة المنابع. فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين ملكوا مصر من نسل نوح (قد حفروا مجرى النيل، ورتبوا نوعاً من السدود أو القناطر التى اتخذت شكل التماثيل. والتى يمكن بواسطتها التحكم فى مقدار المياه(٢٢) كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لإعادة صيانة ضفتى النهر وتعديل مجراه. ولعل عبارة "بعد الطوفان" هى التى حذت ببعض الرحالة والمؤرخين إلى قسمة تاريخ مصر. إلى ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان، وكأن الطوفان فاصلاً بين عهدين – أسطورى وتاريخى – والذى انسحب بدوره على التقسيم التاريخى للمنطقة أيضاً.

كما أن تلك التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر القدامى فى حفر مجرى النيل، فضلا عن تداخل التقديرات الزمنية المبالغ فيها، تجعلنا نقف عاجزين عن استخلاص الفيصل بين الحقيقة والخيال، فقد تكون نابعة من تدخل خيال القصاصين فيها أو انبهار المؤرخين والرحالة الذين سطروها بضخامة الآثار المادية، التى تخلَّفَتْ عن عصر المصريين القدماء، كالمعابد الشاهقة، والأهرامات العملاقة والمسلات الشامخة، مما كان لهذا كله أثره البالغ على عاملين لا يخلوان من مبالغات هما: عامل القياس، وعامل الزمن.

فالعامل الأول المتصل بالقياس، فأنه يدور حول القوة الخارقة التى جعلت من مصرايم يحفر النيل بيده إضافة للتصور الشعبى عن

وجود أُناسٍ عمالقة: "يتمتعون بمثل هذه القوة وطول القامة .

أما العامل الثانى، وهو عامل الزمن المتصل بمصرايم الذى حفر النيل وظل سابحا وراءه لمعرفة منابعه بنحو ثلاثين سنة إلى غير تلك التقديرات الزمنية التى ربما استقاها المؤرخون والجغرافيون من أغوار الذاكرة الشعبية للناس والتى من الممكن تأثرها بالمصادر الإغريقية، وخاصة أرسطو الذى كان يرى أن منابع النيل تقع عند سلسلة جبال تسمى جبال الفضة(٢٣).

على أيَّة حال، فإن تلك التصورات الخيالية لجريان النيل، وحفر مجراه، وفروعه، وترعه وخلجانه، ولمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى، تظل شاهداً حياً على ما أنشأهُ الشعبُ لنفسه عن نفسه، وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلى حد الموهبة فى القدرة على تصوير موقفه الشعبيمن شريان حياته وقدرته على التعبير عن ذاتيته العامة.

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد. ودليلهم فى ذلك: "اتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما"(٢٤). وأضاف البعض أنه: "لا يوجد نهر يشابه النيل غير نهر الملتان بالهند وهو نهر يخرج أصله من جيحون.. وفيه تماسيح وفرس البحر على هيئة النيل.."(٢٥)

وقد غضب المؤرخ والرحالة (المسعودى) من هذا القول ونقده بشدة فنراه يقول: " وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ: أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك فى

www.alkottob.com

كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب فى نهاية الغثاثة ؛ لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الورَّاقين. أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة فى أعالى بلاد السند"(٢٦).

وغضبة المسعودى هنا لها ما يبررها، فقد كثر الخطأ الجغرافى والتصور الخرافى فى الكتابات التاريخية و الجغرافية، نتيجة جهل بأبسط قواعد الجغرافيا من ناحية، ونتيجة القصور عن محاولة استقصاء ما هو قائم وموجود، والاكتفاء بما ورد فى الأخبار والكتب، وإن خالف العقل والمنطق وبسبب ذلك؛ نسب البعض نهر النيل إلى أنهار الجنة الأرضية،التى كان مكانها يقع فى أقصى الشرق،وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات، وفقا للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك حيث كانت النظرية السائدة فى ذلك الوقت تقول: " أن سائر مياه الأرض، وأنهارها تخرج من الصخرة بالأرض المقدسة"(٢٧)، وفى قول آخر:"أن أنهار الجنة مكانها فى أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات"(٢٨) . وقال ابن زولاق فى تاريخ مصر:"إن النيل يجرى من تحت سدرة المنتهى، وإنه لو تقصى آثاره لوجد فى أول جريانه أوراق الجنة"(٢٩)،وهو فى المخيلة الشعبية: " نهر العسل ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل!!(٣٠)

يُقال: ولذلك يذب إلى كل إلى أكل البلطى من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها، ويشهد لصحة ما ذكرهما روى عن النبى صلى

الله عليه وسلم قال" عليكم بالجيزوم(٣١) فإنه يرعى من حشيش الجنة"(٣٢)

والراجح؛ أن هذا التصور الأسطورى للنيل ونسبته إلى أنهار الجنة نوع من التعبير الوجدانى الشعبى عن الامتنان والحب للنيل النبيل الذى وهب المصريين بلدا عاش فيهم، ولم يرضوا عنه بديلا طوال تاريخهم الممتد إلى فجر الضمير الإنسانى. كما أن هذه المحاولات الأسطورية لإلحاق نهر النيل بالجنة نوع من التشريف والتكريم، الذى أسبغته العقلية الشعبية على النهر الذى ارتبطت به حياتهم ارتباطا كاملا سواء فى الزراعة والتجارة والصناعة أو فى المواصلات أو فى الفن والأدب.

ولما كان المصريون قد جعلوا من النيل إلهاً قبل اعتناقهم المسيحية والإسلام، فإنهم ظلوا يحتفظون لهذا النهر بمكانة رفيعة فى وجدانهم بحيث حاولت أساطيرهم أن تجعله من أنهار الجنة وهى محاولة لم تقف عند الاستعانة بالتصور الأسطورى فحسب بل تعدته إلى السيَّر والملاحم العربية التى أخذها الشعب المصرى كما يأخذ الفنان موضوعا بارزاً من موضوعات التاريخ أو واقعة عظيمة من وقائع الأبطال ولاءم بينهما وبين مطالب حياته الوجدانية، وخير مثال لذلك، سيرة (سيف بن ذى يزن)(٣٣) و(سيرة بنى هلال) (٣٤) واللتان تردد فيهما سمات بارزة مكتسبة من النيل (٣٥)، مما تشكل منهما عناصر لعوالم مائية أسطورية غير محددة فى عالم السير،منها تلك المنطقة غير المحددة فى سيرة(سيف بن ذى يزن) حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقى عند (القبة) والتى فيها

www.alkottob.com

صخرة من الياقوت الأحمر لها لمعان يأخذ البصر، يخرج من جوانبها الأربعة ماء أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ورائحته أزكى من المسك شذىً وعطراً(٣٦)، إنه الماء الذى ينحدر منه النيل، من تحت القبة فوق الجبل "الثلجى" العالى، هناك حيث " النهران الظاهران والصلاة على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام وحيث الياقوت ووهج اللمعان والظفر بالوصول إلى منبع النيل فى السيرة (٣٧) تلك السيرة (سيف بن ذى يزن) هى سيرة مصرية، خلقاً وإبداعاً، على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة فى شخصية بطلها سيف، وهو أساسا بطل من أبطال التحرير فى العصر الجاهلى وتتجلى مصريتها فى التأصيل لنشأة مصر أرضا وشعبا وعمرانا ولبدء جريان نهر النيل، ذلك الحدث فى ذاته إن شئنا التاريخ له فإنه – بلا أدنى شك– سيصبح خارج إطار العصور التاريخية، وينتمى بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذى تنتمى إليه أحداث السيرة على اتساعها، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين هى إحدى الأفكار الأسطورية البارزة والتى يلزمها إطار زمنى أسطورى خالص(٣٨)، ولعل مقارنة السيرة بما جاء فى الكتابات التاريخية يجعلنا ندرك حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية – فى العصور الإسلامية– لم تكن تختلف كثيرا عن مخلية المتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك فيما يتصل بمنابع النيل ومدى الاختلاف حولها.

وقد أحسن (ابن الوزان الزيَّاتى) حين ناقش هذا الخلاف بقوله: "توجد آراء مختلفة حول موضوع أصل النيل، فالبعض يقولون أنه

يأتى من جبل يدعى جبل القمر، ويدعى آخرون أنه ينبع فى سهول مهجورة فى حضيض هذا الجبل، عن طريق بضعة ينابيع شديدة التباعد بعضها عن بعض، ويؤكد أنصار الرأى الأول أن النهر يهبط من الجبل مع عنفوان شديد، حتى أنه ليدخل تحت الأرض ويخرج بعدئذ بواسطة عيون مختلفة، ولكن هذين الرأيين ليسا أكثر من افتراضين إذ لم ير أحد أبداً شيئا من ذلك، ولا يزال من غير الممكن رؤية ذلك عيانا"(٣٩)، ولهذا نجد: "أن الأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة، والشائع أن واحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة، وجعل كل واحد منهم سببا يبرر به عدم مشاهدة منطقة المنابع"(٤٠).

إلا أن الواضح أن الوجدان الشعبى كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلورى الجغرافى المتعلق بمصر ونيلها على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث العلمى بمفهوم ذلك الزمان، وصياغته صياغة تقدم لنا القراءة الشعبية لقصة الصراع الملحمى بين النيل والمصريين وكيف كان النهر فى بداية الموقف (العنصر الطبيعى) بل إلها يعبد، وكلها أمور تتفق، كثيراً وقصة (حايد بن أبى شالوم) التى وردت تارة فى الأساطير الإسلامية – (الإسرائيليات) – أو الفكر الدينى الشعبى وتارة فى الفكر الجغرافى القديم. وتضمنت أحداثا مواقفاً متباينة بحيث لا يكاد يتضح فيها أى نوع من المنطق. حيث نجد أفعالا خارقة تقع فى مكان مجهول غالبا أو فى لا مكان، كما أنها تقع فى زمان معين أو فى لا زمان واشتملت على عوالم غريبة لها فهمها الخاص بفكرة الزمن فتقول الأسطورة:– "إن رجلا من بنى العيص يقال له حايد بن أبى شالوم بن العيص بن إسحق بن

www.alkottob.com

إبراهيم عليه السلام، وأنه خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام فيها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها، وما يأتى به نذر لله تعالى ألا يفارق ساحله حتى بلغ منتهاه، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة فى العمران، وثلاثين سنة أخرى فى الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل يشق مقبلا، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلى تحت شجرة من تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له: من أنت؟ قال أنى حايد أبن أبى شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . فمن أنت؟ قال: عمران بن فلان بن العيص[٤١]، قال: فما الذى جاء بك ها هنا يا عمران؟ قال: جاء بى الذى جاء بك حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فأوحى الله تعالى إلىّ أن أقف هنا حتى يأتينى أمره فقال له حايد: أخبرنى يا عمران ما انتهى إليك أمر هذا النيل، وهل بلغك فى الكتب أن أحداً من بنى آدم يبلغه؟ قال عمران: نعم. قد بلغنى أن رجلاً من بنى العيص يبلغه، لا أظنه غيرك يا حايد، قال له: يا عمران فأخبرنى كيف الطريق إليه؟ فقال له عمران: لست أخبرك بشيء إلا أن تجعل لى ما أسألك، قال وما ذاك يا عمران؟ قال: إذا رجعت إلىَّ وأنا حىُ أقمت عندى حتى يوحى الله إلى بأمره أو يتوفانى الله فتدفننى. قال: ذلك لك علىَّ، فقال له: سر كما أنت على هذا البحر، فإنه ستأتى دابة ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا يهولنك أمرها، أركبها فإنها دابة معادية للشمس؛ إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها حتى تحول بينها وبين حجبها، إذا غربت أهوت إليها لتلقمها، فتذهب بك إلى جانب البحر، فسر عليها

حتى تنتهى إلى النيل، فسر عليه، فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها، وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت على أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من فضة، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب. فيها ينتهى إليك علم النيل .. فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب فإذا فيها قبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر فى القبة، ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة؛ فأما ثلاثة فتغيض فى الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض قال حايد: فيشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح، ... فقال له: يا حايد إنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا، فإنه لا ينبغى لشيءٍ من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فإن فعلت بقى منك ما بقى.

فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف لونه كالزبرجد الأخضر، وصنف لونه كالياقوت الأحمر، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حايد أما إن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد انتهى إليك علم النيل، فقال: هذه الثلاثة التى تفيض فى الأرض ما هى؟ قال: أحدها الفرات والآخر دجلة، والآخر جيجان، فارجع. "فرجع حتى انتهى إلى الدابة التى ركبها فركبها، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتى أتى عمران، فوجده ميتاً فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام، فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود،

www.alkottob.com

فسلم عليه وقال: يا حايد، ما انتهى إليك من علم النيل؟، فأخبره فقال له: هكذا نجده فى الكتب، ثم أخرج بعض التفاح، وقال وهو ينظر فى عينيه: ألا تأكل منه؟ قال معى رزق قد أعطيته من الجنة، ونبهت ألاَّ أُؤثر عليه شيئا من الدنيا، قال: صدقت يا حايد.. وهل رأيت فى الدنيا مثل هذا التفاح؟ إنما أنبت لعمران فى الأرض وليست فى الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة، فعضها، فلما عضها عض يده قال له: أتعرفه؟ (يقصد التفاح) هو الذى أخرج أباك من الجنة، أما إنك لو سلمت هذا الذى كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد، ثم أقبل حايد حتى دخل مصر، فأخبرهم بهذا الخبر، ثم مات حايد بأرض مصر"(٤٢).

فالزمن – كما رأينا آنفا – يقترب بشدة من كونه زمناً أسطورياً عندما استخدم الضمير الشعبى وحدات زمنية خاصة للإشارة إلى المسافات بين المواقع الجغرافية اتسمت بـ "اللامعقولية" فمثلا (حايد) سار ثلاثين سنة فى العامر وثلاثين سنة فى الخراب، وهى وحدات زمنية ووقتية غير مألوفة للبشر. فالسنين تأخذ أزماناً مختلفة عن الأزمان التى نعرفها لهذه المصطلحات فى استخدامنا الإنسانى،وقد بدا المكان فى تلك الرحلة الخيالية ذا طبيعة خاصة له معاييره وخصائصه التى لا تخضع لمقاييس الواقع. فجاء المكان واسعاً لانهاية لامتداده، فهو فى الفضاء وما وراء البحار، وفى رحاب الجنة الإلهية تارة، وضيق محدّد فى أودية الجانّ والنحاس والذهب والياقوت والزمرد، أو وراء الشمس آناً آخر، وهو فى أغوار النفس

الإنسانية الغامضة، أو هو خيالى يقع فيها وراء الحياة الكونية والإنسانية، وتنوّعت الشخصيّات فى الرحلة من إنسانية إلى حيوانية إلى شيطانية. ولعلنا نلمح فى القصة السابقة صورة قريبة الملامح جداً من فرس البحر الذى كانت تعرفه مياه النيل حتى الصعيد فى العصور القديمة .

كما نشهد حيواناً ضخماً يشبه الهايشة فى سيرة (سيف بن ذى يزن) التى يعلو ظهرها فى حذر وهى نائمة، وعند الفجر تتحول بجسدها إلى ناحية الشمس فتنقله بهذا من شاطئ إلى شاطئ عابرة به عرض البحر الممتد الكبير، فهذه القصة الواردة فى سيف بن ذى يزن شبيهة بحكاية عمران الذى عبر البحر متعلقاً بظهر دابة بحرية ضخمة، يوردها المسعودى فى مروج الذهب فيقول :"منها خبر عمران [بن جابر] الذى صعد فى النيل، فأدرك غايته، وعَبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهى دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُغَادى قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها[فاغرة فاها نحوها لتبتلع – عند نفسها– الشمسّ] فَعَبَرَ – على ما وصفنا من تعلقه بشعرها– البحر، ودار بدورانها طالباً لعين الشمس، حتى صار إلى ذلك الجانب، فرأى النيل منحدراً من قصور الذهب من الجنة"(٤٣)، إلا أن المسعودى يحترز فيما يحكى فيعقب قائلاً :" إلى غير ذلك من خرافات حشدية عن أصحاب الحديث"(٤٤) . كما استلهم الضمير الشعبى القصص الدينى المتعلق بـ(رحلة المعراج)(٤٥) الواردة بالسيرة النبوية فى سرد بعض أحداث الأسطورة، لما للمعراج من أثر فى إثارة لخيال الناس وللرواة. فكان

www.alkottob.com

نواة لحياكة قصص ذات طابع أسطورى تؤدى وظائفها الاجتماعية / الثقافية وتلبى احتياجات الوجدان الشعبى، ويجد فيها مجالاً خصباً يقدم من خلالها تصوراته الخاصة لسيَّر الأنبياء وما اتصل بهم من موضوعات تخص العالم الآخر، وذكرها الفكر الدينى ولم يقدمها له بأبعادها المختلفة، مثل الجنة وأنهارها. كما تحمل قصة أكل حايد من التفاح بعض الشبه فى الفكرة دون التفاصيل بقصة الغواية وخروج آدم من الجنة، والتى تواترت فى القصص الدينى، كما وردت فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فالذاكرة الشعبية هنا تدمج فى داخلها الموروثات السابقة عليها وتعيد انتاجها بشكل معدل، يساهم فى صياغة وحى المؤمنين، كما أن ظهور الخضر (عليه السلام) فى وصف طريقة معرفة منابع النيل – فى بعض الروايات – متعاصراً مع البطل، لا يعنى مثلاً أن أحداثها وقعت فى زمن موسى (أو بعده بقليل؛ ذلك لأن الخضر بذاته شخصية تتمتع فى التراث العربى بأبعاد أسطورية واضحة؛ منها اكتسابه الخلود[٤٦]، ومن هنا فإن وجود الخضر فى تلك الرواية الأسطورية لا يشير إلى زمن بعينه ووجوده كذلك فى نسيج زمن كهذا يضفى شيئا من "المطلقية" على زمن الرواية، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطورى.

كما أن الرواية السابقة تعكس التصور الشعبى لمنطقة منابع النيل التى جعلوها جزءاً من الجنة، والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا بجلاء أبعاد الحب والاحترام الذى حمله الوجدان الشعبى لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها، ومن

المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطورى المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التى اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتنقت الدين الإسلامى، ولكنه استمرار لموروث شعبى تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر وهذا الموروث الشعبى يخلط بين أساطير مصرية قديمة وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها وهكذا فإن التصور الشعبى عن منطقة منابع نهر النيل، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية، كان فى حقيقته نتاجا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالى نهر النيل ومنابعه، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبى المصرى حول النيل، والذى ظل موضوعا للتداول الشفوى والمكتوب طوال عصور التاريخ المصرى، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية، وبحيث يلبى الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع – وقد حرص الذين كتبوا عن فضائل مصر فى المصادر التاريخية والجغرافية العربية على أن يجمعوا هذا التراث الشعبى ويدونوه فى كتبهم باعتباره نوعاً من الحقائق المسلم بها[٤٧].

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتلا هذه المكانة فى نصوص الأساطير العربية، فإن فيضان النهر السنوى قد آثار اهتمام كل من كتبوا عن فضائل مصر وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب، وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيال هؤلاء وأولئك جميعاً ومجالا لتخمينهم، وقد اعتمدوا فى هذا المجال إلى ما نقلوه من كتب القدماء وما جمعوه من الموروث الشعبى المتداول، فقد كان

www.alkottob.com

بلوغ الزيادة فى نهر النيل عند تمام الستة عشر ذراعا، يعتبر علامة الوفاء أى وفاء النيل – وعندئذ يستحق تحصيل الخراج الذى للسلطان كاملا(٤٨)، وتسمى زيادة الستة عشر ذراعا هذه "بماء السلطان". ويذكر المسعودى: أن أتم الزيادات نفعا للبلاد هى زيادة السبعة عشر ذراعا، وذلك لأنها تروى جميع البلاد، أما إذا زادت عن ذلك ووصلت إلى ثمانية عشر ذراعا، فإن المياه تغطى رُبع أراضى البلاد حتى يفوت أوان الزرع، وهو ما اصطلح على تسميته استبحار الأراضى، وفى هذه الحالة يعقب انصراف تلك الزيادة حدوث الأوبئة والأمراض بمصر(٤٩).

ومن الملاحظ أيضا على بعض كتابات المؤرخين المسلمين عند نهر النيل، أنهم حاولوا إرجاع زيادة أو نقص مياه النيل إلى حركة الشمس والقمر فى البروج السماوية، وبسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق"(٥٠)؛ فارجعوا زيادة ماء النيل إلى المد الذى يكون فى البحر؛ فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضى، وفسروا ذلك بأن حركة البحر التى أطلق عليها (المد والجذر) تحدث فى كل يوم وليلة مرتين، وفى كل شهر قمرى مرتين، وفى كل سنة مرتين(٥١)

بل أن بعض الجغرافيين والمؤرخين ذكروا أنه لمعرفة زيادة النيل أو نقصانه فى كل سنة قبل حدوثها، فإن ذك يستطلع ويستنتج من حركة القمر والشمس فى البروج وقسموا البروج إلى نارية، وترابية، ومائية، وهوائية، وذكروا أن القمر إذا كان فى البروج النارية فهذا يدل على قلة الماء ونقصانه، وإن كان القمر فى البروج الترابية تكون مياه النيل متوسطة، وإن كان القمر فى البروج المائية فهذا يدل على

كثرة مياه النيل وتوقع حدوث استبحار الأراضى، أما إذا كان القمر فى البروج الهوائية فإن مياه النيل تكون كثيرة المنافع قليلة الضرر(٥٢) وأضاف صاحب "ذكر ما جاء فى النوروز"(٥٣) أنه إذا صادف النوروز يوم الأحد للشمس، فإن النيل يكون متوسطاً فى طلوعه، ويخرج زرعاً جيداً .. وإذا صادف النوروز يوم الاثنين للقمر، فإن النيل يكون مقبلاً مباركاً لطلوعه، ويحسن الزرع .. وإن صادف النوروز يوم الثلاثاء للمريخ، فإن النيل يجرى بلا توقف يكون وسطاً .. وإذا وافق النوروز يوم الجمعة للزُّهرة، فإن النيل يكون مباركاً ولا يغلو شىء ويكثر صيد البر والبحر، ويعدل السلطان، وينجب الزرَّع، ويقل الشر . وإن وافق النوروز يوم السبت لزُحَل، فإن النيل يكون غالباً يبلغ ثمانية عشر ذراعاً، ويغلو الزيت، ويقع الوباء فى العلماء وأكابر الناس ومتوسِّطى العرب، ويكون آخر السنة خيراً"(٥٤). كما أن كتابات أولئك المؤلفين حاولت إكساب النيل طابع القداسة فى هذا الصدد أيضاً، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان، فإذا اكتفى الناس برى أراضيهم وزراعاتهم أمر الله النيل أن يعود كما كان (٥٥)!!، ولما لا فهو النهر الذى اختصه رب العرش العظيم بالذكر والثناء فى محكم التنزيل بالكناية والتلميح وليس بالاسم الصريح "النيل" تقديراً وتبجيلاً لدوره وعظمته، وربماً تشبهاً بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى لم يناده القرآن يا محمد"!! ومن الملاحظ أيضاً أن العلماء المسلمين الذين كتبوا عن نهر النيل فى العصور الوسطى لاحظوا أن ماء النيل يخضر مع بداية الزيادة، وقد

www.alkottob.com

ذكر المقريزى أن عامة أهل مصر كانوا يقولون عن هذا الاخضرار "قد توخَّم النيل"(٥٦)، ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر.

أما عن سبب هذا الاخضرار فى ماء النيل فيرجعونه إلى لجوء الحيوانات خاصة الفيلة إلى البحيرات التى فى أعالى النيل، فترقد فيها بأعدادها الهائلة لمقاومة شدة الحر هناك، ولذلك يتغير لون ماء تلك البحيرات، وعندما تهطل الأمطار فى الجنوب وتتكاثر السيول فى تلك البحيرات، تدفع هذه المياه الخضراء أمامها فتصل إلى مصر بهذا اللون مع الزيادة، ثم يعقب ذلك احمرار المياه وتكورها لاختلاطها بالطين والصخور المتفتتة التى تجرفها الأمطار من منطقة الجبال بالحبشة(٥٧).

ويضيف الاقفهسى فى كتابة "أخبار نيل مصر" نقلا عن مروج الذهب تفسيراً آخر لاخضرار ماء النيل عند بدء الزيادة، فيذكر أن بعض البحيرات فى أعالى النيل تنقطه عن النيل فى فترة نقص المياه فتمكث فى البحيرات فترة طويلة فيخضر لونها، فلما تأتى الزيادة فى المياه نتيجة للأمطار، تصب هذه البحيرات مياهها فى النيل فيخضر مادة مع الزيادة.(٥٨)

هذا المحصول الوفير من الأساطير عن النهر المعطاء يعبر فى الواقع عن توق الإنسان إلى المعرفة ومحاولة فهم الطبيعة من حوله والوقوف على أصولها وأسرارها دون أن يتكئ على أية مرجعية علمية فاستيقظ فيه النيل الإنسانى العظيم الباعث على الرغبة فى إماطة اللثام عن أغوار المجهول عن منابع النيل فخرجت من خيالاته حملات استكشافية امتلأ الحديث عنها بالعديد من العناصر

الأسطورية من جن وشياطين وقصور مطلسمة وجبال شاهقة ووديان مخيفة ومغارات وكهوف إلى بحيرات وأنها غامضة وجزر عجيبة ومن عالم البشر إلى عوالم الجن والسحرة والمخلوقات العجيبة وغيرها ويمكن تنضيد معظم الروايات التى قيلت فى ذلك الشأن فيما يلى:أورد ابن معصوم فى رحلته أن: "جماعة صعدوا هذا الجبل (جبل القمر) ليحيطوا خبراً بمبدأ النيل فرأوا وراء بحراً عجاجاً أسود كالليل، يشقه نهر أبيض كالنهار وهو النيل".(٥٩)

ويقال أن: "ملكاً من ملوك مصر الأُول، جهز أناساً للوقوف على أول النيل فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليهم الشمس، انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليها فأحرقتهم، وقيل أنهم انتهوا إلى جبال براقة كالبلور، فلما انعكست عليهم الأشعة الواقعة عليها فأحرقتهم"(٦٠).

و ثمة روايات عديدة عن حملات استكشاف قبل الإسلام تداولتها كتابات المؤرخين منها: "كان الوليد بن درمع العمليقى، قد خرج فى جيش كثيف ينتقل فى البلدان، ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام انتهى إله خبر مصر، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه، وخرج فى جيش عظيم فلم يمر على أمة إلا أبادها، ومر على أمم السودان وجاوزهم ومر على الأرض الذهب، فرأى قضبانا نابتة من ذهب، ولم يزلْ يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر، سار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال"(٦١).

www.alkottob.com

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الفتح الإسلامى لمصر، أورد المؤرخون قصصاً عديدة منها، قد حدث :"أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مرات فى أيام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعاً"(٦٢)، ويشير ابن عميرة إلى أن: "الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتهى أن يعرف أصل النيل فأمر أن يشترى عبيداً صغاراً زنوجاً أو ما شاكلهم، ثم يستوعبوا، ويسلموا لصيادى السمك والتجار ليعلموهم صنعة البحر، صيد السمك، لتكون قوتهم، فإذا مهروا فى ذلك، يصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل.."(٦٣)، ويقول: "ناصر خسرو": "يُقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف، وسمعت أن سلطان مصر، أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه"(٦٤)

كما تحكى رواية أخرى وقائع مثيرة عن: "أن بعض خلفاء مصر أمر قوماً بالمسير إلى حيث مجرى النيل، فساروا حتى انتهوا إلى جبل عال، والماء ينزل من أعلاه، وله دوى وهدير لا يكاد يسمع أحدهم كلام صاحبه، ثم أصعدوا واحداً منهم إلى أعلى الجبل، فلما وصل رقص وصفق وضحك، ثم مضى فى الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، ثم ثانيا: ففعل مثل الأول، فصعد ثالث، وقال: اربطوا وسطى حبلاً فإذا وصلت وفعلت مثل ما فعلا فاجذبونى، ففعلوا، فلما صار فى أعلى الجبل فعل كفعلهما، فجذبوه إليهم. فقيل: إنه خُرِسَ ولم يرد جواباً، ومات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك والله أعلم..."(٦٥)، ويفسر ابن معصوم سبب ما حدث لهؤلاء

الناس بقوله: "إنهم رأوا حجر الباهت وهو نوع من المغناطيس فى لون المرقشيشا يتلألأ حسنا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت ولا يمسك عنه البتة"(٦٦).

ما يهمنا فى الروايات السابقة هو أن الضمير الشعبى فى صياغته لهذا النوع من الحكايات قد استفاد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية فى نسج الرواية، لكى يضفى على روايته مصداقية زائفة لغرس الإيحاء بمصداقية ما يُروى، وإلباسه ثوب الحقيقة بهتانا، على الرغم من اتجاهه الأسطورى الواضح، مع حرص الراوى على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقى، المهم أن مثل هذا النوع من القصص يوضح مدى الاهتمام الذى استحوذ على الناس لمعرفة أصل الأشياء كما يؤكد على رفض العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بالنهر الذى ارتبطت به حياة الناس وجوداً وعدماً.

كما أن نهر النيل أخذ قسطاً موفوراً واهتمامًا ملحوظاً من القصص الدينى، من جانب المؤرخين والجغرافيين، خاصة فى العصر المملوكى سواء أكان ذلك القصص مما ورد فى القرآن الكريم، أو فى الأحاديث النبوية الشريفة، أو مما أُثر عن الصحابة والسلف الصالح، أو من أقوال المفسرين للقرآن الكريم، وعلماء اللغة، بل إن الكثير من مؤلفات ذلك العصر احتوت على الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول (**ص**)، والتى تنسب النيل إلى أنهار الجنة؛ وتصبغه بصبغة القدسية، وتضفى عليه صفة الإيمان(٦٧) فهو:" سيد الأنهار، سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته؛

www.alkottob.com

فإذا وَفىَّ زيادته وزُرعت الأراضى، أمر الله النيل أن يعود كما كان"(٦٨).

ويبدو أن هذا الاعتقاد الذى سيطر على أفكار الجغرافيين والمؤرخين المسلمين نتج من حقيقة أن الزيادة تحدث فى مياه نهر النيل صيفا، فى حين أن مياه معظم الأنهار المعروفة تنقص فى ذلك الفصل من السنة.

ويشير الشوكانى إلى أن: " المؤرخين توسعوا فى ذكر الأحاديث الباطلة فى فضائل البلدان ولا سيما بلدانهم، فإنهم يتساهلون فى ذلك غاية التساهل، ويذكرون الموضوع ولا ينبهون عليه، والكذب فى هذا قد كثر وجاوز الحد، وسببه: ما جبلت عليه القلوب من حب الأوطان والشغف بالمنشأ"(٦٩)، واستهدف المؤرخون عند سرد الأحاديث والقصص الدينى إثبات أسماء الرواة فى تسلسل لغرس الإيحاء بمصداقيته ما يروى، وإلباسه ثوب الحقيقة فى محاولة دائبة للربط بين نهر النيل والقصص الدينى والأحاديث المنسوبة إلى النبى(**ص**) أو ضمن المأثور عن الصحابة والسلف الصالح، فقد اهتم الُكتَّاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل فى القرآن الكريم، ويقول السيوطى: "نهر النيل من سادات الأنهار،وأشراف البحار؛ لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خير صاحب الشريعة (**ص**)، وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره"(٧٠)، والعرب تسميه بحراً"(٧١)، وليس فى العالم ما يسمى بحراً ونهراً سواه"(٧٢)، كما لم يسم نهر من الأنهار فى القرآن سوى النيل فى قوله تعالى: وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا

خفت عليه فألقيه فى اليم» القصص / ٧»، قال:" وأجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر"(٧٣).

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول (**ص**) تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة، وتضفى عليه صفة القدسية، ومن طبيعة الأمور أن النهر الذى كان إلهاً فى عصور الوثنية (حابى) لا يمكن أن يحتفظ بإلوهيته فى ظل الإسلام دين التوحيد، ولكن أهمية نهر النيل فى حياة البلاد وساكنيها جعلت النهر يحتفظ ببعض من صفات القدسية فى وجدانهم وفى آدابهم، وقد نسب إلى النبى (**ص**) قوله فى حديث المعراج: "ثم رفعت إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان،و نهران ظاهران، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات"(٧٤)، ويلاحظ أن حديث المعراج نفسه مليء بالمبالغات المثيرة والتصورات الباهرة، ولذلك كان انتشارها الواسع بين عوام الناس الذين تعلقوا بها وأخذوا بما فيها من خيال خاصة وأن القصص القرآنى لم يذكرها إلا مروراً عابراً. فكانت فرصة سانحة كى يلجأ الخيال الشعبى إلى كل الوسائل المتاحة لديه لإثبات موقفه خاصة لما تثيره المعجزة من خيال ومن رغبة فى المبالغة والمغالاة.

أسطورية النهر لم تتكون دفعة واحدة، وإنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها فى نفوس محبيه، فتباينت أساطير النيل بحسب الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أى جانب من جوانب الحضارة

www.alkottob.com

المصرية إلا وللنيل فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية تسيطر على أذهان وعواطف الناس لقرون طويلة،ظن الوجدان الشعبى فيها أن النيل نزل على أجنحة الملائكة؛ وأن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه: "فكان النيل على جناحه الأيسر، والفرات على جناحه الأيمن، وقال بعض الفضلاء: أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لأن الشئ الثقيل من عادته يحمل على الجانب الأيمن، والخفيف على الجانب الأيسر"(٧٥).

وجاءت رؤية الناس لنيلهم مثقلة بالخيال الذى يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ – وهى قراءة تعد سندا لوجودهم الآنى ودعما لهويتهم تحقيقا للذات الجماعية التى تصر على إثبات دورها فى صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر – لإزاحة الغبار الذى غطى حياة نهر النيل الذى عليه قوام حياتهم، فتضافرت سوياً عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحاً فى إسهاب المؤرخين والجغرافيين، وكُتَّاب الفضائل فى سياق وصفهم لعجائب النيل،والتفاعل البشرى مع أسماك وحيوانات النيل المائية والتى قدموها لنا مزجاً بين القياس على الكائنات المحسوسة المألوفة وبين التصور الذى اصطنعه ذلك الخيال، من هنا تأتى عجائبيتها ومطلقيتها، مثل التمساح الذى اعتقدوا أنه لا يوجد سوى فى نهرى النيل والسند وكان ذلك دليلا – فى رأيهم – على أن النهرين يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية(٧٦).

كما واصلت الكائنات المائية التى تعيش فى نهر النيل القيام بدورها البارز فى المعتقد الشعبى المصرى، والتى صبغت صورتها

مزجا بين النموذج المألوف والخيال الأسطورى. ففى "كوكب الروضة" يشير السيوطى إلى أنه يوجد فى نهر النيل شيخ البحر، وهو سمكة على صورة آدمى، وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهو مشئوم، فإذا رأى فى مكان دل على القحط والموت، والفتن، ويقال: أن دمياط تنكب حتى يظهر عندها..(٧٧).

كما أشار المؤرخون إلى ما أحاط بحيوان "السقنقور" الشبيه بالتمساح من خيال: "إذا وضعه خارج الماء فما قصد الماء صار تمساحا، وما قد البر صار سقنقوراً"(٧٨)، كما أنه :"يعض الإنسان ويطلب الماء فإن وجده دخل فيه، وإن لم يجده بال وتمرغ فى بوله، وإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته، وسلم السقنقور، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرَّغه فى بوله مات السقنقور لوقته، وسلم المعضوض "(٧٩).

وبرغم النزعة العلمية لدى الرحالة عبد اللطيف البغدادى إلا أنه وقع تحت تأثير العجيب والغريب فى نيل مصر، بقوله: "السرب وهى سمك يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب، ومن لم يعتدها، والأحدوثات فيها مشهورة"(٨٠) ،ويحسب لابن حوقل نقده لتلك الخرافة بقوله:" وأكلتها أنا وجماعة من ذوى التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية"(٨١)، وأشار المقريزى إلى عجائب السمكة المعروفة بـ (سمكة الرعادة):"ونفعها فى البرء من الحمى، إذا علقت على المحموم "(٨٢) ، ويقول عنها :" قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر، وزعم قوم أنه إذا أدنى من رأس من يشتكى الصداع سكن صداعه، إن أدنى من مقعدته من انقلبت

www.alkottob.com

مقعدته أصلحها . وكنت أنا _يقصد المقريزى نفسه _جربت الأمرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما ففكرت أنى أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حىّ لأننى ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزة الأدوية فوجدته ينفع ما دام حيًّاً "(٨٥) . وأشار القزوينى إلى أن من عجائب أسماك النيل :" أن فى النيل موضع يجتمع فيه السمك فى كل سنة يوماً معلوماً، فالإنسان يصيد بيده ما يشاء ثم يتفرق إلى ذلك اليوم من السنة القابلة "(٨٦) ويبدو أن القزوينى يتحدث عن حقيقة ربما مفقودة عن النيل حالياً إذ أن الثابت أن فكرة ظهور تجمعات للأسماك فى منطقة معينة فى يوم معلوم له نظائر فى مناطق بحرية أخرى من العالم(٨٥).

وربما كان ظهور تلك الكائنات فى نهر النيل عند العامة، يهدف أساسا للحفاظ على المياه من العبث والتعدى؛ فنسجوا حول شريان حياتهم أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانا، لا سيما وأن تقديس مصادر المياه ما زال معتقداً لدى كثير من العامة إلى اليوم.

والماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هذه الرموز ومنها التعميد بالماء(٨٦) وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور، وبالتالى لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزى فى المعتقدات، وبين بروز العنصر المائى فى أساطير الخلق فى مصر القديمة مع المحيط الأزلى الذى يعد عاملاً مشتركا فى جل أساطير الخليقة فى العالم كله، وموارد المياه عند

الإنسان مكان مقدس، فالمكان فى مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا، وأن كانت شعائر دينية معينة تستمر فى الحياة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطورية للمياه فسنرى أنها كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية فى المعتقدات والديانات القديمة والحديثة، وسنجد شواهد ودلائل تشير إلى أى حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة فى الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمة، وكانت تشير بالمثل إلى تقديس الناس للماء لا بذاتها، وإنما بالنظر إلى الأرواح التى تحل فيها. بيد أن خروج هذه الموارد المائية من دوائر الشعائر الدينية وارتباطها مباشرة بخطة تنظيمية عقلية، تقوم عليها جهات معينة مثل ما قام به المصرى من تنظيم للحصول على مياه النيل بشق الترع، والقنوات والنهوض بإقامة الجسور، والسدود عند الفيضان ومع ظهور شبكات المياه الحديثة تخفف المصرى من القلق فى تأمينها أو انقطاعها. فابتعدت عن مياه النيل صفة القداسة،كما أننا اليوم نقف أمام نهر النيل وخزانات المياه الرئيسية فى قرى ومدن مصر، فلا يثير فينا هذا الوقوف أية مشاعر قدسية !!!

www.alkottob.com

الهوامش

١- محمد عوض محمد: نهر النيل (سلسة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٧ .

٢- نفسه، ص١٣ .

٣- محمد عوض محمد: نهر النيل، ص١٦-١٧؛ أبو اليسر فرح: النيل فى المصادر الإغريقية (الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٨٠-٨١ .

٤ - الأقفهسى: أخبار نيل مصر، ص٧-٩ .

٥ -أطل المؤرخون على النيل من نافذة النبوءات، ومن طاقة الرموز حين جعلوا النيل ينبع من اثنتى عشر عينا، وهو العدد الذى استفاد قدسيته من رمزيته الزمانية والمكانية (الكوزمولوية)، فعدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً والأئمة اثنا عشر،وكان من معجزات موسى عليه السلام (العصا التى ضرب بها المحجنْ فانفجرت منه اثنتا عشر عينا لكل سبط عين.المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٩٤؛ النواجى: حلبة الكميت، ص٢٩٦ .

٦ - التلمسانى: سكردان السلطان، ص٦٤، السيوطى: كوكب الروضة، ص ١٢٦، ص١٢٧، ابن محشرة: الاستبصار، ص٤٥، المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٩٨، الخوارزمى:كتاب صورة الأرض، ص١٠٦-١٠٩، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٩٠-٢٩١، المنوفى: الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، ص٤-٥ .

٧ - من الشائع أن المصريين كانوا يعتقدون أن منابع النيل تقع عند الشلال الأول جنوبى أسوان، وأن الكبش الذى كان حيواناً مقدسا لديهم، يحرس هذه المنابع وربما يصور لنا (ديودور الصقلى) ما كان يشاع من أمر منابع النيل بقوله: "إن كهنة مصر حدثوه بأن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالعالم المسكون"ولم يقبل ديودور هذه الفكرة لأنه ليس هناك ما يؤيدها، بل

أن الكهنة من وجهة نظر ديودور: يحلون مشكلة غامضة بشكل يحتوى على المزيد من الغموض، أبو اليسر فرح: النيل فى المصادر الإغريقية. ص٨٠-٨١ .

٨ - قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م) ص١٠١؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩١ .

٩ - التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٣٦٤- ٣٦٥، السيوطى: كوكب الروضة، ص١٢٧، الأقفهسى: كتاب أخبار نيل مصر، ص ٥٧- ٥٨، المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص٩٨؛ الخطط، ج١، ص ٥٣-٥٤، النواجى: حلبة الكميت، ص٢٩٦ .

١٠ - االحميرى: الروض المعطار، ص٥٨٦ .

١١ - ابن حوقل: صورة الأرض،ص١٧٣ .

١٢ - ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص٥٠.

١٣ - وجود النحاس فى القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيراً فيما يتعلق بمنابع النيل وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية فى الآداب الشعبية- ولعل هذا صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور فى وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية.

١٤ - ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٠، ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص١٥٤- ١٥٥ .

١٥ - المقريزى: الخطط، ج١، ص ٥١- ٥٢ .

١٦ - القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٣ .

١٧ - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية)، ج١، ص٢٦٢، الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ج١، ص ٢٨ .

١٨- الإدريسى: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٨، المنوفى: الفيض المديد فى النيل السعيد، ورقة ٥-٦، الخطط، ج١، ص٦٧- ٦٨ .

١٩ - المسعودى:مروج الذهب، جـ١، ص٨٣ .

www.alkottob.com

٢٠- أبو محمد الأسوانى: من أهم المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى كتابه (الخطط)، وذكر أنه أكثر الناس علماً بالنيل غير أن كتابه لم يصلنا (مفقود) .

٢١ – سيد خميس: وصل ما انقطع قراءات فى التراث العربى الإسلامى(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ٧٥-٧٦ .

٢٢- قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٩٤ .

٢٣ – أبو اليسر فرح: النيل فى المصادر الإغريقية، ص ٨٧ .

٢٤- السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٨٦، محمود سليم: النيل فى عصر سلاطين المماليك (سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١٣٢، ص٢٦ .

٢٥- الهروى: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٤١، الحميرى: الروض المعطار، ص٥٨٦ .

٢٦ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٩٩، التنبيه والإشراف، ص٤٩، الأقفهسى: كتاب أخبار نيل مصر، ص٥٩ .

٢٧ – الأقفهسى: كتاب أخبار النيل، ص٣٩ .

٢٨- بحر الظلمات هو بحر الأقيانوس، وهو المحيط الأطلنطى.

٢٩- انظر: تاريخ مصر وفضائلها، ص١٦؛ النواجى: حلبة الكميت، ص٢٦٩ .

٣٠ – السيوطى (جلال الدين السيوطى): مقامات جلال الدين السيوطى "مقامة فى وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق:سمير الدروبى، سلسلة الذخائر، العدد١٦٣، القاهرة ٢٠٠٧ م)، ص ٢٨٨ .

٣١ – الجيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة، انظر الجوهرى: الصحاح، جـ٥، ص١٨٩٩(تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار الكتاب العربى، مصر د.ت)؛ النهاية فى غريب الحديث والأثر، جـ١، ص٢٧٤ .

٣٢ – الأقفهسى: مصدر سابق، ص٣٩ .

٣٣ –من المعروف أن سيف بن ذى يزن – فى التراث التاريخى العربى– ملك من ملوك التبابعة الحميريين وبطل من أبطال التحرير اليمنى، عندما أعلن الثورة سنة٥٧٥م للتخلص من نير الاستعمار الحبشى لبلاده بقيادة ملكها اليهودى ذى نواس على نحو ما رواه لنا وهب بن منبه فى التيجان، وتعد تلك السيرة تحديداً من أخصب السيَّر الشعبية العربية والتى امتلأت بالعناصر

الأسطورية المتعددة والمتنوعة، وأكثرها لجوءاً إلى الخيال الجامح الذى يشى فى الكثير من مواضعها بالاتكاء على الفكر الأسطورى كمرجعية فكرية، وعلى بعض الحوادث الأسطورية المنضفرة داخل بنيتها. ويكاد يتفق عظم الباحثين فى مجال الأدب الشعبى العربى على أنه على الرغم من أن الأحداث فى السيَّر الشعبية العربية تتحرك على خلفيات تاريخية أو شبه تاريخية، تمثل كل منها حلقة من حلقات الصراع بين الشعب العربى وبين أعدائه، فإن تلك الأحداث تنم عن أصول ميثولوچية ومعتقدات دينية وطقوس وممارسات سحرية قديمة عرفتها المجتمعات القديمة التى شكلت فيما مضى حضارات المنطقة العربية. انظر: محمد رجب النجار: الأدب الملحمى فى التراث الشعبى العربى، ص٢٠٥؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنسانى، ص٣٧١-٣٧٣ .

٣٤ – السيرة الهلالية :من القصص الشعبى الذى شاع فى مصر، وقد بدأت هذه السيرة فى صورة غنائية، ثم أخذت صورة قصصية منذ القرن السادس الهجرى، وتدور أحداث هذه السيرة حول أسرة بنى هلال التى انتقلت من نجد إلى البلاد الإسلامية المختلفة، واستقر بعضها بمصر، وتفرق الكثيرون منها فى الشمال الأفريقى والأندلسى وكانت لهم وقائع فى تونس .وقد صورت هذه القصة بعض جوانب الشخصية المصرية من خلال السخرية التى عامل بها المصريون حكامهم كما تبدو فى هذه العبارة التى أطلقها أحد المصريين معلقا على طمع الهلاليين فى حكم مصر والاستغلال بها حيث قال "ولكن العرب لايملأون أعين المصريين "كما أن الشعب المصرى قد هذب هذه السيرة وحضَّرها وارتفع بها ومصَّرْها رغم نواتها العربية .عبد اللطيف حمزة :الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية حتى مجيء الحملة الفرنسية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م),ص٢٦٤-٢٧٣ .

٣٥-الأدب الشعبى الذى اهتمَّ بسير الأبطال مثل (سيف بن ذى يزن) أو(الزير سالم)أو(الهلالية) قد حُجر عليه فى المقاهى، والمجالس، ولم يُدون التدوين المعروف لدينا الآن إلا بعد أوقات طويلة من معرفته وانتشاره، ولأن المقاهى يرتادها العامة فقد ظلَّ الأدب الشعبى تابعاً لهذه الطبقة التى لم تنل الرضا

www.alkottob.com

من قبل الطبقات العليا طبقة الحكام، والولاة، والتجار، والقضاة، والعلماء، والمتكلمين. وبسبب عدم التدوين ظلت سِير الأدب الشعبى وأخباره، وحوادثه تستطيل وتمتدّ تبعاً لمواهب الحكواتى وقدرته، وتبعاً لشغف السامعين لما يقصّ عليهم، فإن استمتعوا طالبوه بالمزيد، وعندئذٍ يشتغل ذهن الحكواتى بالتوصيل، والترقيع، ولحم حكاية بأخرى على نحو قد يكون بعيداً تماماً فى أسلوبه عن أسلوب قصة الأول، لذلك نجد تعدد الأساليب الكتابية فى نصوص الأدب الشعبى قبل أن تُصاغ كلها بروح واحدة من قبل كاتب بعينه، وفى عصر محدد أيضاً. ولذلك نجد مجاورة الواقعى للخيالى ومخالطة المؤنس بالغرائبى، والقريب بالبعيد، والصافى بالمزيج. وفى كل الأحوال كان تقويم الأدب الشعبى تقويماً بعيداً عن الحقيقة الفنية التى يتمتع بها، وذلك من حيث النظر إليه باعتباره خالياً من الوظيفة الاجتماعية، وأنه وجد من أجل السلوى، والدعابة، والتندر ليس إلاّ، وهو فى أحسن أحواله حوادث وأخبار فى الاطلاع عليها عبرة لمن يريد الاعتبار، للنظر إلى الافتتاح الذى استهلت به "ألف ليلة وليلة" والذى يحدد غايات الليالى كلها، جملةً لا تفصيلاً.. "إن سير الأولين صارت عبرة للآخرين، لكى يرى الإنسان العبر التى حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فينزجر، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين".

٣٦ – قارن ذلك الوصف مع ما ورد عند المسعودى وغيره من المؤرخين حول تلك المنطقة .مروج الذهب، ج١، ص١٢٣ .

٣٧ – محمد رجب النجار: الأدب الملحمى فى التراث الشعبى العربى، ص١١٥، عبد الحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م) ص٢٥–٢٦، كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص٣٩٦، قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٨٩ :١٠٥ .

٣٨– كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنسانى، ص٣٩١ .

٣٩ –ابن الوزان الزيَّاتى (ان ليون الأفريقى الحسن بن محمد الوزان الزياتى): وصف أفريقيا. (ترجمة: عبد الرحمن حميدة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ٦٣٢ .

٤٠ –ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (الجزء الأول،

تحقيق، أحد تركى، القاهرة ١٩٤٢م)، ص ٩٧–٨١؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٧ .

٤١–ورد عند ابن إياس فى (بدائع الزهور) أن الرجل صاحب الشجرة هو: "أبو إلياس الخضر". انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٥ .

٤٢ –ابن ظهيرة:الفضائل الباهرة، ص ١٧١–١٧٤؛ ابن الوردى: خريدة العجائب، ص ١٤٢، السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٠–١٨٢؛ السيوطى: كوكب الروضة، ص ١٣٢–١٣٣؛ الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول، ص ١٨٨–١٨٩؛ المقريزى: الخطط، ج١، ص٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٤–٢٦ .

٤٣ – المسعودى: مروج الذهب، ج١بم ص١٢٣ .٤٤ – نفسه، ص١٢٣ .

٤٥ – كانت الرحلة الخياليّة فى الملاحم والسيَّر وسيلة للإنسان للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصفحة يستشرف من خلالها آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو تلك الرحلة الخياليّة صورة معكوسة للحياة الاجتماعية فى عصر صاحبها. ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّراً غنياً وعميقاً عن اليوم الآخر، وهو حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركناً من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر فى نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة فى معرفة العالم الآخر. ولهذا كلّه لم يظهر نصّ أدبى يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ فى عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر فى هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج بأسطوريتها التى توسّعت فى حديث الرسول (**ص**) (عن الإسراء والمعراج، وهى نصّ شعبىّ نسب إلى ابن عباس رضى الله عنهما ويبدو أنّ تلك الرحلة الخياليّة حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شىء عن مصائر البشر بعد الموت.وكذلك كان الأمر فى رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء.

٤٦ –فاز الخضر (بالخلود فى الموروث الشعبى حتى أصبح رمزاً لاستمرار الحياة ونجد بقايا ذلك فى عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق

www.alkottob.com

الطفل وتخاف على حياته تقول له "خضر" كأنها تطلب له حياة عليه السلام (الخضر)، والخضر فى الموروثات الشعبية هو الذى قام بدفن آدم عليه السلام (، وهو صاحب موسى، ووزير ذى القرنين، وصاحب الظهورات التى تدل على المقامات وعنه يقول أحد المؤرخين: "سيدنا الخضر النبى: رجا مسن ذو تجارب وتدبيرات عظيمة فى جيشالإسكندر ، وكان معه فى رحلاته فى أنحاء العالم، ويقال أنه لا يزال حياً يرزق ..". أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٥٠ .

٤٧ –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩٩ .

٤٨ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٣ .

٤٩–المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٢ .

٥٠ –المصدر السابق، ص ٩٨ .

٥١ –لمزيد من التفاصيل عند المد والجزر اليومى والشهرى والسنوى، راجع ما ذكره المقريزى فى الخطط، ج١، ص ٥٤–٥٥ .

٥٢–المنوفى: الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، ص ١٧–١٨؛ راجع أيضا الخطط، ج١، ص ٦٧–٦٨ .

٥٣ – النيروز: كلمة فارسية معربة، وأصلها فى الفارسية نوروز معناها اليوم الجديد.

٥٤–مؤلف مجهول: ذكر ما جاء فى النوروز (تحقيق عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، ج٢، سلسلة الذخائر، العدد٧١، القاهرة ٢٠٠١م) ص٥٥ .

٥٥–المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٩–٥٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٩ .

٥٦– المقريزى: الخطط، ج١، ٥٦ .

٥٧ –المقريزى، ج١، ص ٥٦–٤٦؛ النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج١، صـ ٦٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٤؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٨، يذكر الدكتور محمد عوض محمد "أنه يوجد بعض البحيرات فى منطقة منابع النيل الاستوائية أشبه بالمستنقعات لكثرة الأعشاب والنباتات الهائية بها، وتقلة عمقها وانخفاض مستواها عن مستوى بحيرة فكتوريا، لذلك يتغير لون المياه بها إلى اللون الأخضر"، وهذا

الرأى يتفق إلى حد كبير مع ما ذكره المسعودى سابقا. محمد عوض محمد: نهر النيل، ص ٤٩–٦٣ .

٥٨ –مروج الذهب، ج١، ص ٣٥٢؛ الأقفهسى: أخبار نيل مصر، ص ٦٥ .

٥٩ –ابن معصوم (على صدر الدين أحمد) (ت ١١٢٠ هـ)، رحلة ابن معصوم المدنى: سلوة الغريب وأسوة الأديب(تحقيق: شاكر هادى، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٨م)، ص ١٥٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤ .

٦٠ –السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤ .

٦١ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٥٢–٥٣ .

٦٢ – أولياجلبى، سياحتنامه مصر، ص ٤٣٠ .

٦٣ –الفضائل الباهرة، ص ١٦٤ .

٦٤ –ناصر خسرو علوى: سفرنامة (ترجمة: يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثانى، العدد ١٢٢، القاهرة ١٩٩٣م)، ص ٩٦ .

٦٥ –ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٦٤ .

٦٦ –ابن معصوم: الرحلة، ص ١٥٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤ .

٦٧ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٢–٣٠٣، السيوطى: الكلام على النيل، ص ١٣–١٩؛ كوكب الروضة، ص ٤٩–٥١؛ الأقفهسى: أخبار نيل مصر، ص ٣٧–٤٠ .

٦٨ –ابن الظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٩؛ المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٩–٥٠–٦٠؛السيوطى: بلبل الروضة، ص٢٨٧ .

٦٩ –الشوكانى (محمد بن على) (ت ١٢٥٠ هـ): الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة(تحقيق: عبد الرحمن اليمانى، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ٤٣٦ .

٧٠–السيوطى: كوكب الروضة، ص ١٠٤ .

٧١ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٤٧ .

٧٢ –ابن معصوم: الرحلة، ص ٣١٢ .

٧٣ –السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٩ .

www.alkottob.com

٧٤- المقريزى: الخطط، ج١، ص ٥٠ ؛ السيوطى: كوكب الروضة، ص ١١٥؛، النويرى: نهاية الأدب، ج١، ص ٢٦٣ .

٧٥ -ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشى) (ت ٧٢٩ هـ): معالم القربة فى أحكام الحسبة(طبعة كمبردج ١٩٣٧م)، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

٧٦ -السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٦؛ الهروى: الإشارات، ص ٤١ .

٧٧ -السيوطى: كوكب الروضة، ص ١٤٥؛ حسن المحاضرة ج٢، ص ١٨٨ .

٧٨ - السيوطى: كوكب الروضة، ص ١٤١؛ حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٨؛ القزوينى: عجائب المخلوقات، ص ١٠١ .

٧٩ - المقريزى: الخطط، ج١، ص٦٦؛ عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص٨٥؛ أولياجلبى: سياحتنامه، ص ٤٤٤ .

٨٠ -عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ٨٨؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٦؛ المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٢٠٨ .

٨١ - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٧ .

٨٢ - المقريزى: الخطط، جـ١بمص٢٨؛ القزوينى: عجائب المخلوقات، ص ١٦٩؛المسعودى: مروج الذهب و ج١، ص٣٥٦ .

٨٣ المقريزى: الخطط، جـ١بم ص٦٦؛المسعودى: مروج الذهب و ج١، ص٣٥٦.

٨٤- القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص١٦٩ .

٨٥ -يوجد نظائر لخاصية أسماك النيلالتى تحدث عنها القزوينى فى وقتنا الحاضر فيظهر سمك يسمى بـ (سمك الحريد) فى سواحل جزيرة فرسان بالبحر الأحمر أحدى الجزر التابعة لمنطقة جازان السعودية ومن الغريب أن هذا السمك لايظهر إلا فى فترة واحدة من كل عام فى الفترة الواقعة بين شهرى إبريل ومايو، وظهوره يكون فى الصباح ومن النادر جداً خروجه إلى الشاطئ بعد الظهر و ويقوم العامة بصيده بأيديهم أو بواسطة أسياخ حديدية مدببه و، ومن الحكايات الشعبية التى تشاع حول (الحريد) لدى أهل الجزيرة أن هذه الأسماك قادمة من بلاد الهند وأن أسماكاً أخرى تختلف عن أسماك الحريد تسمى (الحماميق) ومفردها (حُمّيقة) تظهر عند الهنود فى نفس الموسم تهديها شواطئ جزيرتهم إلى الشواطئ الهندية مقابل ما تهديه شواطئ تلك

البلاد إلى سكان هذه الجزر. انظر :إبراهيم عبد الله مفتاح:فَرَسَان الناس والبحر والتاريخ (الطبعة الثانية، شركة المدينة المنورة للطباعة، جازان ٢٠٠٥م)،ص١٢٥-١٢٧ .

٨٦- التعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقى الطقوس الأخرى فهو شرط أساسى للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقاً لكلمات عيسى ابن مريم عليه السلام: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٥:٣) ويجرى أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره فى الماء ثلاثا باسم الأب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة ويجب تعميد المواليد فى أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم ثمانين يوما للبنات وأربعين يوما للغلمان، وبعد غمر المولود فى الماء ثلاثا ترسم شارة الصليب اثنين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكرا كان أم أنثى.

www.alkottob.com

الفصل السادس

الشخصية المصرية بين كتابات الرحالة والموروث الشعبى

www.alkottob.com

ظلت الشخصية المصرية عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء فى كتابات الرحالة والمؤرخين ووجدت العديد من التحليلات لها بدءاً من هيرودوت واسترابون، وامتداداً عبر العصور إلى ابن زولاق والكندى والسيوطى وابن جبير، العبدرى، وابن خلدون، والمقريزى وغيرهم العديد من الذين أكدوا على أن للمصريين شخصيتهم المتفردة وسماتهم المادية والثقافية المميزة التى تفردهم عن غيرهم من الشعوب، وكانت نظرة التأرجح عند المؤرخين دافعاً لأن جاءت النصوص التاريخية محملة بسمة (النزوع الأسطورى والخرافى) فى سياق حديثهم عن السمات والخصائص المميزة للمصريين.

وقد نهض (المحتسب التنيسي) على تلك النزعة فى سياق وصفه لأخلاق أهل مصر فى مدينة تنيس – المندثرة سنة ٦٢٤هـ– بقوله:" وطالع تأسيس هذه المدينة برج الحوت وصاحبه المشترى، السعد

www.alkottob.com

الأعظم، وصاحب الشرق الزهرة؛ لذلك كثر طرب نفوس أهلها، وفرحهم، ورغبتهم فى مداومات اللذات واستماع الأغانى ومواصلة المسرات(١).

وانساق الرحالة والمؤرخون لهذا النزوع الخرافى عندما ربطوا بين طالع السعد وأخلاق أهل القاهرة بقولهم:" ووضع البناءون الأساس فى لمح البصر.فبُهِتَ المنجمون وصاحوا قائلين "القاهرة" والقاهرة اصطلاح للمنجمين يطلق على المريخ جلاد الفلك، فلذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التى سميت بهذا الاسم لوضع أساسها فى طالع المريخ"(٢).

وقد لعبت الأساطير والحكايات الشعبية دوراً فى وصف علاقة المرأة بالرجل فى مصر(٣) فيقول المقريزى فى سياق وصفه لأسماك النيل أن به سمك يسمى الرعَّاد قيل عنه :" إذا علقت المرأة شيئاً من الرعَّاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها"(٤)، . كما لجأت بعض النساء إلى التحكم فيهم حتى أننا نسمع عن بعض السلاطين والحكام – كالسلطان إينال – أنهم استسلموا لزوجاتهم حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير :"من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة فى الدولة وطواعية السلطان لأوامرها(٥)" ،وفى هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير :"لا اختيار له معها "(٦)

وعلى الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية، ونيلّها من حقوقها فى مختلف عصورها ما لم تنله امرأة فى مجتمع آخر، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية فى مجال السياسة (٧) والآداب؛ فإن أغلب الكتابات الأدبية لم تصور لنا إلا جانباً واحداً هو وصف جمالها وما

يرتبط به من زينه وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها والتى لعبت فيها الأسطورة والخرافة دورها الفاعل. حيث كانت زينتها أحياناً وشماً تدقه على خدها(٨) . فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو إغراء أو معتقد فى جذب الرجال إليها، فالمرأة المصرية هنا قد توحى للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان. ومع ذلك فلا بأس بهذا اللدغ،ولا بأس من الاقتراب. فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بالقسوة، ومع ذلك فإنه يقبلها على الرغم من أن العقرب يلدغه :

مَنْ مُعينى على اقتناصِ غزالٍ ×× نافرٍ عن حبائلى روَّاغ
قلبهُ قسوةً كجلمودِ صخرٍ×× خدُّه رِقةً كزهرِ الباغِ
كلما رمْتُ أن أُقبِّل فاه ×× لَدَغَتْنى عقاربُ الأصْدَاغِ (٩)

فلقد احتل كل من الثعبان والعقرب ركناً مهماً فى قائمة الأشكال الحيوانية والنباتية التى كانت المرأة المصرية تقوم بوشمها على بدنها بما تحمله تلك الأشكال من رموز ودلالات تعكس بالضرورة بعضاً من رواسب أفكار أقدم(١٠).

الموروث الشعبى الذى يربط بين المرأة المصرية وكل من العقرب والحيَّة نجد تصويره عند القاضى الفاضل، حيث يعترف بفتنة العقرب(١١)، ولكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللدغ وتكف أذاها آلا وهى القبلات:

حدِّثْنا يا فتى وأخبرنا ×× وأيما شئت منهما فقلْ
عن حيَّةٍ فى الخدود ظالمةً×× تمنع من شمَّ وردها الخضلْ
إن لها رقيةً مجربةً ×× وإن ألفاظها من القبل

www.alkottob.com

ويصور القاضى الفاضل زينة المرأة المصرية وما بها من وشم للحيَّة[١٢] على الخد فيقول:

من حيَّةٍ فى الجمْرِ ما احترقَتْ ×× والجمرُ فوق الخدِّ ما اشتعَلا

لو أنها تلك التى انقلبتْ ×× يوم العصا لم يعصِ من جهلا[١٣]

لعل ذلك ما دفع بالعديد من الكتابات التاريخية أن تصف المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة، وتصف الرجل المصرى بقلة الغيرة على امرأته، مستعينة فى ذلك كله بشواهد الأساطير والخرافات الممزوجة ببعض القصص الدينى، مثال ذلك: ما روَّجه ابن عبد الحكم من أساطير حول غرق (فرعون موسى) وجنوده فيقول: "وكان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون من أشرافهم، ولم يبق إلا العبيد والأجراء لم يصبرن عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن، فأجابوهن إلى ذلك فكان أمر النساء على الرجال، والقبط على ذلك إلى اليوم أتباعا لمن مضى منهم لا يبيع أحدهم ولا يشترى إلا قال: أستأمر امرأتى.."[١٤]، ويضيف المقريزى:" ولهذا أيضاً صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدهن"[١٥]، "فأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى"[١٦] ،وذلك بتدبير من الملكة دلوكة التى استطاعت أن تقود مصر فى ظل فراغ سياسى وأمنى آنذاك بها قامت به من تدريب." فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة".[١٧]

والناظر فى الخرافات التى دارت حول قوة وشكيمة المرأة المصرية يدرك أنها تأثرت بالقصص العربية فى العصر الجاهلى، فقد أورد لنا ابن فضل الله العمرى ما استعاره الوجدان الشعبى من مضمون لقصة (الزباء ملكة الجزيرة)[١٨] دون التفاصيل، فى سياق الحديث عن بناء مدينة الإسكندرية، حين سَلَكَ مسلكاً مغايراً، فتقول الرواية: " إن الذى بنى الإسكندرية أول أمرها: جبير المؤتفكى، وإن الذى دعاه إلى بنائها، إنه غزا بعض النساء اللواتى ملكن مصر، وكان اسمها (حورية بنت ألبرت) وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول: إنى قد رغبت فى أن تتزوجنى، فيصير ملكنا واحداً ودارنا واحداً... فأجابها وعقد النكاح على ما كان يعتقدون، والتمس الدخول بها فقالت: إنه يفتح بى وبك أن نجتمع فى غير مدينة تبنيها لهذا الأمر فى أحسن موضع وأجل مكان،وحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما تبنيه . وإنما كان ذلك منها مكراً به لتنفذ أمواله وتبلغ منه ما تريد فى لطف وموادعة، فأجابها وأنفذ مهندسين إليها واختارت موضع الإسكندرية فكان كلما بنى بناء خرجت دواب البحر عبثت به وهدمته فأقام زماناً،ونفذت الأموال فوضع طلمسات وجعلها فى آنية زجاج كالتوابيت، فكانت فى الماء حذاء الأبنية، فإذا جاءت دواب البحر فرأت الطلمسات والتوابيت نفرت فثبت البناء وبنيت المدينة، وتمت بعد زمان طويل ثم راسلها فى المسير،فسارت بجميع قللها وعساكرها حتى نزلت حذاء عسكره وراسلته: " إنى قد أحببت أن أحمل عنك مؤونة الإنفاق على العسكريين فى أطعمة تصلح وأشربه، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خلعاً وتحفاً عنك لكرمك فى بناء

www.alkottob.com

المدينة.... فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة،فلبسها وجوه العسكر، ولبس الملك جبير خلعته، وكانت أقل سماً من غيرها، إبقاء عليه لتبقى فيه بقية لخطأ بها، فما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفئوا وماتوا، ورأى ذلك بقية العسكر فعلموا موضع الحيلة فبادروا مستأمنين فنودى فيهم بالأمان... ودخلت الملكة المدينة وأقامت بها زمانا وعادت إلى مصر.."(١٩) ،

فالقراءة الأولية للحكاية التى نقلها لنا الرحالة (ابن فضل الله العمرى) عن دهاء المرأة المصرية تؤكد أن عناصر حكاية (مصرع الملكة زباء) سواء عناصرها التحليلية أو الأولية للحكاية لم تغب عن الضمير الشعبى وخياله الخلاَّق، بل استحضرها بشخوصها وأحداثها ووقائعها ورموزها، أو على الأقل فيما يتصل ببعض العناصر التى تقاطعت مع النص المصرى للحكاية على نحو ما جاء فى الحكاية التى نقلها لنا (ابن فضل الله العمرى) فى عنصر السم – على سبيل المثال– وكذلك فى مجال اسم الشخوص، وهكذا ينطوى التنَّاصْ هنا – فى ضوء مفهومى الاستدعاء والتحويل– على معنى التداخل والتوالد،والتفاعل المضمر،أو غير المباشر بين النص الجاهلى العربى وبين النص الشعبى المصرى . فقد قام الخيال الشعبى ببراعة بتحويل هذه الاستدعاءات الشعبية أو هذه المرويات السردية التاريخية وصهرها وأذابها فى النص الخاص بالحديث عن المرأة المصرية وعلاقتها ببناء مدينة الإسكندرية وتطورها، وقدم لنا مجموعة من آداب السلوك تتلخص فى وجوب أعمال الحيلة للخروج من المأزق إذا لم يستطع المرء مواجهته.

وفى تعميم غير منطقى تصف الروايات الشعبية المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة وتصف الرجل المصرى بقلة الغيرة على امرأته، فيقال:" ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفاك ما قصة الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام، ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه،وشهادة شاهد من أهلها عليها،بما بيَّنَ لزوجها منها السوء، فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله: "استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين"(٢٠)،

وتعلق الكتابات التاريخية بقولها :" فكما أن عزيز مصر كان مغلوباً لامرأته زليخا، فإن المصريين لا يزالون مغلوبين لنسائهم وخدمهم ميالين للطرب واللذة والصفاء والشقاء رغم أنوفهم"(٢١) وتذهب الروايات إلى الحد الذى تجعل عنده هذا الأمر سمة من سمات البيئة المصرية، فقد أورد ابن عبد الحكم: " وأخبرنى الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلى الكركى رحمه الله: أنه منذ سكن مصر يجد فى نفسه رياضة فى أخلاقه، وترخصا لأهله، ولياناً ورقة طبع مع قلة الغيرة"(٢٢) ،وهو ما أنكره (ابن الحاج) فى قوله:" وهذا فيه من المحرمات وجوه كثيرة، وكل من يعاينهم من الناس سكوت، لا يتكلمون، لا يغيرون، ولا يجدون لذلك غيرة إسلامية"(٢٣) ،وقد علل ابن ظهيرة هذا السلوك بقوله :" عدم الاعتراض على الناس، فلا ينكرون عليهم ولا يحسدونهم ولا يدافعونهم بل يسلمون لكل أحد حاله، العالم مشغول بعلمه،والعابد بعبادته، والعاصى بمعصيته، وكل ذى صنعة بصنعته ولا يلتفت أحد إلى أحد،ولا يلومه بسبب وقوعه فى معصية أو نقيصة "(٢٤).

www.alkottob.com

ويتداخل الخيال مع الأسطورة لدى من وصف المصريين سواء كان مؤرخاً أو كاتباً، فيربط البعض منهم بين الأحوال الفلكية، وسمات أهل مصر؛ يقول المقريزى: " إن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها، ويخبرون بما يكون وينذرونه بالأمور المستقبلة، ولهم فى هذا الباب أخبار مشهورة"(٢٥) .

يشير المقريزى إلى تلك الحاسة ويرجعها إلى عوامل بيئية جغرافية تتصل بموقع مصر وعلاقته بالنجوم والأفلاك،ويلحظ المرء بروز الاعتقاد فى تأثير النجوم فى طبائع الناس وأحوالهم ويشير (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى) إلى ذلك فيقول :" المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها، وسكوناً إليها .حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتدونها"(٢٦)، ويستشهد صاحب الرسالة المصرية على ما يقول،بحكاية يرويها :" ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين فى آتون الحمام يسأل رزق الله المذكور– أحد المنجمين– عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته،على خساسة قدره ووضاعة مهنته(٢٧)". ويضيف إلى ذلك قوله: " ومن الحكايات العجيبة، فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم، وعنايتهم بها؛ ما شهدت بالصعيد الأعلى وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك

الناحية كان ينظر فى علم النجوم وشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه،وأمر بإطلاقه، وكان من الحبس فى عذاب واصب، وجهد ناصب،فلما أتوه وقالوا له: انطلق لشأنك. أخرجَ من كمه اصطرلاباً، فنظر فيه فوجده مذموماً، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن،فعادوا إلى الوالى،فأخبروه بخبره فضحك منه،وتعجب من جهله وفساد عقله وأجابه إلى سؤاله وتركه على حاله، وأطال مدة عقابه"(٢٨).

هكذا بلغ الاعتقاد فى النجوم والطوالع وتأثيرها فى أحوال الناس الحد الذى جعل وقاداً فى أحد الحمامات يستشير النجوم قبل أن يقص أظافره،وجعل ذلك المنجم يرفض الخروج من السجن حين أتيح له ذلك بعد شفاعة أحد المتشفعين، لأن الوقت لم يكن مناسباً حسبما قالت له الأبراج. كانت تلك سمة من سمات ذلك العصر فى تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب حتى انتشرت الوسائل المتعلقة بها وتنوعت تلك الأمور ما بين ضرب الرمل واستنطاق الودع، وفتح المندل والاستخارة بالرؤية وبالقرآن الكريم، حتى أنكر ابن الحاج ذلك على المصريين بقوله: " أما الباطل فهو زعمهم فى فتح الختمة والنظر فى أول سطر يخرج منها أو غيره"(٢٦).

واضطلع العديد من الناس بهذه المهام ليقدموا للإنسان اللاهث وراء المجهول كل ما يرضيه أو يطمئنه على المستقبل أو ينذره من ويلاته، وحسبنا هنا مشاركة المؤرخ العينى (٨٥٥هـ) حيث أشار فى حديثه عن (السلطان الظاهر ططر) بقوله:. " وكانت توليته فى ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل على طول أيام مولانا السلطان

www.alkottob.com

خلد الله ملكه مع عافية وأمن وسرور . ثبت اللهأركان دولته وأيام سطوته وعزته "[٣٠] بيد أن " ساعة السعد" التى أشار إليها العينى لم تكن كذلك فقد تبوأ السلطان (سيف الدين أبو الفتوح ططر) فى يوم (٢٩ من شهر شعبان عام ٨٢٤هـ) ولم يمهله القدر فى حكم مصر أكثر من تسعين يوماً لا غير.

ويُوردُ المقريزى أخبار واقعة تدل على ما ذهب إليه من أن المصريين يتحدثون بالأشياء قبل كونها[٣١] ويخبرون بما يكون فيقول" ومن هذا الباب واقعة ألدمر ،ذلك أنه خرج الأمير ألدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة فى سنة ثلاثة وسبعمائة، وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة. فأشيع فى هذا اليوم بعينه فى القاهرة، ومصر وقلعة الجبل بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر، فطار هذا الخبر فى ريف مصر، واشتهر فلم يكترث الملك محمد بن قلاوون بهذا الخبر فلما قدم المبشرون على المادة أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين ألدمر فى ذلك اليوم .الذى كانت الإشاعة فيه بالقاهرة". وأورد المقريزى أكثر من واقعة مشابهة ثم ينتهى إلى القول" وفى هذا الباب من هذا كثير"[٣٢].

وهكذا ظهر المصريون وكأنهم اطلعوا على علم الغيب، ويخبرون بما يكون وينذرون بالأمور المستقبلية،وكأنهم استلقوا السمع،ولم يتبعهم شهاب ثاقب،وكأنها سمة اتسم بها المصريون منذ أقدم العصور، حيث تنبؤا بطوفان نوح بعد أن " نظروا فيما تدل عليه الكواكب مما يحدث فى العالم وعلموا أن تلك الآفة تكون ماء يغرق الأرض ومن عليها فأمر الملك ببناء الأهرام"[٣٣] كما تنبؤا بالمجاعات

التى سوف تلم بمصر كقول المقريزى :"ثم وقع الغلاء فى زمن أتريب بن مصريم، ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان، وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه مدة مائة وأربعين سنة، فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها... فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى هود عليه السلام .أن أبعث إلى أتريب بمصر أن يأتى لحف جبلها، وليحفر بمكان كذا ...فإذا عقود قد عقدت بالرصاص، وتحتها غلال كأنها وضعت حينئذ، وهى باقية فى سنبلها لم تدرس، فمكثوا ثمانية شهور فى نقلها، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين، فأخبره أخوه صابر بن مصريم أن أولاد قابيل بن آدم (لما انتشروا فى الأرض وملكوها، علموا أن حادثة ستحدث فى الأرض، فبنوا هذا البناء، ووضعوا فيه الغلال . فزرعت مصر وأخصبت "[٣٤].

ويكشف لنا صاحب الرسالة المصرية عن بعض الجوانب المتعلقة بفكر المصريين وتاريخهم، فيقول :" وحكى الوصيفىُّ فى كتابه الذى ألفه فى أخبار مصر أن أهلها فى الزمن السابق كانوا يعتقدون أنَّ هذا العالم، الذى هو عالمُ الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خالياً من نوع الإنسان، وعامراً بأنواع أُخَر غير الإنسان، وأن تلك الأنواعَ مختلفة على خِلق فاذَّة وهيئات شاذَّة ثم حدث نوع الإنسان فنازعَ تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها، وأفنى أكثرها قتلاً وشرَّد ما بقى منها إلى القفار، وأن تلك المشَّردة هى الغيلان والسعالى وغير ذلك، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة، وتصوراتهم الفاسدة، وتوهماتهم النافرة ."[٣٥]

وعلى الرغم من رأى أبى الصلت الذى حسب فيما أورد من رأى

www.alkottob.com

ذاع عن المصريين القدماء أنه يؤكد رأيه فى عقلهم واعتقاداتهم، فإنه فى الحقيقة أورد – ربما دون أن يقصد – ما يعنى أن المصريين القدماء قد اقتربوا من فكرة نظرية النشؤ والارتقاء . فلا شك أن عبارة أبى الصلت هى من المتلقيات العامة والمتيسرة عن معرفة ما تبقى فى الأذهان من أفكار كاملة شاعت عند المصريين وذاع أمرها، حتى تناقلها العوام بهذه الصورة المحرفة والمشوشة والمشوهة شأنهم فى ذلك شأن العوام فى كل مكان وعصر . كما نلمس أن معلومات أبى الصلت عن فكر المصريين وتاريخهم ورجالهم تختلط فيها بقايا معرفة حقيقية لها أصولها الأولى الحقيقية، بحكايات خرافية، فى نسيج متنافر من بقايا العلوم والثقافات [٣٦].

ويبدو أن ظروف العصر قد ساعدت الخرافات والأساطير على التغلغل والتسرب إلى نسيج المجتمع إضافة لما كان يحدث فيه من ضربات موجعة للمسلمين لأول مرة فى تاريخهم تحت وطأة الحروب الصليبية واقتطاع أجزاء من المنطقة الأمر الذى كان له انعكاسات واضحة على النظام القيمى والأخلاقى فى العالم العربى. فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التى زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد فشعر الناس فى المنطقة العربية بمدى عجز الحكام، وامتلأت النفوس فى كل مكان بروح العجز، وشاعت روح من التقوى السلبية، والتدين العاطفى الهروبى، وقد تجسد هذا كله فى التفاف عامة الناس حول نمط المتصوفة /الدراويش والمجاذيب كأحد مظاهر التعبير عن روح اليأس، والهروب إلى المجهول، والتى سيطرت على قطاعات كبيرة من

سكان المنطقة العربية[٣٧]بم والتى تركت أيضاً العديد من الأفكار المحملة برواسب الرؤى والأحلام التى يرى فيها النائم النبى (**ص**) أو الاجتماع بسيدنا الخضر عليه السلام . كتعبير عن الآمال التى تجيش فى نفوس الناس حيال الواقع المرير الذى يعيشونه، فأصبح معتاداً أن يتكلم المتعلمون عن القيامة وأحاديث آخر الزمان[٣٨]بم وبالخرافات والحكايات الشعبية التى شاعت حول مزاعم عذاب القبر ونعيمه،والاعتقاد والتسليم بالخوارق والمعجزات، والتى عكست أثر الشخصية المصرية على هذا النوع من الأخبار والقصص فى التعبير عن اعتقاد الناس فى كرامات الأولياء وشفافية النفس المصرية فى تقبلها تلك الأمور الغيبية عن إيمان وصدق. ومن أمثال هذه القصص ما رواه أبو الفتح رضوان – فتح الله بن سعد الله التميمى المنفلوطى – يقول :"كنت يوماً مع شيخنا أبى الحسن الصباغ على ساحل البحر، ومعه إبريق يتوضأ منه، فسمع بالقرب منه صياح الناس، فسأل الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلاً من الساحل فترك الشيخ الوضوء وأسرع إلى المكان الذى فيه الناس مجتمعين فرأى التمساح قد قبض على الرجل وقد توسط به لجة البحر، فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف فوقف مكانه لا يتحرك يميناً ولا شمالاً. فعبر الشيخ على متن الماء، وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم، وكأنه يمر على وجه الأرض وكان البحر فى نهاية زيادته حتى انتهى إلى التمساح. فقال له: ألق الرجل، فألقاه من فيه .. وقد هلك الرجل فخذه من مسكة التمساح، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له: مت فمات موضعه .. وقال الشيخ للرجل قم إلى البر فقال: يا سيدى لا

www.alkottob.com

أستطيع من فخذى وأنا لا أحسن العوم، فقال: اذهب فهذه سبيل النجاة، وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذى فيه الشيخ والرجل صلب قوى كالحجارة إلى البرفمشى الشيخ والرجل حتى وصلا إلى البر والناس ينظرون، ثم عاد البحر إلى حالته المعتادة، وجر الناس ذلك التمساح ميتاً ."(٣٩)

فالشخصية المصرية بارزة فى هذا النوع من الحكايات والكرامات والتى تسربت إلينا عبر الحركة الصوفية التى نشأت بمصر فى مرحلة النضج عن ظاهرة جديدة فى المجتمع المصرى ذات صلة بتكوينه الجغرافى والبشرى والنفسى، لاسيما وأن :" الخرافات والأسمار كانت مرغوباً فيها مشتهاة"(٤٠)، ولا تزال رواسبها متغلغلة فى الموروث الشعبى المتعلق بالحياة اليومية للمصريين، والتى حفظها لنا المؤرخون فى كتاباتهم فى سياق حديثهم عن أعياد أهل مصر والتى كان يحتفى بها كل أهل مصر على حد سواء مثل عيد الشهيد:" و عيد الشهيد يكون فى اليوم الثامن من شهر بشنس واعتاد النصارى أن يحتفلوا بذلك اليوم بإلقاء تابوت فى نهر النيل به أحد أصابع أسلافهم من الحواريين ويزعمون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن النيل لن يزيد"(٤١)بموربما كان ذلك الطقس صدى للأسطورة التى راجت فى كتابات المؤرخين حول (صندوق/ تابوت) النبى يوسف عليه السلام وما دار حوله من روايات مفادها أن يوسف عليه السلام:"لما حضرته الوفاة قال :إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم فاحملوا عظامى معكم . فمات فجعلوه فى تابوت، ودفن فى أحد جانبى النيل فأخصب الجانب الذى كان فيه وأجدب الآخر .

فحوَّلوه إلى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذى حولوه إليه وأجدب الآخر . فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها فى صندوق من حديد وأقاموا عموداً على شاطئ النيل، وجعلوا فى أصله سكَّة من حديد، وجعلوا فى الصندوق سلسلة أثبتوها فى السكة، وألقوا الصندوق فى وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعاً "(٤٢).

وهذا الصندوق وما أحاط به من طقوس تتفق كثيراً مع بعض التفاصيل فى سيرة "سيف بن ذى يزن" والتى تحدث فيها الراوى عن (كتاب النيل) الموضوع فى صندوق من خشب الأبنوس الأسود مصفح عليه بصفائح الذهب الأحمر فعيد الشهيد هنا يحمل ظلالاً وإمدادات كثيرة الماضى فى تداخل مع الرواسب الفرعونية والقبطية لتصنع كتاب النيل.

على أن كلمة (كتاب) هنا تذكرنا بكتاب عمر بن الخطاب الذى أرسله رداً على كتاب عمرو بن العاص إليه بشأن العروس (أسطورة عروس النيل التى كانت تلقى فى النيل سنوياً) . فعمر رضي الله عنه لم يكتف بالزجر والمنع بل كتب كتاباً ليلقى به فى النيل على نحو ما هو معروف ونقله إلينا ابن عبد الحكم المسئول الأول عن نص الخرافة التى وصلتنا فى قوله :" لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمر حين دخل شهر بؤونة: فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنّة لا يجرى إلا بها فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل... فقال لهم عمرو هذا لا يكون فى الإسلام. إن

www.alkottob.com

الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا شهور بؤنة وأبيب ومسرى. والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء.. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب (بذلك فكتب إليه عمر أن قد أصبت إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذ أتاك كتابى. فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا بها:

" من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك".

فألقى عمرو البطاقة فى النيل، وكان أهل مصر قد تهيأوا للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة"(٤٣) ، ويعلق الإسحاقى قائلاً :"وقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر وصار يعمل فى ليلة وفاء النيل المبارك فى كل سنة إشارة عظيمة كبيرة ينصب بها قناديل تعلق بحبال كثيرة على أخشاب مرتفعة توضع بمركب وتوقد القناديل وتسير فى البحر يميناً وشمالاً وتزف بالطبول وتسمى عروسة البحر وذلك مستمر إلى تاريخه"(٤٤).

والراجح فيما يتعلق بتلك الخرافة التى نقلها لنا ابن عبد الحكم قد جانبه التوفيق فنقل تلك الأسطورة على أنها حقيقة واقعة، كما أن جميع المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم وتناولوا بعض الموضوعات المتعلقة بالواقعة التى حفظها لنا ابن عبد الحكم قبلهم، فقد ذكروا هذه الخرافة وكرروها على أنها معلومة تاريخية . نقلاً عما كتبه ابن عبد الحكم سواء بإسنادها إليه مباشرة أو بذكرها دون

إسناد كما لو كانت حقيقة واقعة حيث كانت تلك الأسطورة هى غاية علمهم آنذاك ولم يعرفوا أنها أساطير،كالمقريزى، والكندى،وابن تغرى بردى،وابن دقماق،والسيوطى،وياقوت،وابن إياس وغيرهم(٤٥).

ولعلنا نتسأل كيف تمر ثلاثة شهور هى بؤنة وأبيب ومسرى" والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيراً"!. إن ذلك لو كان حدث لكانت هناك كارثة تزول فيها الحياة تماماً ولا يبقى بعدها إنسان أو حيوان أو نبات،وكيف يرتفع النيل ١٦ ذراعاً ليلة واحدة !!. كما أن الفتح الإسلامى كان سنة ٦٤١ ميلادية، وكان المصريون آنئذ قد اعتنقوا المسيحية وهى دين سماوى ولا يمكن أن يقبل أو يقر حكاية إلقاء عروسة بكر حية لتموت غريقة فى النيل، فالأديان السماوية الثلاث لا تقر ولا تعرف تقديم ضحية بشرية كقربان لله(٤٦).

كما أن الثابت تاريخياً عن المصريين القدماء؛ أنه لم يعرف عن تاريخهم المعروف والمدون أنهم كانوا يقدمون ضحية بشرية لأى إله أو معبود مهما علا شأنه، لأنهم كانوا على يقين من أن البشر هم الثروة الحقيقية لحضارتهم ووقودها الفاعل والدافع.

فالثقافة المصرية وما أنتجته من العادات والتقاليد، عبرت عن نفسها فى عدد من الأعياد والاحتفالات التى اهتم المصريون بإحيائها والاحتفال بها، ومن الطبيعى أن عدداً من هذه الأعياد كان يتمثل بعقائد المصريين ودياناتهم، بل هناك من الأعياد ما كان يأخذ شكل الاحتفال القومى، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعاً مثل الاحتفال بوفاء النيل الذى ارتبط بالتراث المصرى القديم(٤٧) .

ومن الأعياد التى كان المصريون يحتفلون بها قبل الإسلام وبعده

www.alkottob.com

عيد " الغطاس"، إذ يقول المسعودى عن احتفالات المصريين بذلك العيد: " ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها،وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبه، وستة من كانون الثانى، ويصف المسعودى ما ارتبط بهذا العيد من اعتقادات خرافية بقوله:" وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الداء"(٤٨).

فقد كان المصريون يحتفلون بـ " ليلة الغطاس" مسيحيون ومسلمون يتجمعون على شاطئ النيل ويشعلون المشاعل والشموع يأكلون ويشربون ويمرحون ويغطسون فى ماء النيل حتى يبرؤا من كل داء- بحسب اعتقادهم – وهو اعتقاد مرتبط بالتراث المصرى القديم، الأمر الذى يؤكد صدق تواصل أجيال الشعب المصرى وامتداد المعتقدات والممارسات الشعبية المصرية التى تبرز القسمات الواضحة للشخصية المصرية.

وربما كانت كثرة الاحتفالات والأعياد المصرية وراء تلك الملاحظة التى سجلها أحد الرحالة بقوله " أصل كثرة السرور والأفراح بمصر ناشئ عن كونها إقليماً أخر لأن طبع مصر" زهرى" فلذا يميل أهلها إلى الموسيقى والغناء واللهو واللعب، ثم أن شعبها الكبير العدد كثير المال مما يساعده على الإنفاق فى الطرب والذوق والصفا"(٤٩) ،ويقال أن بين مباهج الأعياد، ومباهج بعض أعياد الفراعنة قرابة وصلة و ومن تلك الأعياد عيد بوباسطيس(تل بسطة بالزقازيق(٥٠))،وقد وصف لنا هيرودوت(٥١) كيف أن الرجال والنساء كانوا يركبون

قوارب تسير بهم فى النيل، وهم يرقصون ويغنون، ويسرفون فى تناول الطعام والشراب .

هذه الاحتفالات التى كانت سمة بارزة من سمات الحياة الاجتماعية المصرية كانت تعبيراً عن ثقافة شعب متجانس تكشف عن أن المجتمع المصرى عاش حياته الاجتماعية بالشكل الذى يوافق موروثه الثقافى الموغل فى أعماق الزمن، والذى يحمل العديد من الممارسات التى تداخل فيها الموروث الشعبى بكل ما يحمله من أساطير ورموز وحكايات وأشعار وخير مثال لذلك، احتفالهم(بسبت النور) .

حيث :"أعتاد أهل مصر على أن يتكحلوا اعتقاداً أن من يتكحل فى ذلك اليوم يقوى بصره، وأن من يشرب الدواء فى هذا اليوم أيضا يكون ذا فائدة عظيمة فى الشفاء، كذلك يخرج إلى شاطئ النيل من يعانى من أمراض جلدية ويدهنون أجسامهم بالكبريت ويستلقون طوال اليوم تحت أشعة الشمس"(٥٢) ،ويهمنا أن نلاحظ تلك الصلة بين المعتقد الشعبى والعادات الجارية . وإذا كان قد نسى هذا المعتقد إلا أننا نستطيع أن نتعرف عليه من هذه العادات ذاتها، فعادة الاستحمام وتدليك الجسم بالكبريت فتذكرنا بالمعتقدات الخاصة بشفاء أيوب فى بلواه.

وأما أيوب نفسه، الذى تحول فى القصص الشعرى الغنائى الشعبى ؛ إلى إنموذج لصفة الصبر، فنحن نعرف قصته الأصلية الواردة فى سفر التكوين (الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثانى والأربعين من سفر التكوين) وكيف كان رجلاً على قدر كبير من

www.alkottob.com

التقوى ووفرة المال وطيب النفس، ثم امتحنه ربه فى ماله فصبر، وامتحنه فى جسمه "وضرب أيوب بقرح رديء فى باطن قدمه إلى هامته، فأخذ أيوب لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد فقالت له إمرأته :أنت متمسك بعد بكمالك بارك الله وموت فقال لها ألخير نقبله من عند الله والشر لانقبل" وتنتهى القصة المقدسة بأن "بارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاده" وضاعف له الراحة ومد فى عمره عشرة سنين ومائة ورأى أربعة أجيال من ذريته، وماله يزيد ويربو. ويعزو الذهن الشعبى إلى أيوب أنه دهن جسمه بدهان معين فشفى، أما عادة الاكتحال، فى تلك الفترة التى يقع فيها شم النسيم، فتتصل باتقاء أمراض العين (الرمد) الذى كان كثيراً ما يصيب الناس عند انقلاب الجو وتكاثر الذباب، وأتربة الخماسين (٥٣). وهو الأمر الذى لاحظه الرحالة چوزيف بتس بقوله:"الناس هنا ذوو عيون متقرحة وسيقان متورمة"(٥٤).

كما اعتاد المصريون على شراء السلاحف اعتقاداً منهم أنها تطرد الشياطين من البيت الذى تكون فيه(٥٥). كما اعتقدوا أن المرء:"إذا علق منقار الغراب على إنسان حفظ من العين، وإذا غمس الغراب الأسود جميعه فى الخل بريشه وطلى به الشعر سوده.. وإذا صر فى خرقة وعلق على الصبى الذى لم يبلغ الحلم نفعه من السعال المزمن وقطعه "(٥٦)

أضف لتلك الممارسات والعادات حرص الناس على تخصيص أيام معلومة لزيارة الأولياء والتبرك بهم:"فجعلوا يوم الخميس والجمعة للقرافة ولزيارة الإمام الشافعى "(٥٧)، وأورد المقريزى حكاية

عجيبة عن القرافة (أى مدافن القاهرة) نصها: " وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر شىء يقال له القطرية تنزل من جبل المقطم فاختطفت جماعة من أولاد سكانها، حتى رحل أكثرهم خوفاً منها، وكان شخص من أهل كبارة مصر يعرف بحميد الفوال، خرج من أطفيح على حماره، فلما وصل حلوان عشاء رأى امرأة جالسة على الطريق فشكت إليه ضعفاً وعجزاً،فحملها خلفه،فلم يشعر بالحمار إلا وقد سقط، فنظر إلى المرأة فإذا بها أخرجت جوف الحمار بمخالبها. ففر وهو يعدو إلى والى مصر، وذكر له الخبر فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها ثم صارت تتبع الموتى بالقرافة وتنبش قبورهم وتأكل أجوافهم وتتركهم مطروحين فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمناً حتى انقطعت تلك الصورة".(٥٨) أضف لهذه الحكاية العديد من الخرافات والتى شاعت ولا تزال فى المجتمع المصرى عن عالم القبور والموتى فيذكر الإسحاقى:"أن رجلاً من البهنسا أخبرنى شفاهاً أن بها شخصاً مشهوراً بابن الميتة، قال: وذلك أن أمه ماتت وهى حامل به فلما مضى مدة من دفنها ماتت امرأة من أقاربهاففتحوا قبرها لدفن تلك الميتة فأحس الحفار بشيء يدور حول الميتة. فطلع الحفار وهو مرعوب وأخبر من حضر بما شاهده فى القبر فظنوه وحشاً،ثم أوقدوا ناراً وأشرفوا على داخل القبر،فوجدوا ولداً معلقاً بالميتة ملتقماً ثديها،وقد أجرى الله فيه اللبن؛ لرضاعه فأخذ الحفار الولد، وضمه إلى صدره وعصب عينيه؛ خوفاً من مفاجأة النور. وأطلعه من القبر وعاش، وتزوج ورزق الأولاد (٥٩) وهذه القصة التى أوردناها عن القرافة مثال جيد على نوعية قصص

www.alkottob.com

الرعب التى كان أهل مصر يتداولونها حول المقابر والرهبة التى أحاطت بالموتى والقبور، وهى تذكرنا بتلك القصص المرعبة التى سمعناها كثيراً فى طفولتنا عن النداهة والعفاريت والمارد، بيد أن أهم ما تدل عليه هو مدى سيطرة الخيال والخرافة على حكى القصص آنذاك.

المجتمع المصرى يتصف بلزوجة فى عناصره وقضاياه وهمومه وآماله وآلامه لتتشكل كل هذه المقادير فى إناء واحد هو "الشخصية المصرية". تلك المعزوفة الإنسانية التى التقت فيها نغمات شتى من مكان، وزمان بين إيجاب وسلب. لتخرج لحناً خاصا هو الإنسان المصرى الذى عاش مئات القرون على هذه الأرض،التى تركت سماتها فى مكونه الإنسانى، وأكسبته مرارة الأيام، والسنين وتواليها سمات وخبرات خاصة، أضفت على الشخصية المصرية مكوناتها[٦٠] ولزوجتها التى تأتى عفوية فى سياق النسيج الاجتماعى المصرى اليومى.

لكن لماذا هذه اللزوجة فى السوسيولوچيا المصرية؟

إنها تأتى منسجمة مع التركيبة النفسية للشخصية المصرية، فالإنسان المصرى يتمتع بين الشخصيات العربية الأخرى بأعلى معدل من الرفاهة والعاطفة التى تجعله سريع التقلب بين الغضب والرضا والمدح والذم والضحك والبكاء والخشوع و الفرفشة.

ولأنه كذلك فإن اللزوجة الوجدانية فى مكونات الشخصية المصرية هى أسهل الأساليب لسرعة التحول من الغضب إلى الرضا، حيث ليس ثمة فارق صلب بين هذين الشعورين يستدعى بذل جهد كبير

للتحول من أحدهما إلى الآخر كما تفعل الشعوب الأخرى[٦١].

تلك اللزوجة المصرية التى كانت نتيجة ذاكرة تراكمية، تاريخية، وشعبية. فإذا كان الإنسان فى فترة حياته المحدودة يحوى فى أعماقه ذاكرة إنسانية لكل تجاربه وخبراته، وينتقل من فترة زمنية إلى أخرى،من طفولة إلى شباب وشيخوخة كل مرحلة تستقر فى بؤرة تفكيره قد يتغير منظوره الفكرى وأيدلوچيته. فقد ينتقل من اليسار إلى اليمين مع تقدمه فى السن. أو يمزج بينهما فى تناقص مألوف ولكن تظل تجاربه الفكرية السابقة فى بؤرة ذاكرته الحضارية الدافعة والناهضة، والأمر نفسه بالنسبة للمكون الإنسانى لشخصية الشعب، فهناك تجارب إنسانية عديدة ومكونات قد تمتزج وتتوارى فى الأعماق، ولكنها لا تمحى وتظل فى المكون الإنسانى،وقد تتوارى خلف المكون اللزج الجديد ويعد ذلك تواصلا وليس انقطاعاً إنسانياً بين الحقب الزمنية التى كانت شاهدة على تغير وامتزاج تاريخى وفكرى ودينى وأسطورى واضح نلمسه فيما ورثته مصر من العادات والتقاليد والأعراف والأفكار التى تعبر عن وجدانها فى شتى عصورها ومعتقداتها فى الحياة. مثل بعض العادات التى انطبع وقع حوافرها بقوة فى الذاكرة الشعبية للمصريين، كعادة تلقين الميت، وسعف النخيل، وليلة الخامس عشر، والأربعين، كلها عادات مصرية قديمة ظلت متغلغلة فى المعتقد المصرى إلى الآن[٦٢] شيوعاً ورسوخاً ليكشف عن المدى الواسع الذى تنتشر فيه تلك المعتقدات وعن التأثير العميق الذى تحدثه فى حياة الناس[٦٣]، ولا غرو فى ذلك فالمعتقد هو الفاعل الأصلى فى التاريخ[٦٤].

www.alkottob.com

وقد عُرف عن المصريين أصالة الصلة بينهم وبين المعتقدات الشعبية شديدة اللزوجة فى التناقض ولا عجب فعندهم أن "إللى يعتقد فى حجر ينفعو"(٦٥) مما يوحى لدينا أنه يمكن التعايش بين أكثر من نمط فكرى فالشخصية المصرية تتعايش فيها سمات بعضها يرتبط بالماضى وبعضها يرتبط بالحاضر(٦٦) وفقا لمبدأ التعدد فى أنماط الأفكار والمعتقدات، مما يؤكد على تعايش السمات الثقافية المتناقضة فى وجدان الإنسان المصرى المتسم باللزوجة الوجدانية وانصهارها وهو سر تميز الشخصية المصرية عن غيرها وهو ما نتلمسه فى سياق كتابات الرحالة والمؤرخين الذين زاروا مصر أو كتبوا عنها .

فالمصريان المتخاصمان إنك لن تلبث كثيراً حتى تراهما يرتشفان الشاى معاً بصحبة آخر نكتة!! ومرد ذلك هو الحاجز المصرى اللزج بين الصداقة والخصومة وهو ما لم يستطع الرحالة العبدرى – فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى – أن يدرك أبعاده حينما سمع مصرياً فى قافلة الحج: "ينادى رفيقه فى الركب فلما أتاه لعنه ولعن أباه وقابله الآخر بمثل ذلك وتهارشا زمانا ثم قعدا يأكلان!! ..." (٦٧). لهذا فإن المصرى قد يكون صديقا لك مدى الحياة – رغم بعض الخصومات الطارئة – لكنه لا يمكن أن يكون عدوا لك مدى الحياة وكلمة السر عنده هى "الابتسامة": "فهم يفهمون الإنسان الذى يتصادق بابتسامة لطيفة"(٦٨).

كما أنه يتسم بالتصلب النسبى ولا يقبل التغير السريع ويتمسك بالأرض ويتسم تفكيره بالتدين الشديد بل إن المصرى – فى رأى

هيرودوت – يزيد كثيرا عن سائر الناس فى التقوى وأنه أول من أوقف للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد(٦٩) وهو نفسه الإنسان الذى يؤمن بالقدرية ورغم ذلك فهو: "أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفاً بها وسكونا إليها حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تقدر أساليبها ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتمدونها(٧٠)، وطبعا هناك اختلاف بين المتعلم وغير المتعلم على الأقل فى مجال تصديق الخرافات وتحميل الجن وعين الحسود وأعمال السحر فوق ما تطيق فى امتزاج ولزوجة مع الدين فى تناقض عجيب أدهش أبا الصلت أمية – القرن الخامس الهجرى – الذى ذكر أنه شاهد "رجلا من الوقادين فى أتون الحمام يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظافره فتعجبت من سمو همته على خساسة قدره ووضاعة مهنته ... "(٧١).

ولقد كان إدوارد لين محقا حينما قال: "هؤلاء المصريون الذين يقحمون الدين فى أحاديثهم العادية بإخلاص وحسن نية هم أنفسهم الذين قال الكاتب نفسه عنهم: "وكثيراً ما يسمع فى المجتمع المصرى العبارات الدينية تعترض الحديث فى الأمور الحقيرة والخليعة أيضا، وقد يكون ذلك أحيانا بطريقة تحمل من يجهل أخلاق هذا الشعب على أنه يظنه هزءا بالدين. ويكرر المصريون اسم الله فى كثير من أغانيهم الماجنة من غير قصد للإهانة طبعا وإنما يفعلون ذلك

www.alkottob.com

لاعتيادهم إقحام اسم الله فى كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب فيعبر الماجن عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فاتنة بقوله أثناء كلامه الفاحش، تبارك الذى خلقك يا بدر".

ولقد ركز هذا التناقض الواضح فى تصرفات الناس المثل الذى يقول: "ساعة لقلبك وساعة لربك"، أى إنك عندما تمارس الشعائر الدينية لا تنس أن تمتع نفسك وأيضا عندما تمارس لهوك لا تنس ربك[٧٢]، ومرد ذلك هو الفاصل المصرى اللزج بين هذه وتلك والذى أثار انتباه (وينفريد بلاكمان) وقد دعاها إلى القول أن: "من الملاحظ أن معظم الصفات المتناقضة يمكن أن تجدها فى إنسان واحد، وبرغم كثرة الفقر والمرض وقلة وسائل التسلية التى تقضى على رتابة حياة الفلاح المصرى نجد أنه إنسان مستبشر وراض بصورة تدعو للدهشة، والفلاحون المصريون سريعوا الفهم وحاضرو البديهة ويحبون النكتة ،حتى وإن كانت تسخر منهم وعادة ما يتمتع الفلاح المصرى بذاكرة قوية وقلب طيب وروح مرحة وكرم ضيافة يضاف إلى ذلك حبه للعمل وهو فى الوقت نفسه ذو عاطفة جياشة شديد الحساسية ويتسم بالجهل كما أنه فى أغلب الأحيان يعجز عن السيطرة على نفسه ..."[٧٣].

والمصرى هو الأقدر على الإضحاك وهو أيضا الأقدر على الإبكاء وتقلب المزاج بين الحزن المفرط والفكاهة المفرطة[٧٤]، والمصريون يضحكون من كل ما يحسون فيه مخالفة للمألوف ويضحكون من الهجاء والسباب والشتم ويضحكون من النوادر والنكت والمزاح ثم هم يضحكون ضحك ازدراء أو ضحك إعجاب أو

ضحك سخرية أو ضحك هزل أو ضحك انتصار أو ضحك عطف أو تشفى. فصور الضحك والإضحاك ومنابعها كثيرة والأمم تختلف فى إنتاجها وقدرتها على تذوق ضروبها المختلفة والمصريون من أكثر الأمم ميلا إلى الفكاهة والضحك ومن هنا كان أدبهم غنيا بألوانها وخاصة ما اتصل بالنكت وخفة الدم والروح[٧٥] ،والكتابات التاريخية كانت شاهدة على أن المصرى يضحك حتى لا يموت من الغم.

وعلى الرغم مما شهدته الشخصية المصرية من محن وشدائد عديدة صهرتها محنة الحروب الصليبية، فقد خرجت منها ومن المحنة المغولية غير فاقدة لقدرتها على المرح والتفاؤل وعشق الحياة فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهور هى "كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش"[٧٦] ،هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة فى تاريخ مصر فى العصر الإسلامى ألفه الأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين الأيوبى وقد عرف ابن مماتى كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى؛ إذ نسب المصريون بروح الدعابة التى يمتازون بها إلى تلك الشخصية كثيرا من القصص المضحكة وأصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية لكل حاكم طاغية على مصر فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نوادره ويضيفون إليها نوارد جديدة[٧٧] استرسلت فيها قريحتهم ،التى وصفها ابن بطوطة بقوله: "وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو .. "[٧٨].

www.alkottob.com

ويشير البعض إلى أن: "أصل كثرة السرور والأفراح بمصر فناشئ عن كونها إقليما آخر.. فأهلها يشرعون فى الشجار لأتفه الأسباب وذلك لأن طبع مصر "زهرى" فلذا يميل شعبها إلى الموسيقى والغناء واللهو واللعب. ثم إن شعبها الكبير العدد كثير المال الذى يساعده على الإنفاق فى الطرب والذوق والصفا ... (٧٩).

: "وكذلك كثر طرب نفوس أهلها وفرحهم ورغبتهم فى مداومة اللذات واستماع الأغانى ومواصلة المسرات والرغبة فى الراحة وطرح كل يوجب التعب والمشقة والحب للنقش والصورة والرقم والتلوين بالأصباغ وعلى قلة الضجر فى السفر وترك المخالفة لمن يصاحبون وكثرة المبالغة لمن يألفون وحسن المؤازرة لمن يستخدمهم ..."(٨٠) فيقبلون عليك بالبشر والترحيب ... وبشاشة المحب عند لقاء الحبيب"(٨١).

وما يعرفه الناس عن خفة ظل المصرى فيه الكثير من الصحة ولكنه فى الوقت نفسه ضرورة للتفريج عن نفسه ولذلك فإنها وسيلته للقضاء على الشعور بالقهر والضيق واليأس والمرض وهو ما أشاد به (صاحب الرسالة المصرية)، برغم حنقه الشديد من مصر وأهلها، إلا أنه لم يستطع أن يخفى قسمات وجه وهو يبتسم من: "ظريف ما سمعه أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان يستدعى الأطباء فيدخل على المريض فيحكى له حكاياته مضحكة وخرافات مسلية ويخرج له وجوها مضحكة وكان مع ذلك لطيفا فى إضحاكه وبه خبيرا وعليه قديرا فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ أو

يكون منه ما شاء الله ..." وقد دعى أبو الصلت أمية إلى ضرورة العمل بهذا الاختراع المصرى خفيف الظل وتعميمه فى كافة أساليب العلاج بقوله: "فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لا مضرة فيه ولا غائلة له بل أمره على العليل هين ونفعه ظاهر بين كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ويقوى القوى الطبيعية ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول مع الاستظهار بحفظ الأصول".(٨٢) مما يدفع بالمرء أن: "يتعجب كثيراً من جدهم ومرحهم"(٨٣).

ولكن خفة الظل هذه قد تصبح داء يعجز المصرى معه أن يقول جملة دون تعليق ساخر أو ضاحك بحيث يصاب محدثه إما بنوبة ضحك لا تنقطع وإما بالضيق الشديد إذا لم يكن من المعجبين بهذا النوع من "القافية" كشكل من أشكال الفكاهة يختلف عن النكتة والتى تتطلب قدرة ومران(٨٤) قلما تجدها إلا عند المصريين بما فيهم: "من نزعة إلى السرور واندفاع فطرى إلى المزاح والمطايبة على وجه ينم على الذكاء وحضور الذهن وسرعن الخاطر"(٨٥)، والتى أشار إليها الدهلوى وما تعرض له من (قافية) فى مصر أغضبته فيروى أنه عندما ذهبت إلى الحمام بالقاهرة و: "خلعت ملابسى ولففت إزارى ونزلت إلى أسفل فوجدت عددا من المصريين العرايا أجسامهم ضخمة وبنيانهم قوى شاهدوا جسدى النحيل فأخذوا يدعون بصوت عال أن ينجينى الله من مرض الهزال الذى أعانى منه فتأذيت كثيرا من كلامهم هذا ..." (٨٦).

فالقافية التى تأذى منها الرحالة الدهلوى تعد واحدة من

www.alkottob.com

الأساليب المختلفة للمصرى فى التنكيت والسخرية وتعتمد على المبارزة الكلامية باللعب على الكلمات والمعانى وإن كان لا يقصد منها سوى الممازحة وقد شهد الرحالة الأندلسى ابن سعيد (المتوفى ٦٨٥هـ) على الحاجز المصرى اللزج بين الممازحة والمكر بقوله: :" لم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط فهم فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة ما يطول ذكره(٨٧).

والمصرى هو الأكثر موعظة ودموعا فهو يبكى فى لحظات الحزن وكذلك فى لحظات الفرح الشديد ويهرع لتلبية أية دعوة للمشاركة فى الحزن ويبكى على راحل ليس من الأهل أو الأصدقاء ويعتقد أن الاشتراك فى تشييع راحل لا يعرفه هو عمل من أعمال الخير، له ثواب عظيم، والظهور بمظهر الإنسانية المتعاطفة مع الإنسان لوجه الله وتأكيد الإيمان بقبول الحكمة الإلهية المتمثلة فى الموت والرضوخ الكامل لها. وعبارة "اللهم اجعله خيرا" التى ينهى بها المصريون ضحكاتهم أو أى تعبر آخر عن الفرح، تدل على أنهم يخشون الفرح بأشد مما يخشون الحزن(٨٨).

وتاريخ المصرى على مر آلاف السنين هو سجل حافل بجرائم الحكام والساسة ومفهم بالمعاناة الطويلة والحرمان القاسى وتقلب الغزوات والأجانب عليه بعد عزته فى التاريخ المصرى القديم ولذلك أضحى المصرى أشبه بشيخ هرم، مكسور الخاطر أو عزيز قوم ذل. والإحساس المستمر العميق بالظلم لابد أن يفتح منابع الحزن والكآبة سواء فى الفرد خاصة أو الشعب بصفة عامة(٨٩).

وبرغم بشاشة المصرى وعشقه لألوان الحياة فإن هذا لا ينفى أن مظاهر الحزن غلفت حياته ذلك أن التعبير الحقيقى عن الوجدان هو البكاء وليس الضحك وقد أحس الرحالة ابن جبير – فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى – بروح الحزن التى مست شغاف قلبه لما شاهده من تمسح الناس بقبر رأس الحسين: "....وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجماد.."(٩٠) ،ويصف الرحالة السبتى (ت٧٣٠هـ) احتفاء أهل مصر بالحجيج على طريقتهم الخاصة بقوله: "... واندفع جماعة من القراء بين يديه يتلون قوله تبارك وتعالى: "الحج أشهر معلومات" الآيات وجعلوا يكررونها بأصوات حسنة ويرددونها بالتلاحين العجيبة متراسلين على عادتهم فى هذه البلاد المشرقية ونمقوا أصواتهم بذلك أى تنميق وأجروا الدموع على الخدود وشوقوا إلى الحرم الشريف أى تشويق .." (٩١).

المهم أن العنصر المصرى الذى مازال كامنا فى قلب من يسكن فى أرض الكنانة هو الذى تدمع عيناه كلما حان وقت الفراق أو الرحيل نجده قد: "فاضت الدموع ولحق الخشوع"(٩٢).

والشخصية المصرية تعانى من اللزوجة فى ازدواجيتها التى تتبدى فى جوانب عديدة كالتناقض بين الإنشاء والأخبار وبين القول والعمل وبين الداخل والخارج(٩٣) ،وتسترسل الأمثال الشعبية فى ذلك موردة لتلك اللزوجة المتناقضة فى أحوال وسلوك المصرى فتقول: "أقرع ونزهى" أو "غشيم ومتعافى" و "زى الطبل صوت عالى وجوف

www.alkottob.com

خالى"[٩٤] ،وقد أطال الحديث عن مثل هذه النوعية من البشر صاحب (الرسالة المصرية) وأفاض عنهم فى قوله: "وأما الطائفة المقلدة التى حظها من المعارف القشور دون اللبوب والظواهر دون البواطن والأشباح دون الأرواح فأمثل من بها منهم الآن رجل يعرف برزق الله النحاس فإن له فى فروع هذه الصناعة بعض دربه وتجربة وبتجريباتها وبجزيئاتها بعض خبرة وهو أكبر المنجمين بها وكبيرهم الذى علمهم وأميرهم الذى يلوذون به وكبيرهم الذى علمهم السحر فجميعهم إليه منسوب وفى جريدته مكتوب وبفضله معترف ومن بحره مغترق وهو شيخ مطبوع بتطايب وبتخالع .."[٩٥] ،وتحدث عن آخر بقوله: "وكان مثله فى عظم دعاويه وقصوره عن أيسر ما هو متعاطيه كقوله الشاعر:

يشمر للج عن ساقه ويغمره الموج فى الساحل[٩٦]

وتسترسل الأمثال فى السخرية ممن ينهون ويتكبرون غير مدركين لقيمتهم الحقيقة موردة تلك اللزوجة المتناقضة فى أحوال وسلوك المصرى والذى تراه أحيانا (من بره هللا هللا ومن جوه يعلم الله) ،وهذا يعكس اهتمام المصرى بالقيمة أكثر من اهتمامه بالشكل أو القشور[٩٧] ،ولا يتوانى المصرى فى توجيه أشد أنواع السخرية وأكثرها اقترابا من الفكاهة لمثل تلك النوعيات التى تراها من (بره رخام ومن جوه سخام) أو تلك الفئة التى تعامل معها الرحالة (الدهلوى) فى مصر، والتى يقال عنها: "بعد المعركة ينتفخ المفش" أو "طلع طلع ونزل على فاشوش"[٩٨] ،فيقول عنهم الدهلوى: "... وإذا حدث واضطررت إلى التعامل معهم فلا تخش أجسامهم الضخمة

وهيئتهم المخيفة فهم جبناء ضعاف الهمة كما أنهم يتصفون بالدناءة فإذا ما هددتهم مرة واحدة هربوا على الفور من المواجهة... وقمت أنا أيضا بتعنيفه وأمام جمع غفير من الناس وقضنا بأجسامنا الضعيفة وظللنا واقفين وإذا به يمد يديه طالبا العفو قائلا: دعونى أذهب، ثم أخذ يسب ويشتم وهو يغادر .. "[٩٩] "فهم ذوو لسان سليط كالدعرات لكنهم قلما يهتمون بالدخول فى معارك وإن حدث فإنهم يضربون بأكفهم (يصفعون) وليس بقبضاتهم[١٠٠] و (قلما ينقلب الشجار بين المصريين من التنابذ بالقول إلى التضارب بالأيدى بل أنه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل أحد الخصمين عن حقه بقوله للآخر "الحق على")[١٠١].

والمصرى الذى يتسم بطيب النفس: "وبالهدوء والرقة والوداعة قد يرتكب جريمة وحشية فى لحظة .. فقد قتل رجل جاره بطريقة فظيعة لأنه سرق بضع بصلات من حقله وبعد لحظه من ارتكابه لجريمته كان يبكى فوق جثة ضحيته"[١٠٢].

وهكذا فالمصرى تجده غير مدرك للعواقب ولعل أخطر ما يؤخذ عليه وعلى سخريته حيال الأزمات العنيفة وسخريته من ذاته أنه يكتفى بالسخرية من الشئ أو الشخص أو الأزمة ويضحك ملء شدقيه ولسان حاله يقول: "شر البلية ما يضحك" ويكتفى بذلك؛ وكأن السخرية قد حلت الأزمة أو غيرت الأمور من حال إلى حال غير مدرك أن السخرية ليست وسيلة تغيير ولا طريقا إلى حياة أفضل وذلك يعنى أنه شخصية غير مدركة للعواقب والغريب أن هذا هو دأب الإنسان المصرى منذ قرون بعيدة[١٠٣] فقد لاحظ الرحالة عبد

www.alkottob.com

الرحمن بن خلدون ذلك منذ ارتحاله لمصر وقال: عن أهلها مصر :" كأنما انطلق (فرغ) أهله من الحساب"(١٠٤) أى كأنهم تجاوزوا كل ما هو جاد. وعلق المقريزى على ذلك بقوله: "... وقال شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى: "أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب"(١٠٥) وذهب المقريزى إلى أبعد من هذا بقوله: "ومن أخلاق أهل مصر الأعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدخرون عندهم زادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان .. ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات والإمعان من المملاة وكثرة الاستهتار وعدم المبالاة ..." (١٠٦) فهذا المصرى البسيط والماكر فى آن معا تجده أحيانا "يخاف ولا يختشيش" على حد لسان حال الأمير رودلف حين ذكر أنه: "كان عدد كبير من الفلاحين البؤساء يلبسون ألبسه متواضعة – رغم أن لبعضهم منظرا يوحى بالقوة – يعملون تحت إشراف خولى يلبس عباءة طويلة ويحمل فى يده كرباجا من جلد وحيد القرن وقد تقدم منى هذا الخولى بزهو وتحدث طويلا وهو يومئ كثيرا أثناء الكلام وقد فهمت بعد أنه يرغب منا مغادرة الأرض ولما رأيت أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ويحرك يده بعنف استدعيت عثمان الخادم الأسود ... ولما رأى هذا الشرقى الفاضل الخولى البزة المميزة لخادم القنصل انخفض صوته وتراجعت نبراته وانسحب سريعا خوفا من خطر يحيق به واختبأ داخل أعواد القصب الكثيفة"(١٠٧). وكأن لسان حال الخولى "اللى ما يعرفك يجهلك". ورغم هذا التناقض الظاهر فى الموقفين أى الاعتزاز البالغ بالنفس مقابل الإكبار والتبجيل من قدر الآخر والخوف منه فإن المصرى صدره

كبير ويتسع لذلك وأكثر وشعوره فى قرارة نفسه بالعلو لا يمنعه من منح الآخر فى الاحترام(١٠٨).

والمصرى (قلبه أبيض) لا يحمل الضغينة لأحد يغضب ويزيد ويصرخ كما رأينا ثم تقول له (صلى على النبى) فتنزل به الصلاة على النبى من قمة غضبه لتجعله إنسانا متسامحا يغفر لخصمه: "ويتفق أحيانا أن يتداخل بين الخصمين ثالث ويجعل تمهيده للمقابلة قوله: "اللهم صلى على سيدنا محمد" فيكرر الخصمان هذه العبارة بصوت خافت ثم يقرأن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوئام والوداد...(١٠٩).

والمصرى يحب لهجته. وكثيرا ما لا يكون مستعدا لفهم غيرها وإذا أراد أن يتحدث لهجة عربية أخرى أصبح كوميديا وفى حين لا يتقن المصرى اللهجات العربية الأخرى ويصر على نطق حرف الجيم بصورة مختلفة (دون تعطيش الحرف) والقاف (ألفا) وغير ذلك مما هو معروف عن هذه اللهجة فإنه يرى تحدث الآخرين باللهجة المصرية أمرا بديهيا(١١٠) وليس كوميديا يثير الضحك، كما فعل الرحالة العبدرى – فى القرن السابع الهجرى – فى سياق تهكمه على المصريين بقوله: "واللكنة فيهم فاشية وجمهورهم يجعل القاف والكاف همزة وقد سمعت شخصا منهم فى التلبية يقول: "لبيك اللهم لبيك ويجعل كافاتها كلها همزات فلو سمعته سمعت كلاما مضحكا..." (١١١).

وقد تأسف (الرحالة الهندى النعمانى) لما وصلت إليه حال اللغة العربية أمام العامية المصرية غير مدرك إلى أنه لم يجد المتكلمون

www.alkottob.com

بالعربية مقرا لهم من أن يخلقوا – إلى جانب الفصح – لغات عامية يباشرون بها شئون حياتهم اليومية[١١٢] فيقول: "إن اللغة العربية المعاصرة مختلفة إلى حد ما عن اللغة العربية القديمة لدرجة أن أى عالم كبير من الهند لو سافر إلى مصر والشام فإنه سيستغرق فى فهم اللغة هناك نفس الوقت الذى يستغرقه أحد العوام تقريبا"[١١٣].

ويشير الرحالة إلى أن أهل مصر: "يختصرون كثيرا من الكلمات إلى حد لا يستطيع الذهن أن يتجه ناحية الكلمات الأصلية ما دام لم يذكرها شخص ما ... يزيدون بعض الحروف فى بداية الكلمات أو فى آخرها والتى بها يتغير شكل الكلمة تماما ... وفى مصر يزيدون حرف (ش) فى نهاية الكلمات مثل (ياخدش) بدلا من (يأخذ) هناك فساد كبير فى نطق الحروف بل يجب القول إن جميع خصائص نطق اللغة العربية قد محيت، فهم يتحدثون بالهمزة بدلا من العين والدال بدلا من الذال والكاف الفارسية بدلا من الجيم والهمزة بدلا من القاف ولا ينطق بهذه العوام والجهلاء فقط بل إن العلماء والأشراف أيضا يؤدونها هكذا بهذه الحروف، سألت طالبا فى مصر ذات مرة من أين جئت؟ قال جاى من الجمعة أى جئت من مسجد الجمعة"[١١٤]. غير أن أحد المولعين بمصر رأى أن اللهجة المصرية هى أحد مصادر النكتة: "لاسيما وأن اللهجة التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكتابة إلى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس..."[١١٥].

وهذا مؤرخ مصرى هو الأدفوى يدرك الناظر إلى كتابه فى

التراجم الموسوم "بالطالع السعيد" الطابع المصرى الأصيل فهو يحكى القصص ويسوق الأقوال بأسلوب لهجته المصرية أكثر من عربيته(٦٥٣) فيقول فى ترجمة على بن عبدالرحيم بن الأثير: "ثم بلغه ما اقتضى عزله من تلك الجهة فتوجه إلى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فتكلم شيخنا قاضى القضاه فى المجلس بكلام فشق عليه [وعيط] عليه ..." [١١٧].

أما المصنف الموسوم بـ "الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين" فقد كان على العموم ابن عصره تشيع فى كتابته الأخطاء النحوية ويكتب باللهجة العامية بحيث يقول مثلا: "وفى هذه السنة هجمت (هجم) الفرنج على دمياط وأخذوها بلا طعنة ولا ضربة .. فعضب وشنق من أعيانا ستين نفسا فقالوا: إيه ذنبنا إذا كان عسكرنا هربوا (هرب) فما نصنع نحن ففزع العسكر من السلطان وصطوته (وسطوته) وكان السلطان مريضا فأرادوا (فأراد) مماليكه قتله"[١١٨].

وقد تذمر ابن الحاج فى "المدخل" من تلك اللهجة العامية بقوله: "فالذاكر منهم فى الغالب لا يقول (لا إله إلا الله) بل يقول (لا يلاه يلله) فيجعلون عوض الهمزة ياء وهى ألف قطع حتى جعلوها وصلا وإذا قالوا (سبحان الله) يمطونها ويرجعونها حتى لا تكاد تفهم والقارئ يقرأ القرآن فيزيد فيه ما ليس منه وينقص منه ما هو فيه بحسب تلك النغمات والتوجيهات التى تشبه الغناء والهنوك التى اصطلحوا عليها) [١١٩].

ويقف المقريزى (القرن التاسع الهجرى) شاهد عيان على تمسك

www.alkottob.com

المصرى بلهجته. فيذكر: "أعلم أن ناحية أدرنكة هى من قرى النصارى الصعايدة ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى ... والأغلب على نصارى هذه الأدبرى معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية وبعدها اللغة القبطية البحرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية"[١٢٠] ويشير (صفى الدين الحلى) (المتوفى ٧٥٠هـ) إلى ما للهجة أهل مصر من مذاق وحلاوة ورقة فيقول: "ولسان المصريين يبدلون الضاد دالا"[١٢١] إلا أن: "لعوامهم لغة لطيفة رقيقة مختصة بهم وظرافات رشيقة هى أحلى موقعا من اللفظ العربى والمغربى ... كحلاوة ألفاظ المغاربة والمصريين"[١٢٢].

والمصرى يكره النقد لأى شىء يصنعه أو اعتاده. يمكن أن تقول له ما تشاء ولكن بدون توجيه نصح بصورة مباشرة ولا تفكر فى تعريفه بخطئه على الإطلاق بل يكون ذلك بتوضيح وجود إمكانات أخرى للوصول إلى حل للمعضلة وعندها يمكن أن تقول عكس ما يقول باعتباره بديلا لكلامه فيتقبله دون تردد[١٢٣] ،وهذا بعينه الخطأ الذى وقع فيه صاحب (الرسالة المصرية) – فى القرن الخامس الهجرى – عندما دخل فى مناظرات علمية وكلامية مع أهل مصر ولم يكن واقفا على طبيعة من تحدث معهم فى أمور العلم فيقول: "وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بمذاكرته وأقدح خاطرى بمفاوضته. فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وطمس إفهامهم وحال بين الحكمة وبينهم.... وقد تخلقوا بكثرة الخلاف وقلة الإنصاف ولزموا

البهت والمعاندة والشغب والمكابرة ..." [١٢٤].

ولعل الصفة الأخيرة من أهم صفات المصرى وهو الاعتقاد الخاطئ بأنه وحده الموجود على خريطة العالم وأن الدينا حوله لا تساوى شيئا وأن مصر وحدها تعدل نصف العرب وعند هذا المصرى شعور بأن حضارة القدماء المصريين تعطيه الحق لينظر للعالم من فوق هرم خوفو. شعور بأنه يستغنى عن العالم كله فعنده – حسب ظنه – الريادة فى كل مجال[١٢٥] ،وقد أنكر عليه الكثير من الرحالة كقول العبدرى – فى القرن السابع الهجرى –: "ومن الأمر المنكر عليهم والنكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول فى إكبابهم على علم المنطق واعتقادهم أن من لا يحسنه لا يحسن أن ينطق .. "[١٢٦] وقول صاحب (الرسالة المصرية): "ورأوا أن غرضهم من صناعة الطب الذى هو عندهم وحسب ..." [١٢٧] وفى الوقت نفسه نجد المصرى يحب جدا النقاش بل والجدال إلى درجة الشجار: "فيرى الشيوخ منهم يتهارشون فى الطرقات ويقطعون بلعنة أسلافهم فسيح الأوقات[١٢٨] ،وقد عانى ابن خلدون من الإرهاق بمناقشات وحجج مضادة مع المصريين بقوله: "فتتعارض الفتاوى وتتناقض ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم والخلاف فى المذاهب كثير والإنصاف متعذر ... فلا يكاد هذا المدد ينحسر ولا الشغب ينقطع"[١٢٩] ،وعند ذلك يصبح المصرى محترف مكر ووشاية ويكره الوقوف فى آخر الصف بل لابد أن يجد وسيلة ليصبح فى المقدمة ومن هذه السمة عانى ابن خلدون بقوله: "وانطلقوا يراطنون (يكلمون) السفهاء فى النيل من عرض وسوء

www.alkottob.com

الأحدوثة عنى بمختلف الإفك وقول الزور يبثونه فى الناس ويدسون إلى السلطات التظلم منى..."[١٣٠] ويبدو أن المقريزى قد نال نصيبه من المكر والمراوغة فنجده فى تحليله للشخصية المصرية يشير إلى جغرافية المكان وتأثيرها على طباع وأزمة الناس فى مصر بقوله: "وأن هؤلاء وماءها رديئان" ويرى أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن: "وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستمال والتنقل بين شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة فى العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكبد والسعى على السلطان وذم الناس"[١٣١].

وما ذكره المقريزى عن ممالأة الحاكم فهو نتيجة لضغط وقهر إنسانى من العديد من الدول التى تداولت الحكم وليس طبيعة مصرية خالصة فما دخل علينا من الخضوع أو ممالأة الحاكم السلبية ليست نتاجا لطبيعة أرض، بقدر ما هى تراكمات تاريخية من قهر لدول حاكمة تملك قوة السلام أمام شعب مسالم يؤثر السلامة ويكره لون الدم ولا يملك أمام السيف إلا الدعاء والشكوى أو الانفجار المفاجئ إذا وصل الأمر إلى مرحلة الموت قبل الموت[١٣٢].

والمصرى (فهلوى) أى لا يعرف خطوطاً مستقيمة و تقف الحواجز أمامه عقبة كئود بل لابد من البحث عن ثغرة أو مخرج حتى ولو كلفته عناء أكبر من الانصياع لإرادة الآخرين وقلما نجد مصريا يقول (لا أعرف) فهو يجرب ويحاول ولا يفقد الأمل بسرعة ولكن إذا وصل إلى نقطة اليأس فإنه لا يعترف بعدم القدرة بل هناك ألف مبرر بشرط ألا يكون أحدها عدم المعرفة أو أنه خاض فى حقل لا يفهمهم

فيه شيئا ودليل ذلك ما أورده أبوالصلت أمية بن عبد العزيز (المتوفى سنة ٥٢٨هـ) عن رجل مصرى يسمى رزق الله النخاس الذى قال عن نفسه: "سألتنى امرأة مصرية أن أنظر لها فى مسألة جملية تخصها فأخذت ارتفاع الشمس للوقت وحققت درجة الطالع والبيوت الإثنى عشر ومركز الكواكب ورسمت ذلك كله بين يدى فى تخت الحساب وجعلت أتكلم عن بيت بيت منها على العادة وأنا فى خلال ذلك أتحسس أمرها وهى ساكتة لا تنبس فوجمت لذلك وأدركتنى فترة عظيمة وألقت إلى درهما قال: فعاودت الكلام وقلت: أرى عليك قطعا فى بيت مالك وضياع فاحتفظى واحترزى! فقالت: الآن أصبت وصدقت قد كان والله ما ذكرت قلت: وهل ضاع لك شيء ؟ قالت: نعم، الدرهم الذى ألقيته إليك! وتركتنى وانصرفت ..." [١٣٣].

ويتمتع المصرى بقيم دينية داخلية لم تتغير تبعا لروح العصر بما فيها من أنانية وتجاهل لألم الآخرين وأوضح دليل على ذلك ما يراه الناس من خير وفير فى أيام وليالى رمضان. كما يذكر الكمدى عن عبد العزيز بن مروان أنه كان له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره كما كانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل وهى مملؤة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين ومعها الخبز[١٣٤]، فالمصريون ميالون بوجه عام إلى البر بالفقراء والإحسان عليهم لأن فى دينهم من التعاليم والمبادئ ما يجعل هذه الفضيلة فرضا واجب الاتباع[١٣٥].

فمازال فى قلب المصرى شفقة بالفقير وحسن الظن بالناس يصدق سريعا كل ما يسمع ويحرص على صلة الرحم والبر بالوالدين والحنو على الأبناء، لدرجة أنه: "قد حرص كل من الأب والأم على

www.alkottob.com

تجميل أطفالهم بالحلى والملابس الجميلة إذا كانا فى سعة من العيش"(١٣٦) وكان مشهدا معتادا أن يدخل المصرى على أطفاله حاملا لهم "العلاليق" الحلوى التى على هيئة الخيول والسباع والقطط بحيث لا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده(١٣٧).

ونفس هذا المصرى مستعد لأن يكون رمزاً للجحود والعقوق لا يبالى بأى شىء ولسان حاله يقول: " اللى يعرف أبويا يروح يقوله" ليضرب المثل السيئ فى العقوق حتى تظن للوهلة الأولى أن: "العقوق بينهم متعارف فكان معنا فى طريق الحجاز شخص منهم حج بأمه فكان إذا اغتاظ عليها يقول لها يعنك الله ولعن الذى آواك – يعنى أباه – وذلك بعدما حج بها!! (١٣٨) على حد قول العبدرى فى القرن السابع الهجرى.

والمصرى البسيط الطيب لا يختلف كثيرا عن باقى الشعوب حين تجوع فلا تجد ما تقتات به سوى شرفها. فى ظل انحصار للأخلاق وتخلخل لمنظومة القيم الاجتماعية للمصرى وتحت وطأة البؤس والجوع وحالة الموت ما قبل الموت فيكون موقف المصرى إما أن يعمل فى: "نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم وهذه البلية ... وجدت فى جميع بلاد مصر ... من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحى...." (١٣٩) أو أن هذا المصرى الأب المكافح والبطل المستعد أن يضحى بكل شىء من أجل أبنائه وفى سبيل توفير قوت يومهم والتى وقد تصل التضحية بالمصرى لقبول عمل دون مؤهلاته بكثير ولو فى آخر بقاع الدنيا وفى ظل ظروف عمل قاسية. نفس هذا الإنسان تجسده حين تزيد وطأة الجوع والفقر عليه

يترك أبناءه المفلسين فى أمان الله إذا ما وصل أمر العجز عن الوفاء إلى حد الاستحالة لدرجة أن تكون "العين بصيرة والإيد قصيرة"(١٤٠) وتكون "حيلة العاجز دموعه" فنجد "كثيرا ما كانت المرأة تملص من أبنائها فى الزحام فيتضورون حتى يموتوا ..." (١٤١) أو أن يشاع: "بيع الأحرار ... عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة"(١٤٢) وتجد من يزعم: "أنه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر .." أى بمبلغ يسير(١٤٣).

إن مثل هذه الأحوال كانت تترك صوراً سيئة لنفسيات الناس فى مصر فقد كانت كالمعاول التى تهدم قيم ومشاعر الناس يغذى ذلك مجموعة كبيرة من الأمثال التى صورت المصرى فى أسوأ الأحوال وتسخر من وضعه الاجتماعى منها: "إذا لقيت عريان ما تسألوش على هدومه .. " ،فالمصرى فى فقره لا يستطيع أن يفعل شيئا لأن: "فقر المرء فى وطنه غربة"(١٤٤) ،ولكن الفقر المصرى له مذاقه اللزج والخاص، الذى شعر به الرحالة التركى (جناب شهاب الدين) فيقول: "منظر الفقر والعوز يمزق القلوب كثيرا ها أنتم تشاهدون الآن متسولا عاريا فتطلبون الشفقة له وهو يظهر لكم وقارا هكذا فى أوضاعه وحركاته!!"(١٤٥) ليعبر (جناب شهاب الدين) عن الحاجز المصرى اللزج بين الفقر وعزة النفس، أو كما يقال: "فقرا ويتمشوا مشى الأمرا"(١٤٦) ،وقد يعكس اهتمام المصرى بالقيمة أكثر من اهتمامه بالشكل أو القشور ويرى أنه ليس من العار ما يعيشه المصرى الآن ولكن عدم إدراكه لسوء ما يعيش وقد نوه الرحالة التركى (جناب شهاب الدين) إلى شعور المصرى بمدى الفقر المدقع

www.alkottob.com

الذى وصل إليه فقال: "والواقع أن الوظائف الدوائية الخسيسة ظلت مقصورة على السواد الأعظم من شعب مصر أمثال العربجية والعتالة وقد قال مصرى ملمحا لهذا الوضع بلاشك: "كلما تضارب مدينتنا بالثراء نفتقر نحن فمدينتنا تخدعنا غالبا ..." (١٤٧).

وألمح لهذا المعنى القاضى الفاضل بقوله: "أهل مصر على كثرة عددهم وما ينسب من موفور المال إلى بلدهم وما ينسب من موفور المال إلى بلدهم مساكين يعملون فى البحر ومجاهيد يدأبون فى البر ..."(١٤٨) حتى استحالت مصر إلى جنة للمعذبين فى الأرض. ولاشك أن شعوب العالم أجمع قد عانت عبر العصور من ويلات العبودية بمختلف أشكالها وألوانها ومن بينها تلك المأساة المصرية التى عبر عنها القاضى الفاضل، فالمأساة الإنسانية هى الصراع غير المتكافئ بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والمجتمع وبين الإنسان والسلطة أو الحاكم بمعنى أن أحد الطرفين يحمل فكرة قمع الآخر أو قهره أو إذلاله ثم الانتصار عليه ولما كان هذا الصراع هو السمة الأساسية لتاريخ البشر فإن الحس المأساوى والقمعى هو الغالب على بقية أحاسيسهم، وقد ظل التاريخ الشعبى منذ العصور الأول للإنسان يعبر عن مقاومته الدائبة لهذه المأساة تعبيرا ملحميا أو ذاتيا يحيط بجملة من الطقوس الاجتماعية والظروف التاريخية الصانعة له(١٤٩).

والمصرى مستعد للتنازل عن قوت يومه وملابسه بل والطعام لكى يوفر المال للأبناء ليعيشوا حياة لا يعرفها هو أبدا، لأنه يعلم أن فى ظل الجوع يصبح المال هو "عصا سليمان" يستطيع أن يذلل كل الصعوبات التى تعترض الإنسان، كما أنه – أى المال – يبعث على الثقة "إدى مالك

للى عنده مال وادى ولدك للى عنده ولاد"(١٥٠) ،مثلما حدث مع الرحالة البغدادى – فى القرن السابع الهجرى – عندما سألته امرأة تحت ذل السؤال أن: "يشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها أن ذلك حرام، فقالت خذها هدية!!" (١٥١) ولا عجب فى ذلك "فالفقير لا يتهادى ولا يتدادى ولا تقوم له فى الشرع شهادة"(١٥٢) بحسب منطق الطغاة والبغاة وشريعة الغاب، حتى وإن: "مات جماعة منهم من شدة الحر؛ حر النار مع حر الزمن"(١٥٣).

"وفى الوقت نفسه يدفعهم حب المال لأن يتسموا بالشراهة والجشع وهو سبب المشاكل الخطيرة التى تنشأ فيما بينهم(١٥٤) ،وهو ما سجله لنا (الرحالة النعمانى) عند وصوله إلى مصر حيث وصل: "بمشقة بالغة وهناك هجم الحمالون فكان كل أربعة منهم يتعاركون حول راكب" ولم ينس النعمانى أن يلمح إلى (خفة الظل المصرية) بقوله: "وحمل أحمد الحمالين الأقوياء حقائبى فاضطررت أن أصحبه ... ومن الطريف أن حضرة الحمال جلس بجوارى فأى قدرة لى حتى أعترض على جرأته ..." (١٥٥) "وهذا الجشع الغريزى فى المصريين جعلهم لا يستحيون من الالتجاء إلى الغش والتدليس فى معاملتهم التجارية وبث فيهم الميل إلى الاحتيال والسرقة ..." (١٥٦) وأوجد "غرائب لا نهاية لها فى البيع والشراء"(١٥٧) كما أنهم: "لا يعرفون على الإطلاق أسلوب الكسب ويريدون أن يغمضوا أعينهم وينهبوا الناس"(١٥٨) وفئة منهم إذا: "عاملهم غريب لم يلق منهم إلا ما يريب يتخذونه هدفا ولكل منهم فيه سهم مصيب حتى يخرج من ماله بغير نصيب"(١٥٩).

www.alkottob.com

"فهم بارعون فى الاحتيال والغش خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبهم فى البيع والشراء فعندما يضع المشترى بارا فى يد البائع، فإن البائع يضعها (أى البارا)- إن أمكنه فى فمه ثم يتناول بمكر بارا أخرى (غير جيدة) كان قد وضعها فى فمه أيضا لتحقيق هدفه ثم يقدم هذه البارا الأخرى (غير الجيدة) للمشترى قائلا أن باراته مغشوشة"(١٦٠) ،فمثل تلك الحيل والملاعيب المصرية لها قواعد وأصول تظهر سريعا مع الأجانب والغرباء على حد قول الدهلوى: "لكن العامل المصرى فهم أننى أجنبى وطبقا لقاعدة الخداع المصرية أخذ منى عشرة قروش ..." (١٦١) كما أن تلك القاعدة لها أداؤها الخاص الممتزج بالنصيحة وسرعة البديهة وكثيرا ما تجد: سم الغش ممزوج فى عسل النصائح"(١٦٢) التى تصل إلى حد الفكاهة فمثلا: "السهام الانفعالية التى يقذفها كل من البائعين بنظرة جانبية لهم ثم فكاهة مضحكة جميلة فى مشاهدة أنهم يعبرون إلى المنضدة الأخرى صامتين ونادمين ييأس عميق ولاشك مطلقا بأن التاجر فى تلك اللحظة يقول وهو ملىء بالفتور داخليا: حقا إننى ساحر وشيئا ما سيعجبك أنت أيضا ..."(١٦٣).

ولسوف تكتشف فى العبارات السابقة إلى أى مدى بلغ دهاء المصريين وحسن حيلهم وفهلوة بعض شرائح منهم استطاعت أن تجعل الرحالة أولياجلبى يصفهم بقوله: "أنهم مهرة قد حذقوا فمنهم إلى حد أن الواحد منهم يسرق العين من الكحل ويبقى الكحل مكانه ..." (١٦٤) كما استطاعت أن "تسرق النوم من العين" نتيجة كثرة التجارب(١٦٥) وما تميزوا به من لزوجة بين ما عندهم من: "بشاشة وملق وعندهم مكر وخداع"(١٦٦).

ولكن الغريب أن هذه الشخصية اللزجة الوجدان والسلوك سرعان ما تحولك من الغضب إلى الرضا أو الدهشة فمع: "أن أهل القاهرة – مثلا- مولعون بغش الغرباء وخداعهم فإنهم يعاقبون بصرامة من يطفف الكيل والميزان فالخبز يتم فحصه فإذا ما ثبت أن وزنه أقل من الوزن القانونى تم سحبه – أى الخبز – وتوزيعه على الفقراء ومعاقبة الخباز بضربه بالفلكه (القلقة) على قدميه الحافيتين بشدة"(١١٧) ،وقد شهد بذلك الرحالة جوزيف بتس بقوله: "وقد رأيت ذلك مرات عديدة لذا فإن بعض الخبازين يتركون خبزهم إن كانوا يعلمون أن وزنه أقل من الوزن القانونى ويجرون هاربين لتجنب العقاب البدنى .." (١٦٨).

كما أشار التاريخ إلى ما يلحق (بالزغلية) – أى المزيفون للنقود – من عقاب صارم فيذكر ابن إياس فى أحداث شوال ٩٢٨هـ أن: "والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة وعشرين إنسانا وخوزق منهم جماعة وعلقهم فى أماكن متفرقة وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم .." (١٦٩) ،ويذكر التاريخ أن إحدى النساء قد شنقت على باب زويلة لأنها سرقت بعض الملابس والأمتعة من أحد الحمامات(١٧٠). ويذهب البعض فى تفسير أسباب ما يلجأ إليه المصرى من حيل وألاعيب تصب فى خانة الخصم من رصيده الحضارى إلى أن: "تعليل هذه النزعة الدنيئة بأن المصريين رئموا للمذلة وصنوف الاضطهاد عشرة قرون كان الحكام فى خلالها يعاملونهم بالشدة والصرامة ويسومونهم خطة خسف ولما كان من المتعذر عليهم مع هذه المعاملة الجائزة أن يدرأوا مطامع أولئك

www.alkottob.com

الحكام عن أموالهم وأن يكفوا عنها أيديهم وهى عندهم أعز عليهم وأكرم من نفوسهم فقد تعمدوا الظهور فى سربال الفقر والعوز دفعا لما عساه أن يحيق بأموالهم من خطر السلب"(١٧١) فتأصلت فى: "أخلاقهم من الملق والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا"(١٧٢).

وبرغم ذلك فقد أضحى: "الفلاح وزوجته يعيشان فى عذاب متصل: فليس من حد يقف ادعاء الحياة ولا جشع رجال الإدارة واختلاسهم مال الأهالى أنهم قد ينتزعون من أسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم ومهما حسب الفلاح من حساب فلن يستطيع تدربى ما يضمن له المستقبل .." (١٧٣) فعندهم: "سرعة الخوف من السلطان"(١٧٤) والتى تولدت نتيجة الثقة المعدومة بين الحاكم والشعب وأدت بالمصرى إلى حيل المكر والخداع والنفاق مرغما متخليا عن كلمته – إلى حين – حتى لا يموت بالسيف لأنه يعلم أنه إذا عاش بالسيف مات بحذاء الحاكم ورموزه فكان لسان حاله: "نحن قوم لا نمل من النفاق إذا لم ننافق متنا".

وقد غذى الوجدان الشعبى تلك العلاقة بمجموعة كبيرة من الأمثال الشعبية التى تولدت نتيجة الغيط والنفور كان أبرزها: "افرحوا واتهنوا بقدومه جاكم بشومه"، "سيف السلطة طويل"(١٧٥)، "السلطة غول وقميصها كل حبتنا" " السلطة غول كلتنا لحم طب وإحنا عضم رمتنا"(١٧٦).

وقولهم "حاميها حراميها" كدليل على أن الحاكم لص كبير،

يتضح ذلك عند الجبرتى فى سياق أحداث سنة مائتين وألف: "أن الأمير حسن بك: "ركب بجنوده وذهب إلى الحسينية وهجم على دار .. متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى ونهبه حتى مصاغ النساء والفراش ورجع والناس تنظر إليه .. وفى صبحها يوم الجمعة ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل فى أمسه من حسين بك وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق وذهبوا إلى الشيخ الدردير .. وقال لهم: أنا معكم .. وتنهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنها ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم .. وركب الشيخ فى صبحها إلى إبراهيم بيك وأرسل إلى حسين بيك فأحضره بالمجلس وكلمه فى ذلك فقال فى الجواب: "كلنا نهابون أنت تنهب ومراد بيك ينهب وأنا أنهب كذلك" وانفض المجلس وبردت القضية"(١٧٧).

مما يعكس لنا ضعف فاعلية السلطة وتراخيها فى التصدى لمظاهر العنف والظلم الواقع على كاهل الناس، والذى يهدد أمنهم وحياتهم فى المجتمع، ويساعد على اهتزاز ثقة الناس فى رموز الحكم وخلق حالة من الخوف عان منه الناس، وعبر عنها الرحالة البغدادى بقوله: "ورأيت مع امرأة فطيماً لحيماً فاستحسنته وأوصيتها بحفظه فحكت لى أنها بينما تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها ... وبقى الولد مدة مريضا لشدة تجاذبه"(١٧٨).

فالمؤكد أن هناك شرخاً فى هذه العلاقة من الخوف والانعزالية

www.alkottob.com

وهو ليس وليد وقائع محددة أو فترة محددة ولكنه نتاج لتراكمات حدثت عبر فترة ممتدة من الزمن. وقد أخذت هذه التراكمات أشكالا مختلفة تبلورت فى معظمها حول قضية إهدار كرامة المصرى على يد الحاكم ورموزه من العسكر(١٧٩) وتفريغ مبدأ (إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين) (١٨٠) ،وإخلال الحاكم بمبدأ الإمامة القائم على خلافة شخص من الأشخاص للرسول (**ص**) فى إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة(١٨١) ،وتفريغ ذلك كله من مضمونه الحقيقى، فارتبط ذلك بعملية فساد وإفساد واسعة داخل حوزة الحاكم بكل قطاعاته وطوائفه تعددت معه وتكاثرت أشكال العنف وقسوة الحاكم ورموزه بل وارتبطت بها. فالإسحاقى المنوفى ينقل ما معناه: " ويقال أن ... القسوة عشرة أجزاء تسعة فى الترك وواحد فى سائر الناس ..." (١٨٢) ،خاصة وأن الترك باختلاف مشاربهم استخدموا الكثير من أنواع التعذيب فى مصر – والتى كانت سائدة آنذاك فى أماكن أخرى – مثل الخازوق والترسيم والشنق والصلب والخنق والضرب بالكرباج والسلخ ولجأوا إلى التشهير والتجريس وغيرها ... (١٨٣).

فمن لم يؤد ما عليه من ضرائب: "فيحبس فى الـ "أرقحانة" ويعذب بأنواع العذاب ويربط بالبكرة فى ديوان الغورى ويعلق من يديه ويجرد من ثوبه ثم يجلده الجلادون بسياط من جلد الفيل جلدا "اللهم عافنا" يعلمه من قاساه ..." (١٨٤) أو أن يدخل ما يقرب من: "مائة رجل ومعهم مسلم طرحوه أرضا وأخذوا فى جلده وضربوه بالعصى مائتى ضربة على بطنه وكتفيه .." (١٨٥).

ومن المشاهد الباكية الضاحكة التى نقلها لنا ابن إياس وتكشف عن بعض ملامح العنف وقسوة الحاكم ورموزه ما كتبه عن "خاير بك"، حيث: كان جبارا عنيدا عسوفاً سفاكاً للدماء شنق ووسط وخوزق من الناس جماعة كثيرة واقترح لهم أشياء فى عذابهم فكان يخوزقهم من أضلاعهم ويسميه شك الباذنجان ..." (١٨٦) ،ويقول الجبرتى عن الأمير سليمان بك المرادى: "كان ظالما غشوما، ويعرف "بريَّحه" بتشديد الياء وسبب تسميته بذلك أنه كان إذا أراد قتل إنسان ظالم يقول لأحد أعوانه: (خذه وريَّحه) فيأخذه ويقتله"(١٨٧) وأضحى المصرى كليمونه جافة امتصها بشر شرهون وأيام أكثر شراهة.

إن عنف وقسوة الحاكم ورموزه جعلت فى أجساد بعض المصريين لها مناعة ضد أعمال الخوزقة والضرب بالكرباج والسلخ وكأنهم يستعذبون الألم أو يسخرون منه يأسا أو تفكها مريرا من صيرورة أحوالهم بحيث يستطيع الباحث أن يرى صورة حقيقية لمدى ما يتركه رموز الحكم من آثار على حياته فالمصرى يكره الحاكم فى كل صورة حتى أدناها ويكره الإدارة والقوة التى تسلبه حريته وقوته وكرامته وحياته(١٨٨) ولكن لم تسلبه تلك اللزوجة ما بيت التبكيت والتنكيت ولقد أعطى الرحالة أولياجلبى صورة لاستهتار المصرى بالحاكم وسيفه الظالم ويكملها بالاستهانة بالعذاب الواقع على كاهله لدرجة لا تملك معها سوى أن تقول: "شر البلية ما يضحك!!" فيذكر (أولياجلبى) فى سياق وصفه لـ (جرأة جبابرة مصر) على حد قوله: "من الغريب أن لصا من فلاحى مصر أخطأه الحظ ... واستيقن من

www.alkottob.com

قتله فأعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة أكياس نقدا طالبا إليه إيصاله إلى مكان القتل بالقاهرة بموكب كموكب قائد فلا يكاد هذا الرجاء يصدر منه حتى يقبله الكاشف فيتسلم منه الأكياس ويسلمه للجلادين الذين يذهبون به إلى ميدان "السياسة" – الإعدام – ويصلبونه ثم يسلخون جلد ظهره إلى صدره وجلد صدره إلى ظهره وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال والرباعيات متفاخرا بمن قتلهم وصلبهم ويتحمل كسر الجلادين ليديه ورجليه دون أن تصدر منه آهة. هكذا يسلخون جلده كله من جسمه ويحشونه بالتبن ثم يلبسونه جيفته الدنسة ويركبونها حصانا ويذهبون بها إلى ديوان مصر منادين صائحين مهللين بأن الحرامى الفلانى!!! أنه لمنظر غريب وبتلك الطريقة تحصل الأموال السلطانية"(١٨٩).

وصورة أخرى نابضة بالظلم ينقلها لنا الجبرتى بقوله: فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائة وألف: "وقعت فتنة بين عربان البحيرة وحضر منهم جماعة إلى إبراهيم بيك وطلبوا منه الإعانة على خصومهم فكلم مراد بيك فى ذلك فركب مراد بيك وأخذهم صحبته ونزل إلى البحيرة فتواطأ معه الأخصام وأرشوه سرا فركب ليلا وهجم على المستعينين به وهم فى غفلة مطمئنين فقتل منهم جماعة كثيرة ونهب مواشيهم وإبلهم وأغنامهم ثم رجع إلى مصر بالغنائم ..."(١٩٠).

فلقد كان اتجاه بعض أصحاب الملل إلى اختراق رموز الحكم بالرشوة والبرطلة واستغلال ذلك لتحقيق مصالح خاصة بهم غالبا ما تكون على حساب إهدار حقوق آخرين هى ظاهرة شبه عامة ترتب عليها اهتزاز ثقة الناس فى رموز الحكم وخلق حالة من الخوف لدى

الناس من التعامل معهم ولا تتوانى قريحتهم فى تغذية هذا الشعور بمجموعة من الأمثال مثل: "فر من السلطان فرارك من الأجرب"، "جبناك يا سلطة تحمينا حميَّتى النار وكوتينا(١٩١) ويدل كل ذلك على وجود شحنات مكتومة من الغضب لدى الناس ضد رموز الحكم. كما أثبتت التجارب التاريخية أن المصرى البريء الذى يتم معاقبته جزافا غالبا ما يتحول إلى ناقم على السلطة برمتها فساهم ذلك فى تعميق الروح الثأرية بين الناس والحاكم ورموزه ويتجلى ذلك عند الجبرتى بقوله: "وقع قبل ورودهما بأيام فتنة بالإسكندرية بين أهل البلد وأغات القلعة والسردار بسبب قتيل من أهل البلد قتله بعض أتباع السردار فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه بالنعالات ..." (١٩٢).

ويقدم لنا صاحب (بدائع الزهور) صورا حية من إصدار الأحكام التعسفية وإلزام الشعب بتنفيذها الأمر الذى كان يدعو المصرى إلى السخرية من تلك الأحكام التى ظلت مثار فكاهات وسخريات شعبية(١٩٣) .ففى سنة ٩١١هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب الدريس الذى يكون فى بيوت الأتراك وكانت المماليك قد أكثرت من خزن الدريس فى هذه السنة وصارت المماليك يمسكون الناس فى الطرقات غصبا ويحبسونهم عندهم أياما بسبب نقل التدريس وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك حتى صنف العوام رقصة تصحبها منظومة شعبية ساخرة مطلعها: "اهرب يا تعيس :. وإلا يحملوك الدريس"(١٩٤) كنمط من أنماط العنف الاحتجاجى السلبى.

www.alkottob.com

ومعه تواتر هروب المصريين من قراهم ومدنهم ففى أحداث سنة ٩٢٧هـ-١٥٢٠/م يقول ابن إياس: "وأشيع أن الديوان مشحون غاية الانشحات وأن ملك الأمراء عليه نحو ستين ألف دينار دينا والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الأول أربعة أشهر معجلا من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة القبطية قبل أن يفى النيل ويزرع الفلاحون وتروى الأرض. فحصل للفلاحين غاية الضرر من ذلك ورحل بعض الفلاحين من البلاد السلطانية من الظلم والجور ...(١٩٥).

ويبدو أن عنف المطاردات بين المصريين الهاربين عن عبء السلطة والضرائب وقسوة انتقام الملتزمين منهم قد دفعت الفلاحين المصريين إلى خارج مصر كلها، ويذكر الرحالة فولنى الفرنسى أنه شاهد المصريين فى سوريا سنة ١٧٨٥م أفواجا وجماعات، وقال إن أزقة صيدا وحيفا وسائر مجن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين، وقد توغل فريق منهم فى اتجاه الشمال حتى حلب وديار بكر ..."(١٩٦)

ولم تتوقف المظالم التى يتعرض لها المصريون عند حدود الضرائب الباهظة والعمل القسرى أو العمل سخرة وبلا مقابل والتى كانت: "داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين فهم دائما فى تعب وكدر وغرامة وسخروهم زائد"(١٩٧) ،بل كانت تتعرض بيوتهم وقراهم للنهب الدائم والمستمر من جحافل المماليك المتقهقرة(١٩٨) ،ولقد ترتب على هذا النهب المصاحب بالقسوة والعنف المبالغ من المماليك أو الكشاف والملتزمين أو العربان أن أصبح المصرى يتوجس ويرتاب من كل الغرباء(١٩٩).

وقد لاحظ الرحالة الفرنسى سونينى تلك الظاهرة فيذكر: "عند اقترابنا من احدى القرى المصرية تعرف أهل البلدة أشتاتا وأختبأوا وأغلقوا الأبواب من دونه ظانين أننا إما من رجال الكاشف أو من البدو وأننا نحمل عليهم بغرض نهبهم وصادفنا صعوبة بالغة فى إقناعهم بضيافتنا وحين لبوا الدعوة وفتحوا أبواب ديارهم لم أعقل لماذا لمن هم فى مثل حالتهم الرثة أن يخاف على نفسه من السرقة أو السلب فلقد ظهروا أمامى وكل ما فى معيشتهم فى حالة فقر مدقع وبائسة"(٢٠٠) وهكذا أصبح المصرى "زى قواديس الساقية مشنوق من رقبته ورجليه" وأصبح الشعب المصرى يسير فوق ساقين كسيحتين حتى أضحى تحت وطأة التعسف والفقر والجهل يزحف على بطنه. وعند ذلك: "ينقلب الفلاح تنينا ذا سبعة رؤوس ليس له عمل ولا أرض مزروعة يرتبط بها ويزيد لذلك عدد الأشقياء المسلحين بالنبابيت"(٢٠١).

كان الفساد والقهر – المنتشر أفقيا فى النسيج الاجتماعى ورأسيا من قمة السلطة لأدناها – فيه مقتل للشخصية المصرية حيث يتمثل دعوة مبكرة للتخلى عن كل القيم والمثل والتحول للنفعية(٢٠٢) الفردية بالطرق غير الشرعية إلى حدة سيادة السخرية من قيم المروؤة والشهامة والكرم والنيل والإيثار ورد الجميل التى أنتجتها ثقافتنا الإسلامية العربية وظلت لصيقة بمجتمعنا بدرجة أو أخرى إلى أن لاحقها التفسخ والتشويه تحت وطأة الظلم والقهر والفقر والإحساس الحاد بهم وعجز المصرى عن التوصل إلى نصيب عادل من وسائل العيش فلجأ بعض أهل مصر إلى العنف والتمر والغش

www.alkottob.com

الذى انعكس ذلك كله فى وصف الكثير من المؤرخين لأحوال أهل مصر وظهر لديهم التلوث العاطفى بشكل واضح فى سياق حديثهم عن أخلاق المصريين.

فنجد الرحالة العبدرى – فى القرن السابع الهجرى – ينعتهم بقوله أنهم: "أهل الشقاق والنفاق والعناد والإلحاد استولى الحسد على قلوبهم واستوى الغش فى جيوبهم .. تراضعوا لبان اللؤم وتحالفوا لا وجد منا افتراق فجوادهم "أبخل من الحباحب وشجاعهم أجبن من صافر الجنادب وعالمهم أجهل من فراش ... من أظهر منهم نسكا فأحبولة نصبها للصيد"(٢٠٣).

وكأن تلك الصفات من المكر والخديعة لدى بعض الناس هى فى الحقيقة نتيجة ظروف تاريخية ووسيلة حماية مقصودة فهى إذن تتصل بالتطور التاريخى للبلاد وهذا يزيد فى أهميتها بوصفها جزءا من تطور الظروف السياسية والاجتماعية لمصر(٢٠٤) يعود فى أحد أسبابه إلى عوامل القهر والإذلال التى أدت إلى بؤس أحوال المصريين وتراجع القيم الأصيلة وتاكلها ،ومن أسف أن ذلك تم لحساب قائمة أخرى من القيم المادية التى تحولت بمضى الوقت إلى قيم مركزية فى مجتمعنا، كما أن الفساد وما يتبعه من تفسخ وتشويه لميزان القيم عدو للمصريين، حتى وإن استفاد منه بعضهم، وهو ما أعطى المؤرخين الحق فى القول: " ومقابل ذلك فهم قادرون على القيام بأفعال تتسم بالكرم سواء كان ذلك فى صورة تقديم المال أم العفو مما يلحق بهم من أضرار"(٢٠٥)، "أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعا وهى حرية بالذكر والإطراء الآن فالمسافرون

وعابروا السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين فى كل زمان ومكان صدرا رحيبا ومثوى كريما"(٢٠٦).

وقد أشار بعض المؤرخين والرحالة إلى تلك اللزوجة فى أهل مصر بقولهم: "تحت تأثير الضغط والعسف تراهم فى الأحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للأخطار أو اقتحام غمارها ولكنهم إذا نزل بهم نازل أو تهددهم خطر لا تلبث الشهامة الكامنة فى نفوسهم أن تهب من سباتها(٢٠٧).

وتشير المصادر التاريخية إلى ما طبع عليه أهل مصر من قيم وأخلاق سامية تدعو إلى الدهشة وهى قيم ارتبطت بجذورها العربية والوطنية فى آن واحد لتنسج وشائج تعكس درجات عالية من السمو الإنسانى الذى يتجه إلى الآخر إما فداء له أو وصلا ومحبة وحنوا عليه وكلها وشائج ترتفع بالسلوك الإنسانى وتجعل لوجوده وحياته معنى وقيمة مضافة إلى مجتمعه ناهيك عن أنها تخرجه من منظومة الأنانية والبخل والجشع والتى تطرد تلقائيا كل معانى القناعة التى جبل عليها المصرى منذ نعومة أظافره ولا تدع مجالا لمفهوم الكرم والإيثار الذى سيبدو بالنسبة لكثيرين أمرا غير قابل للتصديق.

ومن كان يصدق أن مارية القبطية صاحبة قرية (طاء النمل) أنها عندما دعت الخليفة المأمون إلى قريتها "جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته؟. فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل

www.alkottob.com

ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن أبى داود فأحضرت لكل منهم ما يخصه على انفراده ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى إنه استعظم ذلك"(٢٠٨).

وهكذا كانت صفة الكرم والإيثار لصيقة بالمجتمع المصرى بدرجة أو أخرى، حتى اشتهر البعض منهم أنهم ليفون للناس بواجب الولاء ويقومون بضمانهم ولو أدى ذلك إلى انتزاع أموالهم وفقد ضياعهم وأملاكهم ولدينا أسر كثيرة هوت إلى هوة الفقر من جراء ذلك ولكن بيوتها لا تزال تنطق بالفخار لهذه الأسر العريقة فى الكرم والوفاء حيث آثروا غيرهم بالثراء الذى حققوه حين نشب الغلاء وحدث الجدب والقحط فى مصر ذات مرة فهب (طريف بن مكنون) يمد الموائد فى مضيفته لتتسع لاثنى عشر ألفا يأكلون عنده كل يوم، حتى اضطر إلى أن يهشم الثريد فى المراكب ويا لعمرى لهذا الكرم البالغ الذى عرف وقت الشدة والضيق، حتى ليخال لنا أن تلك المراكب كانت تنتقل بثريدها ولحومها عبر الخلجان والترع لتمير البطون الخاوية(٢٠٩).

وقد أشاد الرحالة النعمانى بأخلاق وعادات أهل مصر وكرمهم معه وأضاف: " أن هذا كان يحدث بلا غرض وبدون مقابل فقط من أجل الضيافة وإكرام الفقراء ومن المستحيل ذكر جميع تلك الأحداث الجزئية التى تدل على كرم أخلاق هؤلاء الناس معى(٢١٠) ولما لا: "فأهل مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا"(٢١١) على حد قول شهاب الدين النويرى. والحقيقة أن لكل بلد محاسن ومعائب وفضائل

ورذائل وكمالا ونقصا وإنما تخفى مكارم الآخرين علينا لعد البحث والتنقيب والإمعان والتدقيق(٢١٢) ،ولعل نماذج صاحبة (طاء النمل) وطريف ابن مكنون تشى لنا أنه لا يزال فى مصر صفوفا خلفية وحلقات وإن صغرت لا تزال تحتفظ بعذريتها الحضارية إذا جاز التعبير وأننا لم نصل إلى درجة العقم الحضارى بما ألفه الناس من أهل مصر "فإنهم يصدقون ويرعون الصحبة ويوفون بالعهد ويؤدون الأمانة لا تبرح الأضياف تغشى منازلهم على ما تيسر من مكارمهم فى حال اليسر والعسر وهم فى ذلك على طول الأيام لازمين طريقة واحدة فى الكرم والصبر!!" (٢١٣) ،كما أنك ترى: "الفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها"(٢١٤) ،وحسبنا ما كتبه (ابن خلدون) عن عطف أهل مصر على الفقراء والغرباء لدرجة تدفع بفقراء العالم للنزوح إليها بقوله :" ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب منى إن كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثارا من جميع أهل الأمصار"(٢١٥) ،وقد وصف ابن جبير ذلك (فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) بقوله: "ومن مناقب هذا البلد .. المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسا يعلمه .. ومن أشرف هذه المقاصد أيضا

www.alkottob.com

أن السلطان عين لأبناء السبيل من هؤلاء المغاربة خبزتين لكل واحد فى كل يوم بالغا ما بلغوا ... فقد ينتهى فى اليوم إلى تفريق ألفى خبزة وأزيد (٢١٦).

فمنح الصداقات لم يتوقف أبدا عن كونه عملا من أعمال التقوى فى القاهرة زمن المماليك – على سبيل المثال – ومن سوء الحظ أن ما نعرفه قليل عن أعمال الخير التى كان عامة الناس يقومون بها وكما هو الحال فى دفع الزكاة كانت أعمال الخير الصغيرة هذه تتم دونما ضجة ولم تخلف أية سجلات مكتوبة يستخدمها المؤرخون مادة وثائقية إلا فى حالات الأشخاص الذين اشتهروا بتقواهم الفائقة وكانت أعمالهم الخيرية تسجل أحيانا لكى يوضح بها المؤرخون طيب خلقهم(٢١٧) ،وثمة شخص من أصحاب الإسهامات الأسطورية هو الحاج على بن محمد النوسانى (ت ٧٩٩هـ١٣٩٦/هـ) الذى كان مدرسا فى بلدة سندفا بالغربية وقد كان رجلا ثريا بالمقاييس الريفية ترك ألف جاموسة لورثته وكان مشهورا بأنه يتصدق بألف درهم يوميا، كما نجد أحد الأتقياء وهو الصوفى الشيخ مسلم بن عنتر البدوى (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) والذى كان لصا تائبا إلا أنه صار من مريدى شيخ الطريقة الرفاعية وتسبب فى توبة ستمائة لص وسكن القرافة حيث أقام سماطا كان يحضره الفقراء(٢١٨).

فالمصريون هم الأكثر وطنية: " فلا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد فى حب مسقط رأسه كالمصريين فإن المصريين لا يجدون معنى ولا لذة إذا ابتعدوا عن الفيل الذى يطفئ ماؤه أوار عطشهم ويرون أرضهم أو حرموا النحيل التى يكفى أن يهزوا اليهم

بجذعها ليساقط عليهم ثمرها فلا يتكبدون فى أكله أقل كلفة"(٢١٩)؛ ،ولذا فإن: "أهل مستغنون عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيه عن سائر بلاد الدنيا .." (٢٢٠) لما فيها من بركة: "فالبركة عشر بركات: ففى مصر تسع وفى الأمصار بركة واحدة ولا تزال بمصر بركة ما دام فى شىء من الأرضين بركة"(٢٢١).

وربما من أجل هذا كله يرى المصرى أن الأرض التى خرج منها ورأى الحياة عليها ينبغى عليه أن يعيش فيها ويموت عليها(٢٢٢) ويقول لين: "ويعتبر حب المصريين لوطنهم وعلى الأخص مسكنهم صفة بارزة فى طباعهم ويخشى المصريون على العموم هجر مسقط رأسهم..." (٢٢٣) ويتذرعون فى ذلك بما قيل من أنه: "من أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه دقة وحسنا ..."(٢٢٤) فهى: "بقعة من عند الله مباركة طيبة لا شرقية ولا غربية"(٢٢٥).

واستشعر المصريون شخصية بلدهم المتفردة فساعد ذلك على تقوية ارتباط المصريين بأرضهم ووجودها ونبهوا إلى بعض سماتها المميزة كابن رضوان المصرى الذى يدرس بيئته فيكتب (مقالة فى هواء مصر)(٢٢٦) وثان هو ابن جميح الذى خدم الملك الناصر صلاح الدين والذى كان له نظر فى العربية وتحقيق للألفاظ اللغوية يدرس حيزا من بيئته فيكتب (رسالة فى طبع الإسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها) (٢٢٧) وثالث يصف مدينته ويشيد ويفاخر بموقعها البحرى والحربى وبمكانتها الصناعية الاقتصادية وهو (ابن بسام المحتسب التنيسى) فى كتابه: "أنيس

www.alkottob.com

الجليس فى أخبار تنيس" يصف فيها أرباضها وخططها ومساجدها وفنادقها ومصانعها وأهليها وصنعا تفصيليا دقيقا يعطى صورة حية واضحة لحبه لمدينته فى أحسن حال من حالات عمرانها(٢٢٨).

أما المقريزى فمن حسن القدر أنه عاش حتى بلغ الثمانين من العمر عكف فيهم على حب مصر ومدافعا لها وراميا عنها بأقوى الحجج وأبرع الأدلة فى فضلها وحفاوة تاريخها وأعلن عن دوافعه من وراء ذلك كله فى مقدمة خططها بقوله: "وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره وعشر مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره لازلت مذ شذوت العلم وآتانى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الأشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مسائلة الركبان عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرباتها أهاب .... فأردت أن ألخص منها أبناء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية..."(٢٢٩).

وبرغم ذلك الحب فإن المصريين هم الأكثر هجرة وتغرباً تحت وطأة اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهم، وقد: "ظل ذلك الأمر حتى دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم أختلت أحوالهم وتمزقوا كل ممزق وحلوا عن أوطانهم فقلت مجابى البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة عليم وعلى من بقى منهم"(٢٣٠) "لأن العدوان على

الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ... فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وخف سكان القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان"(٢٣١).

وأنت فى مصر ستكتشف أن اللزوجة هى مناط الشخصية المصرية ولما لا فهى: "مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها"(٢٣٢).

وأنت فيها تستطيع أن ترى: "ملل وأجناس مشهورة حيث يمكن أن يشكل ذلك مسرحا لاستقصاء دقيق مساعد جدا لدراسة عالم علم الإنسان ..." (٢٣٣) ففيها: "أسواق لجميع الأمم يؤمها التجار من المماليك النصرانية كافية ..."(٢٣٤) ناهيك عن أن سكان مصر: "أخلاط من الناس مختلفة الأصناف: من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافهم"(٢٣٥).

وقد أرجع الرحالة الأندلسى – المتوفى سنة ٥٢٨هـ – هذا الاختلاف واللزوجة فى المصريين بقوله: "إن السبب فى اختلافهم والموجب لاختلاطهم، اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها ..."(٢٣٦) ،فمصر على حد قول الإدريسى: "عامرة بالناس نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة .." (٢٣٧) "وأهل مصر وذواتها أرق نفوسا وأشح الناس على

www.alkottob.com

أموالهم وأكثرهم خيرات ..." (٢٣٨) " ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الأجناس التى تضطرب فى تلك الشوارع المزدحمة فهناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة"(٢٣٩) "وفيها من الأمور والأحوال ما لا يعده الحصر والقياس من كثرة الخلق وازدحام الناس"(٢٤٠) واسم: "مصر فى الكتب السالفة "أم البلاد(٢٤٨).

لأن فى "مصر من العلوم التى عمرت الدنيا ... فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤها الذين ورثوا الحكمة من مصر خرجوا و بها ولدوا ومنها انتشرت علومهم فى الأرض .. وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأول طلبة العلم وأصحاب العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة"(٢٤٢) وربما لهذا يسمون مصر "أم الدنيا" ولا يسمونها "أبو الدنيا". هى أم الدنيا لأنها الرحم الذى لا ينضب بل يصدر أولاده إلى البلاد العقيمة دون وصاية من أب !! ولما لا "فمسكن النقباء الغرب ومسكن النجباء مصر"(٢٤٣).

بيد أن الرحالة (أولياجلبى) أرجع: "السبب فى تسمية مصر بأم الدنيا أنها تحتوى على جميع أجناس الخلق وأنواع الأمم التى يبلغ عددها اثنين وسبعين أمة تتكلم بمائة وأربعين لغة كما تشتمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق فضلا من الله ومنه .. وما ذلك إلا أن كثرة أهالى مصر وسكانها من الفلاحين أعنى أنهم من أهل الكد والعمل الشاق ومعاناة الأهوال فى سبيل إسعاد الغير إذ أن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر فى بحبوحة من الخيرات والخصب وعلى جانب عظيم من النعم ورغد العيش الذى يتمتع به الناس والحيوان

فلأجل هذا سميت مصر بحق (أم الدنيا) كالأم الرءوم تعنى بجميع أركان الدنيا وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها..." (٢٤٥) ،فهى: "تمير الحرمين الشريفين ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما ولما توصل اليها من يرد من أقطار الأرض"(٢٤٦) كما: "أن القحط والغلاء إذا عما الدنيا كلها وسادا فيها فإن مصر هذه تمون الدنيا حسبما خلقها الله لهذا الغرض وبالعكس إذا أصاحب القحط والغلاء مصر فإن محصول ألف مدينة لا يكفيها حاصلات الدنيا كلها"(٢٤٧).

وهكذا كانت عناصر الموروث الشعبى التى تتناول شخصية المصرى وحياته مرآه تضيء الخبر التاريخى عن جوانب الحياة فى مصر اقتصاديا وسياسياً واجتماعيا وفكريا ..

وختاماً...فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد. فى دراسة وتحليل المصادر التاريخية المتعلقة بمصر وآثارها القديمة والحديثة، على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية لا نزال نرفضها فى البحث،ولا نعتمد عليها، بالرغم أنها كانت هى التاريخ الذى يصدقه آلاف وآلاف من الناس – عامة وخاصة – والتى كانت هى التاريخ الذى عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممن يفوقون قراء الكتب العلمية عدداً وإيماناً بصدق التاريخ... فلنبدأ.

www.alkottob.com

الهوامش

١ – ابن بسام(محمد بن أحمد التنيسى): أنيس الجليس فى أخبار تنيس (تحقيق: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٤٠ .

٢ – أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص٣٩٣ .

٣ – لعب سحر الخرافة عند المصريين القدماء دوراً كبيراً فى الحب، فإذا أراد الرجل أن يستميل قلب امرأة كان عليه أن يستعمل تماثيل مصنوعة من شمع العسل صورت فى هيئة المنافس ويجرى عليها أعمالاً سحرية فإذا حدث من مفعولها الأمل المنشود كتبت بعض صيغ سحرية تحدث عند المرأة أحلاماً يظهر فيها العاشق فتخضع لسلطانه وتهيم به (وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم، القاهرة ١٩٦٧م) ص٢٧ .

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٦٦، القزوينى: عجائب المخلوقات، ص١٣٤؛ المسعودى:مروج الذهب، ج١ص١٢٣ .

٥ –أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت٨٧٤هـ):منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (ج٢بمنشر وليم بير 'كاليفورنيا١٩٣١م),ص٥٤بم٥٥؛سعيد عبد الفتاح عاشور :المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك(دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢م) ص١٤١–١٥٥ .

٦– سعيد عبد الفتاح عاشور :المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص١٥٠ .

٧– من سيدات مصر اللاتى لعبْن دوراً فى حياة مصر السياسية سيدات القصر الفاطمى كتدبيرهن مقتل الصالح طلائع بن رزيك . والاستغاثة بجيش نور الدين، ومن ذلك ما قامت به شجر الدر التى حكمت مصر ثلاثة شهور . وترجم العماد الأصفهانى فى خريدة القصر وجريدة العصر لأديبات

مصريات، وذكر نماذج من أشعارهن . وذكر الأدفوى تراجم لأربع نساء هن: تاج النساء ابنة عيسى بن على بن وهب، وخديجة بنت على بن وهب، رقية بنت محمد على بن وهب، مظفرية بنت عيسى بن على بن وهب فى مقدمة الطالع السعيد للأدفوى، نقلاً عن أحمد سيد: الشخصية المصرية,ص١٩٧ .

٨ – الوشم الذى يزين به بعض العامة أيديهم وصدروهم وشفاههم ووجوههم لم يكن فى يوم من الأيام ضرباً من العبث، وإنما يعود إلى التاريخ القديم عندما كان الناس يعيشون فى حياة بدائية يقدسون فيها بعض الحيوانات ويخشون فيها من بعض مظاهر الطبيعة كالموج والرياح والمطر والرعد، ويدخل الوشم فى إطار عقيدة الطوطم Totem أو النظام التوتمى Tote-mismeوكلمة طوطم تطلق على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه عشيرة ما رمزاً لها ولجميع أفرادها، ولقد مارس المصريون القدماء الوشم فى ظل دياناتهم القديمة وربطوه بها ربطاً كبيراً كما أنهم فوق ذلك اتخذوا من رسومه وسائل للزخرفة والتجميل، ولم يقتصر أمر الوشم لدى المصريين على التجميل فحسب فقد كان أيضاً وسيلة علاجية لبعض الأمراض، كما ظن أنه يمنع الحسد . فللوشم دلائل كثيرة تختلف باختلاف الشعوب والحضارات والثقافات المختلفة . وقد يحمل الوشم أحياناً معنى دينياً، فنقش الصليب على معصم اليد اليمنى عند الأقباط المصريين يسمح لهم بالتعارف فيما بينهم داخل الجماعات المسلمة، وظل بشكل عام سمة للتعارف عند أقليات الشرق الأوسط كما يوجد الوشم العاطفى أو الجنسى الذى يستعمل رقية ضد أعمال السحر، أو تعويذة تقى من الحسد، واشهر الأمثلة على ذلك الوحدة المثلثة الشكل التى لا تزال تستعمل فى أيامنا هذه فى شكل حجاب وكذلك ما يسمى الآن خمسة وخميسة ما هى إلا بقية من معتقدات شعبنا فى الماضى البعيد، كما أن العدد خمسة وخميسة هذا له دلالة سحرية اتخذه العامة وسيلة وقائية فى قولهم " خمسة وخميسة فى عين الحسود" وهى تعنى اليد والأصابع الخمسة حيث يرفعها المرء فى وجه العدو أو الشخص الذى يخشاه كأنه يقول :"حوش يا حواش ". تلك هى بعض الرموز المصطلح عليها كما أن هناك وحدات تستعمل إلى الآن فى الوشم ويرجع

www.alkottob.com

تاريخها إلى المصرى القديم ؛ كالنخلة والسمكتين، والأفعى، والعقرب، والعصفور الأخضر .انظر/سوسن عامر :الرسوم التعبيرية فى الفن الشعبى (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م) ص١٩؛ عبد الله نور الدين وهبة :الوشم فن وسحر وجمال، مجلة الفنون الشعبية العدد٦٨/٦٩ القاهرة ٢٠٠٦م)، ص١٨٩ .

٩ – أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص٢٠٠ .

١٠ – لم تقتصر عادة الوشم على النساء فقط بل قام بعض الشباب والغلمان بدق الوشم على الأصداغ فيذكر الإسحاقى المنوفى عن حادثة تعرض أحد الغلمان للتحرش:"إذا كنت للتعنيق والبوس كارهاً، فلا تمش فى الأسواق إلا منقباً، ولا تخرج الأصداغ من من تحت طرة، وتظهر منها فوق خديك عقرباً,فتهتك مستوراً وتتلف عاشقاً".انظر :الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول ص٢٨ .

١١ – العقرب :الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتى الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة . وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات، وهو الملك العقرب وكان العقرب إلهاً عبد بأسماء مختلفة كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أى نوع من الزواحف، ووردت فى أساطير مصر القديمة حيث تجرأت العقارب التى هى أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة، على أن تلدغ الألهة ولكن الآلهة كانوا أقوى من السم واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة .چورچ بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص٢٣٤ .

١٢ – للثعبان أو الحيَّة دون سائر الحيوانات الأخرى تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلوا أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها ؛ أنها تمتلك العشْب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون فى كل من يحاول إيذائها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطاً وثيقاً لانتمائها إلى عالم آخر، ويفوق طاقة الإنسان . أحمد النعيمى :الأسطورة فى الشعر العربى قبل الإسلام، ص١٨٠؛كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دوراً هاماً فى الموروث الشعبى حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان كما تقوم بمطاردة

من يمثلون الدنس فى الجماعة، وتروى الحكايات الشعبية الحكايات عن الحية التى تحرس مسجد البيومى بالحسينية وأفعى الشيخ هريدى فى صعيد مصر، وهو أحد الأولياء فى أقاصى الصعيد ويستمد هذا الولى شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده،شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض فى جسد الشخص، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض،ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعى الذى يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة فى القاهرة . ثناء أنس الوجود: رمز الأفعى فى التراث العربى (سلسلة ذاكرة الكتابة، القاهرة ١٩٩٩م)،ص٧٧– ٧٨ .

١٣ – القاضى الفاضل: الديوان (الجزء الأول، تحقيق أحمد أحمد بدوى، القاهرة ١٩٦١م)،ص٧٨؛ نقلاً عن أحمد سيد: الشخصية المصرية، ص٢٠١.

١٤– ابن الحكم: فتوح مصر، ص٤٨، ص٤٩، المقريزى: الخطط، ج١، ص٧٩ .

١٥ – المقريزى: الخطط، ج١، ص٧٩ .

١٦– المقريزى: الخطط، ج٤، ص٤٩٢ .

١٧ –الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٣٤، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٨ .

١٨ – تعد قصة (مصرع الزباء) واحدة من نماذج أساطير العرب التى تواتر ذكرها بين الناس، والتى اعتمدت دون ريب على جزء من التاريخ ثم مزجت هذا التاريخ بالخيال، وملخصها إنه كان جذيمة قد ملك ما على شاطئ الفرات، وكانت الزباء ملكة الجزيرة. وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها فكتبت إليه: إنها لم تجد مُلكُ النساء إلا قبحاً فى السماع وضعفاً فى السلطان، وإنها لم تجد لملكها موضعاً ولا لنفسها كفئاً غيرك، فأقبل إلىَّ لأجمع ملكى إلى ملكك وأصل بلادى ببلادك، وتتوالى الأحداث وتقتل الزباء جذيمة بطريق الحيلة،وتثأر لمقتل أبيها وقام (عمرو بن عدى) ابن أخت جذيمة يثأر لمقتل خاله، وحاولت الزباء أن تهرب فأبصرت عمراً فعرفته فمصت خاتمها وكان فيه سم وقالت (بيدى لا بيد عمرو). انظر إلى عبد الحليم محمود: القصة العربية فى العصر الجاهلى، ص١٤٩– ١٥٢ .

www.alkottob.com

١٩- ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٤٩١- ٤٩٢ .
٢٠ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٩ .
٢١ – المقريزى: الخطط، ج١، ص٨٠ ؛أوليا چلبى:سياحتنامه مصر، ص٥٦٦ .
٢٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٤٢ .
٢٣ – ابن الحاج (أبو عبد الله محمد العبدرى) (ت ٧٣٧هـ) :المدخل إلى الشرع الشريف (الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار التراث، القاهرة، د.ت) ص٢٦٧.
٢٤ – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٢٠٤ .
٢٥ –المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٩ .
٢٦ – أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص ٣٩ .
٢٧ –المصدر نفسه، ص ٣٩ .
٢٨ – أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص٤٠ .
٢٩ – ابن الحاج: المدخل، ج١، ص ٢٧٨ .
٣٠ – العينى (محمد بن أحمد) (ت ٨٥٥هـ): الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر (تحقيق هانس أرنست، الطبعة الأولى دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦٢م)، ص٤٠ .
٣١- يعلق اليعقوبى على مهارة أهل مصر فى التنبؤ بالمستقبل فيقول :"يقولون أن أنبيائهم كانت تكلمهم الكواكب، وتعلمهم أن الأرواح تنزل إلى الأصنام، فتسكن فيها، وتخبر بالحادث قبل أن يحدث .. وكانت لهم فطنة عجيبة ودقيقة يوهمون بها العوام أنهم يكلمون الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث، ولم يكن ذلك إلا لجودة علمهم بالأسرار التى للطوالع، وصحة الفراسة، فلم يكونوا يخطئون إلا القليل ؛ وادَّعوا علم ذلك عن الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث، وهذا باطل وغير معقول ". اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الأول، ص١٨٨ .
٣٢- المقريزى: الخطط، ج١، ص٤٩ .
٣٣ –ابن محشرة: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص٥٣ .
٣٤ – المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٣٩ .
٣٥ – أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص٢٤ .

٣٦ – فاروق خورشيد: معادن الجوهر، ص ١١٨ .
٣٧ – قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ١٩٩٣م)، ص٢٠٢ بم٢٠٣ .٣٨ – يذكر ابن إياس فى (حوادث سنة ٧٥٨هـ) :"فى شهر رجب هبت رياح عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة شديدة ... حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت، وصار يودع بعضهم بعضاً " ؛ وفى (حوادث سنة ٩٢٨هـ) يشير ابن إياس :"أن شخصاً ادعى أن فى يوم الجمعة من شهر ربيع الآخر عام ٩٢٨هـ يثور على الناس رياح عاصفة وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها الدور وتقبض الناس وهم فى صلاة الجمعة، فانتشرت هذه الشائعة فى القاهرة وانطلقت ألسن الناس بذلك قاطبة، فاضطربت القاهرة لهذه الشائعة وصار الناس يودع بعضهم بعضاً ".انظر ابن إياس :بدائع الزهور، ج٥، ص٤٤٠ . ويعلق (ستانلى لينبول) بقوله :" إنه من الواضح أن أهل القاهرة كانوا يؤمنون بالخرافات ؛فقد حدث فى عام١٧٣٥م أن انتشرت إشاعة فحواها أن يوم البعث سوف يكون يوم الجمعة التالى ومن ثم وجدنا الناس يودعون بعضهم .. وأخذ أهل الجيزة بعد أن حركتهم خرافة قديمة يستحمون فى النيل بعصبية ظاهرة الرجال والنساء على حد سواء ". ستانلى لينبول :سيرة القاهرة (ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص٢٤٢ .
٣٩ – على صافى حسين: الأدب الصوفى فى مصر – ابن الصباغ القوصى، شيخ التصوف الإسلامى فى القرن السابع الهجرى (مكتبة المتنبى، القاهرة ١٩٧١م)، ص١٢١بم١٧٢نقلاً عن أحمد سيد محمّد: الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، ص٣١٤ .
٤٠ – ابن النديم: الفهرست (تحقيق: محمد عونى بالاشتراك، سلسلة الذخائر، العدد ١٤٩، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٣٠٨ .
٤١- التلمسانى: سكردان السلطان، ص ٣٦٤، المقريزى: الخطط، ج١، ص١١٠ .
٤٢- ابن سعيد الأندلسى: النجوم الزاهرة فى حُلى حضرة القاهرة، ص٣٨٤ .
٤٣- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٦- ١٧٧، المقريزى: الخطط، ج١، ص ٥٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣بمص٢٩١؛القزوينى: عجائب

www.alkottob.com

المخلوقات وغرائب الموجودات، ص١٦٨-١٦٩؛ الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول ص٣٠ .

٤٤ – الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص٣١ .

٤٥ – ظلت هذه الخرافة تروى على مدى أكثر من ألف سنة والعديد من الشواهدحالياً تؤكد أن هذه الرواية لا تستند على أى أساس وأنها مجرد أسطورة من الأساطير التى أطلقها بعض المؤرخين عن الحضارة المصرية القديمة، فقبل أن يدون ابن عبد الحكم هذه الحكاية قام العديد من المؤرخين اليونانيين والرومان بزيارة مصر وكتبوا عن كل ما شاهدوه بأنفسهم وكل ما حكى لهم عن تاريخ مصر والمصريين وكان أشهر هؤلاء المؤرخين القدامى: هيرودوت واسترابون وديودور الصقلى وغيرهم.وقد سجل هؤلاء المؤرخون القدامى التاريخ المصرى وذكروا قصصاً كثيرة عن المصريين القدماء وعن حياة وعادات وتقاليد أهل مصر كما ذكروا الكثير من الخرافات والأساطير التى لا تصدق عن مصر والمصريين. ومع ذلك لم يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين أن المصريين كانوا يزفون للنيل فى كل عام عروسة حية، ولو أن ذلك قد حدث ولو مرة واحدة عبر آلاف السنين لكانت فرصة أمام هؤلاء المؤرخين ليكتبوا لقرائهم المزيد من عجائب وغرائب المصريين. أضف لذلك أن المؤرخ ابن عبد الحكم قد كتب هذه الحكاية بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص بأكثر من قرنين من الزمان، أى أنه كان غير معاصر للحكاية على فرض حدوثها– إن كانت قد حدثت فعلاً وعلى هذا فإما أن تكون هذه الحكاية قد رويت له بمعرفة أحد رواة التاريخ الشعبى فغلفتها الخرافة وساقها لنا الخيال .

٤٦ ـ تضاربت الآراء فى أصل فكرة "عروس النيل " فزعم بعض المؤرخين العرب كان المصريون يقدمون فى كل عام عروساً من أجمل النساء إلى النيل فى يوم وفائه "فيضانه" ويزفونها فى مهرجان شعبى وتركب العروس سفينة مزينة بالزهور والأعلام، وتسير على صفحة النهر ويدفعون لأهلها تعويضاً اعتقاداً منهم أن هذا القربان يرضى النيل فلا يحرمهم من خيره وبركاته، ولم يقلعوا عن هذه العادة – فى زعم هؤلاء المؤرخين – إلا فى عهد أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحسب ما نقله لنا المؤرخ العربى ابن عبد الحكم، ويقول فريق آخر: إن الأصل فى فكرة عروس النيل هو أن المصريين القدماء كانوا يقدسون النيل ويقيمون له تماثيل مختلفة، وكان يوجد فى جزيرة فيلة بأسوان هيكل لا تزال آثاره باقية يحتفل القوم فيه كل عام بهذا العيد، وذلك بإلقاء الحلى والقطع الذهبية تكريماً لهذا النهر، بينما يقول البعض الآخر :كان المصريون يلقون فى كل عام عروساً من الذهب أو البرونز أو الفخار وقت الفيضان حتى تكثر خيراته، والواقع أن تلك الأسطورة ليس لها نصيب من الصحة، وذلك أن المصريين القدماء كانوا يقصدون بهذه العروس "أرض مصر " أى أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر تشبهاً بالرجل عندما يلتقى بعروسه يوم الزفاف يؤكد ذلك أنهم لم يشيروا فيما تركوه لنا من آثار ونقوش وبرديات إلى عروس النيل هذه . انظر . وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (القاهرة ١٩٦٧م),ص٤٩– ٥١؛ محمد لطفى جمعة:مباحث فى الفولكلور(سلسلة الدراسات الشعبية، العدد٣٤بم القاهرة١٩٩٩م), ص٧٠ .

٤٧– قاسم عبده قاسم: التكوين الحضارى للمصريين من الفتح الإسلامى حتى الغزو العثمانى (الطبعة الأولى، سلسلة مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة،العدد ٣٦، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٢١٠ .

٤٨ –المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص٣٤٤ .

٤٩ – أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص ٥٦٦ .

٥٠ – الزقازيق: من المدن الكبيرة فى مصر الواقعة على (ترعة) مويس بمحافظة الشرقية والتى يسميها الناس بـ (بحر مويس).وقد شهد الوالى محمد على بكرم أهل الزقازيق وأعجب به حين زار المدينة فى أعقاب بناء قناطر الزقازيق (سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م) و التى أصبح من الضرورى تسمية هذه القناطر باسم معين تعرف به بين رجال الرى وتذكر به فى مكاتباتهم فاختاروا لها اسم قناطر الزقازيق نسبة على نزلة الزقازيق المنسوبة إلى أفراد عائلة زقزوق وعلى كفر الزقازيق موطنهم الأصلى الواقع فى شمال مكان القناطر على بعد ٤٠٠ متر وقد أقام أفراد عائلة زقزوق مساكن لهم وللباعة بجوار مكان القناطر لإقامتهم عرفت بين العمال وغيرهم باسم نزلة

www.alkottob.com

الزقازيق، ولما تم بناء القناطر (١٨٢٧م – ١٨٣٢م) زارها محمد على وأعدت له وليمة فاخرة وقدموا له الشيخ (إبراهيم زقزوق) كبير العمال فشكره على المجهود الذى بذله هو ورجاله وأفراد عائلته فى بناء القناطر، ولما علم الوالى أنها سميت قناطر الزقازيق نسبة إلى أسرة الشيخ (إبراهيم زقزوق) قال محمد على :(فلتكن الزقازيق على بركة الله).انظر:عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور(دار الإسلام، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص١٠٧ .

٥١– هيرودوت يتحدث عن مصر، فقرة ٦٠، ص١٦٠ .

٥٢ – ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص ٥٧ .

٥٣ – أحمد رشدى صالح :الأدب الشعبى (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م),ص١٣٧–١٣٨ .

٥٤ –چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة، ص٣٩ .

٥٥ – ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٥٥ .

٥٦ – الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص٣٢ .

٥٧ – نفسه، ج١، ص ٢٦٩ .

٥٨ – المقريزى: الخطط، ج١، ص ٤٤٥ .

٥٩ – الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، ص٣٢ .

٦٠– زبيدة محمد عطا: قبطى فى عصر مسيحى، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٢ .

٦١ –زياد الدريس: المدرسة الاجتماعية المصرية، مجلة المعرفة، العدد ٩٦، السعودية ٢٠٠٣، ص١٠١ .

٦٢ –أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢، ص٤٤ .

٦٣– زكى نجيب محمود: قصة عقل، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٢٨ .

٦٤– جوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ترجمة محمد عادل، المطبعة العصرية،

القاهرة، د.ت، ص٦ .

٦٥– محمد عبد السلام إبراهيم: السيد أحمد البدوى فى المأثورات الشعبية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الزقازيق، ١٩٩٨، ص١ .

٦٦– أحمد زايد: المصرى المعاصر مقاربة نظرية وإمبريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية، سلسلة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥، ص٣٠، ص٣١ بتصرف.

٦٧– العبدرى: رحلة العبدرى، ص ٢٧٩ .

٦٨– جناب شهاب: (جناب شهاب الدين بن عثمان شهاب الدين): على طريق الحج، (ترجمة: سامية محمد جلال، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٦٣٦، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص١٨٨ .

٦٩–هيرودوت: هرودوت يتحدث عن مصر، ص٨٢، ص١٢٤ .

وانظر: زبيدة عطا: قبطى فى عصر مسيحى، ص٢٢ .

٧٠– أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز: الرسالة المصرية، ص٣٩ . ٨٠) نفسه، ص٣٩ .

٧١– إبراهيم شعلان، الشعب المصرى، ص٢٠٦، ٢٠٧ . وانظر: أدور لين: المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم، صـ٢٠٣–٢٠٤ .

٧٢– وينفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر العادات والتقاليد، ترجمة: أحمد محمود، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٥، ص١٠ .

٧٣– عزت حجازى: الشخصية بين السلبية والإيجابية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٥٠، القاهرة ١٩٦٩، ص٧٧ .

٧٤– شوقى ضيف: الفكاهة فى مصر، سلسلة اقرأ، العدد ٥١١، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٤، صـ٤٠ .

٧٥– المرجع السابق, ص٤٨ .

٧٦ –نفسه، ص٤٩ .

٧٧– ابن بطوطة: الرحلة، ص٣٣ .

٧٨ –أوليا چلبى: سياحتنامه مصر،ص٥٦٦ .

٧٩– التنيسى (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب): أنيس الجليس فى أخبار تنيس، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية،

www.alkottob.com

القاهرة، ٢٠٠٠، ص٤١ .

٨٠- البلوى: تاج المفرق، ص٢٢٨ .

٨١- أبوا لصلت أمية: الرسالة المصرية، ص٣٤ .

٨٢- الناس فى صعيد مصر: مصدر سابق، ص٢٧ .

٨٣- أحمد زايد: المصرى المعاصر، ص١٢٩ .

٨٤- كلوت بك: لمحة عامة، ص٥٤٦ .

٨٥- الدهلوى :(حسن نظامى): رحلة حسن نظامى فى مصر وفلسطين والشام والحجاز، ترجمة: سمير عبدالحميد، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٢٨٥، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٦٨ .

٨٦- ابن سعيد الأندلسى (على بن موسى) (ت٦٨٥هـ): الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط من كتاب المغرب فى حلى المغرب، تحقيق: زكى محمد حسن وآخرون، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، سلسلة الذخائر، العدد ٨٩، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٩ .

٨٧- نبيل راغب: الشخصية المصرية بين الحزن والمرح، الطبعة الأولى، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢، ص٧ .

٨٨- المرجع السابق، ص٨ .

٨٩- ابن جبير: الرحلة، ص ٣٨، ٣٩ .

٩٠- السبتى: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص١٧٤، ١٧٥ .

٩١- البلوى: تاج المفرق، ص٢٣٦ .

٩٢- أحمد زايد: المصرى المعاصر، ص٢٦ .

٩٣- عزة عزت: المصرى ساخرا، الشخصية المصرية والأمثال الشعبية، مجلة الهلال، عدد أغسطس، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٧٢ .

٩٤- أبى الصلت: الرسالة المصرية، ص٣٨ .

٩٥- المصدر السابق، ص٣٦ .

٩٦- عزة عزت: لغة الشارع، ص٧٩، ص٨١ .

٩٧- نفسه، ص٨٦، ص٨٧ .

٩٨- الدهلوى (حسن نظامى): رحلة خواجة نظامى فى مصر وفلسطين والشام والحجاز، ص٦٢، ص٦٣ .

٩٩- جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف، ص٣٨ .

١٠٠- كلوت بك: لمحة عامة، ص٥٥٦ .

١٠١- وينفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر، ص١١ .

١٠٢- عزة عزت: مرجع سابق، ص٧٠ .

١٠٣- ابن خلدون (أبوزيد عبدالرحمن بن خلدون) (٧٣٢ - ٨٠٨هـ): التعريف بابن خلدون رحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، تقديم عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، العدد ١٠٠، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٤٧. وانظر: مقدمة ابن خلدون، سلسلة مكتبة الأسرة٢٠٠٧م، ج١، ص٣٩٨ .

١٠٤- المقريزى: الخطط المقريزية، الجزء الأول، مطبعة النيل بمصر، القاهرة ١٣٢٥هـ، ص٧٩. وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج١بمص٧ . ١٠٥- المصدر السابق، ص٧٩، وانظر: ابن إياس،بدائع الزهور، ص٧ .

١٠٦- ردولف: رحلة الأمير ردولف إلى الشرق مصر والقدس، الجزء الأول، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص٧٢ .

١٠٧- أندريا نيتر شايدت: الشخصية المصرية، مجلة المعرفة، العدد ٩٦، السعودية ١٤٢٤هـ، ص٨٤ .

١٠٨- كلوت بك: لمحة عامة، ص٥٥٦، ص٥٥٧ .

١٠٩- أندريا نيتر شايدت: الشخصية المصرية، ص٨٢ .

١١٠- العبدرى: الرحلة، ص٢٧٩ .

١١١- زكى نجيب محمود: تجديد الفكر العربى، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٤، ص٢١٧ .

١١٢- شلبى النعمانى: رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى، ترجمة جلال السعيد الحفناوى، تقديم: سمير إبراهيم، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٣٤٧، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٢٣ .

١١٣- النعمانى: رحالة هندى فى بلاد الشرق، ص٢٢٤ .

١١٤- كلوت بك: مصدر سابق، ص٥٥٧ .

١١٥- مصطفى الصاوى الجوينى: ملامح الشخصية المصرية، ص ١٤٢ .

١١٦- الأدفوى (كمال الدين أبوالفضل الأدفوى) (ت ٧٤٨هـ): الطالع السعيد

www.alkottob.com

الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، نشر عبد الرحمن على قريط، طبع المطبعة الجمالية بمصر، القاهرة ١٩١٤م، ص٢٠٩ .

١١٧- الحريرى (أحمد بن على) (ت فى القرن العاشر الهجرى): الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١، ص٩٦ .

١١٨- ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٩٧ .

١١٩- المقريزى: الخطط، ج٤، طبعة سلسلة الذخائر العدد ٥٤، القاهرة ١٩٩٩، ص٥٠٦، ص٥٠٧ .

١٢٠- الحلى (صفى الدين أبو الفضل عبد العزيز الطائى) (ت ٧٥٠هـ): العاطل الحالى والمرخص الغالى، تحقيق: حسين نصار، الطبعة الأولى، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص١٣ .

١٢١- نفسه، ص١٨ .

١٢٢- أندريا نيترشايدت:مرجع سابق، ص٨٤ .

١٢٣- الرسالة المصرية، ص٣٢ .

١٢٤- جمال حمدان: شخصية مصر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٣٤، ص١٣٧ .

١٢٥- العبدرى: الرحلة، ص٢٨٤ .

١٢٦- الرسالة المصرية، ص٣٣ .

١٢٧- العبدرى: مصدر سابق، ص٢٧٩ .

١٢٨- ابن خلدون: الرحلة، ص٢٥٧ .

١٢٩- المصدر السابق، ص٢٥٨ .

١٣٠- المقريزى: الخطط، ج١، ص٤٨، ص٤٩ .

١٣١- زبيدة عطا: مرجع سابق، ص٢٣ .

١٣٢ أبى الصلت: مصدر سابق، ص٣٨، ٣٩

١٣٣- هويدا عبدالعظيم رمضان: المجتمع فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى العصر الفاطمى، الجزء الثانى، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٧٧ .

١٣٤- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ص٥٤٧ .

١٣٥- المقريزى: السلوك، ج١، ص٢٢٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٢٨ .

١٣٦- المقريزى: الخطط، ج٢، ص١٠٠، وانظر: محمد حسن: الأسرة المصرية فى عصر سلاطين المماليك، ص٢٠ .

١٣٧- العبدرى: الرحلة، ص٢٧٩ .

١٣٨- عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص١٣٧ .

١٣٩- عزة عزت: لغة الشارع، ص١٦٨ .

١٤٠- البغدادى: الرحلة، ص١٤٠ .

١٤١- نفسه، ص١٣٩ .

١٤٢ نفسه، ص١٤٠ .

١٤٣- إبراهيم أحمد شعلان: الشعب المصرى فى أمثاله العامية، ص٩٩، ص ١٠٠ .

١٤٤- جناب شهاب الدين: على طريق الحج، ص٩٥ .

١٤٥- عزة عزت:مرجع سابق، ص٧٩ .

١٤٦- على طريق الحج: المصدر السابق، ص١٠٦ .

١٤٧- السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٣٧. وانظر: العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) (ت ٧٤٩هـ): مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد الشاذلى، المجمع الثقافى، أبوظبى، ٢٠٠٣، ص٤٣٦ .

١٤٨- محمد رضوان: محنة الذات بين السلطة والقبيلة دراسة لأشكال القمع وتجلياته فى الرواة العربية، الطبعة الأولى، منشورات اتحاد الكتاب العربى، دمشق، ٢٠٠٢، ص١٥ .

١٤٩-الشعب المصرى فى أمثاله العامية: مرجع سابق، ص١٠١ .

١٥٠- عبداللطيف البغدادى: الرحلة، ص١٤٠ .

١٥١- ابراهيم شعلان:مرجع السابق، ص١٠٠ .

١٥٢-البكرى: الروضة المأنوسة، ص١٤٥ .

١٥٣- وينفريد بلاكمان: مصدر سابق، ص١١ .

١٥٤- شلبى النعمانى: رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى، ص ١٧٢ .

www.alkottob.com

١٥٥- كلوت بك: لمحة عامة، ص٥٥٠ .
١٥٦- جناب شهاب الدين: على طريق الحج، ص١٩١ .
١٥٧- الدهلوى: الرحلة، ص٦٦ .
١٥٨- العبدرى: الرحلة، ص٢١٥ .
١٥٩- جوزيف بتس: مصدر سابق، ص٣٨ .
١٦٠- الدهلوى: مصدر سابق، ص٦٩ .
١٦١- العبدرى: الرحلة,ص٢٧٦ .
١٦٢- جناب شهاب الدين: مصدر سابق، ص١٩١ .
١٦٣- أولياجلبى: سياحتنامه مصر، ص٤٨٥ .
١٦٤- انظر: سيد عشماوى: الجماعات الهامشية المنحرفة فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢٣، ص٢٤.
١٦٥- ابن إياس: مصدر سابق، ص٧ .
١٦٦-٠جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف، ص٣٩ .
١٦٧- المصدر السابق: ذات الصفحة.
١٦٨-ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤٧٦ .
١٦٩- عصمت محمد حسن: جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتى، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٢٨ .
١٧٠- كلوت بك: لمحة عامة، ص٥٥٠، ص٥٥١ .
١٧١- أبوالصلت: الرسالة المصرية، ص٣١ .
١٧٢- بريس دافين: رحلة إدريس أفندى، ص٧٢ .
١٧٣- ابن إياس: بدائع الزهور، ص٧ .
١٧٤- إبراهيم شعلان: الشعب المصرى، ص٨١ .
١٧٥- فريد طه: اقتلونى واقفا، مطبوعات قصر ثقافة الشرقية، الزقازيق، ١٩٩٩، ص٤٢ .
١٧٦- الجبرتى (عبد الرحمن بن حسان): عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣، ص١٤٩، ص١٥٠ .

١٧٧- البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص١٣٣ .
١٧٨-حسنين توفيق ابراهيم: العنف السياسى فى مصر (دراسة ضمن كتاب ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن)، تحرير نيفين عبدالمنعم، الطبعة الأولى، مركز البحوث والدراسات السياسية، بجامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٥، ص٤١٤ .
١٧٩- أبوعبدالفتاح على بن حاج: فصل الكلام فى مواجهة ظلم الحكام، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت، ١٩٩٤، ص١٢٧ .
١٨٠- على عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢. وانظر: عبدالرازق أحمد السنهورى: أصول الحكم فى الإسلام، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨، ص٤١ .
١٨١-أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر: مصدر سابق، ص٧ . ١٨٢- سيد عشماوى: الجماعات الهامشية، ص٦٧ .
١٨٣- أوليا چلبى: مصدر سابق، ص٤٣٢ .
١٨٤- بيرو طافور: رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٦٩ .
١٨٥- ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٤٨٤ .
١٨٦- الجبرتى: المصدر سابق، ج٤، ص١٢٨- ١٢٩ .
١٨٧- إبراهيم شعلان: الشعب المصرى,ص٧٥ .
١٨٨- أوليا چلبى: مصدر سابق، ص٤٣٥ .
١٨٩- الجبرتى: عجائب الآثار، ج٣، ص١٣٤ .
١٩٠- عزة عزت: لغة الشارع، ص١٥٩ .
١٩١- الجبرتى: المصدر سابق، ج٣، ص١٣٤ .
١٩٢- محمد رجب النجار: الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك، عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، الكويت، ١٩٨٢، ص٨٩٢ .
١٩٣- المرجع السابق، ص٨٣١ .
١٩٤- ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، مصدر سابق، ص١٢٧ .
١٩٥- عبدالعزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠، ص١٢٩، وانظر: كمال

www.alkottob.com

حامد مغيث: مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧– ١٧٩٨م، الطبعة الأولى، مركز الدراسات والمعلومات القانونية، القاهرة، ١٩٩٧، ص٧١ .

١٩٦– الشيخ يوسف الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٤٥ .

١٩٧ كمال حامد: مصر فى العصر العثمانى، ص٧٢ .

١٩٨– المرجع السابق، ص٧٣ .

١٩٩– (Sonnini، C.S.: Travels in upper and lower Egypt Tr. Hunter، London، John Stockdale، 1919، P. 204.

٢٠٠– أوليا چلبى: سياحتنامه، مصدر سابق، ص٤٣٣ .

٢٠١– أحمد عبد الله رزة: قضية الأجيال، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٣٦ بتصرف.

٢٠٢– العبدرى: مصدر سابق، ص٢٧٦، ٢٧٧ .

٢٠٣– حسين مؤنس: الحضارة، مرجع سابق، ص٣٧٤ .

٢٠٤– وينفريد بلاكمان: الناس، مصدر سابق، ص١١ .

٢٠٥– كلوت بك: مصدر سابق، ص٥٤٨ .

٢٠٦– المصدر السابق، ص٥٤٩ .

٢٠٧– المقريزى: الخطط، ج١، ص٨١ . وانظر: هويدا عبدالعظيم: المجتمع فى مصر، ج٢ص٨٠، ٨١ . وانظر: أحمد السيد سرحان: الحوف الشرقى (إقليم الشرقية) من الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٩٥، ص١٥٦، ص٤٢٤ .

(٧٤٦) أحمد سرحان: الحوف الشرقى، ص٤٢٤ .

(٧٤٧) النعمانى: رحالة هندى فى بلاد الشرق، ص٢٢٠ .

(٧٤٨) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب) (ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب، السفر الأول، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٧٩، ص٣٤٧، ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦ .

(٧٤٩) محمد المويلحى: الشرق والغرب، (مقال) جريدة مصباح الشرق، العدد ٢٣ يونيو ١٨٩٨م، نقلا عن أحمد الهوارى: نقد المجتمع فى حديث عيسى بن

هشام، دار عين للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٩ .

(٧٥٠) ابن سعيد الأندلسى: الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط، ص٩ .

(٧٥١) ابن سعيد الأندلسى: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٩ .

(٧٥٢) ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثانى، طبعة مكتبة الأسرة، ص٨٠٥ .

(٧٥٣) ابن جبير: الرحلة، طبعة مكتبة مصر، ص٣٢، ٣٣ .

(٧٥٤) آدم صبرة: الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك، ترجمة قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومى للترجمة، العدد ٥٠٩، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٨٧ .

٢٠٨– المرجع السابق: ص٨٨

٢٠٩ كلوت بك: مصدر سابق، ص٥٤٩ .

٢١٠–النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ص٣٥٥ .

٢١١– ابن زولاق: فضائل مصر، ص١٢، ابن ظهيرة: محاسن مصر والقاهرة، ص٧٦ .

٢١٢– ابراهيم أحمد شعلان: الشعب المصرى، ص١١٧ .

٢١٣– المصريون المحدثون: مرجع سابق، ص٢١٦ .

٢١٤– السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٩٩ .

٢١٥– بهاء الدين السبكى: عروس الأفراح، ص٨ .

٢١٦– ابن أبى أصيبية (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم ابن خليفة بن يونس السعد الخزرجى): عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج٢، الطبعة الأولى، المطبعة الوهابية، القاهرة، ١٢٩٩هـ، ص١٠٥ .

٢١٧– المصدر السابق، ج٢، ص١١٣، ص١١٥، انظر: مصطفى الصاوى: ملامح الشخصية المصرية، ص١٠٣، ص١٠٤ .

٢١٨– جمال الدين الشيال: مقدمة تحقيق كتاب (أنيس الجليس)، ص٢٤ .

٢١٩– المقريزى: الخطط، ج١، ص٢، ٣ .

٢٢٠– المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، طبعة مكتبة الآداب، ص٣٩ . وانظر: سحر السيد إبراهيم: الهجرات وتطور مدينة القاهرة فى عصر سلاطين

www.alkottob.com

المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب الزقازيق، ٢٠٠١، ص٢٠٠: ص٢٢٤ .
٢٢١- ابن خلدون: المقدمة، الجزء الثانى، طبعة مكتبة الأسرة، ص٦٩٨ .
٢٢٢- ابن بطوطة: الرحلة، ص٣٢ .
٢٢٣- جناب شهاب الدين: على طريق الحج، ص ١٨٨ .
٢٢٤- بنيامين التطيلى (٥٦١ - ٥٦٩هـ): رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد، دراسة عبد الرحمن الشيخ، طبعة المجمع الثقافى، الإمارات ٢٠٠٢، ص٣٥٨ .
٢٢٥- الرسالة المصرية: مصدر سابق، ص٢٣ .
٢٢٦- المصدر السابق، ص٢٤ .
٢٢٧- الإدريسى (أبى عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى): نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤، ص٣٢٤ .
٢٢٨- الزهرى (أبى عبد الله محمد بن أبى بكر) (ت أواسط القرن السادس الهجرى): كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٠ .
٢٢٩- بريس دافين: إدريس أفندى فى مصر، ترجمة: أنور لوقا، سلسلة كتاب اليوم، العدد ٣٢٣، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٨ .
٢٣٠- القلصادى (أبو الحسن على القلصادى الأندلسى)(ت٨٩١هـ): رحلة القلصادى، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨، ص١٢٦ .
٢٣١- ابن ظهيرة: الفصائل، مصدر سابق، ص٨٠ .
٢٣٢- النويرى: نهارية الأرب، مصدر سابق، ص٣٥٣ .
٢٣٤- الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول، ص٤ .
٢٣٥- أوليا چلبى: سياحتنامه مصر، مصدر سابق، ص٦٠٧ .
٢٣٦- النويرى: نهاية الأرب، مصدر سابق، ص٣٥٤ .
٢٣٧- سياحتنامه مصر، ص٢٠٧ .

المؤلف فى سطور

مواليد الشرقية في٢٠ / ٤ / ١٩٧٩ م.
١ - دكتوراه فى فلسفة الآداب بمرتبة الشرف الأولى (جامعة الزقازيق / كلية الآداب) (قسم التاريخ) (التاريخ الوسيط).
٢ - ماچستير فى الآداب بتقدير ممتاز(كلية الآداب / جامعة الزقازيق) (قسم التاريخ) مع التوصية بالطبع والنشر والتداول بين الجامعات.
٣- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية(اتحاد المؤرخين المصريين).
٤ . عضو جمعية اتحاد المؤرخين العرب.
٥ . عضو الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.
٦- عضو رابطة أدباء الشام «لندن».
الجوائز والأبحاث المنشورة:
١- جائزة سعاد الصباح فى أدب الرحلات عن كتاب "أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم»، الكويت ٢٠٠٩م.
من أعماله:
٢ - الشرقية بين التاريخ والفلكلور.
٣ - الأساطير المتعلقة بمصر فى كتابات المؤرخين المسلمين .
٤ - الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية .
٥- "مصر والعمران بين كتابات الرحالة والأساطير العربية .
٦- القدس فى الأساطيرالعربية.
٧ - أشهر الرحلات العربية من الأسطورة إلي الفضاء، ٢٠٠٩م.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

www.alkottob.com

صدر مؤخراً فى سلسلة
مكتبة الدراسات الشعبية

114- الشخصية المساعدة للبطل ..... د. مصطفى جاد

115- حكايات شعبية مصرية .....جمعها : أحمد محمد عبد الرحيم

تقديم : د. نبيلة إبراهيم

116- تربية الطفل فى الفولكلور..... د.أميمة منير جادو

117- قصة الزير سالم الكبير .....سيرة شعبية

118- كليلة ودمنة تأليفاً لا ترجمة..... د.محمد رجب النجار

119- فى الفولكلور القبطى..... روبير الفارس

120- الأغنية الشعبية ..... د. مجدى محمد شمس الدين

121- أشكال الغناء الشعبى فى الشرقية..... حامد أنور

122- الزواج والبيئة فى منطقة الشلاتين..... جيهان حسن مصطفى

123- الخطاب الأدبى للموال القصصى ج١ ..... د.محمد حسين هلال

124- الخطاب الأدبى للموال القصصى ج٢ ..... د.محمد حسين هلال

125- أغانى الأفراح فى الدلتا ..... د.محمد حسن غانم

www.alkottob.com